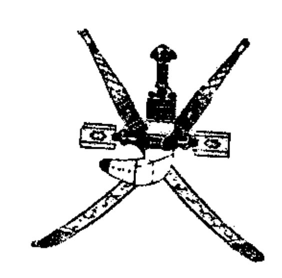
سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة



هيميان الزاد إلى دار المعاد

للعالم الحجة
محمد بن يوسف الوهبي الاباضي المصعبي

الجزء العاشر

ثان

١٤٠٨هـ — ١٩٨٨م


فيصل عيسى البابي الحلبي
مطبعة
دار احياء الكتب العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة طه

وتسمى سورة الكليم . مكية إلا « فاصبر على ما يقولون » الآية . وإلا « ولا تمدن عينيك » الآية .

وعن أبى رافع : أضاف النبى ﷺ ضيفا فأرسلنى إلى رجل من اليهود أن أسلف منه دقيقا إلى هلال رجب فقال : لا إلا برهن فأتيت النبى ﷺ فأخبرته فقال : أما والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض فلم أخرج من عنده حتى نزلت : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم » .

وآيها مائة وخمس وثلاثون .

وقيل : مائة وأربعون .

وقيل : مائة واثنتان وأربعون .

وقيل : مائة وأربع وثلاثون .

وكلمها ألف وثلاث مائة وإحدى وأربعون .

وحروفها خمسة آلاف ومائتان واثنتان وأربعون .

قال ﷺ : أعطيت طه والطواسين من ألواح موسى ، وأعطيت فاتحة القرآن وخواتم السورة التى ذكرت فيها البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصل نافلة . والنافلة : الزيادة .

وعنه ﷺ : لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلا يس وطه . وعنه ﷺ : من قرأ سورة طه له يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار .

وقالوا : مَن كتبها وجعلها في خرقة حرير أخضر وقصد يريد التزوج إلى قوم أجابوه وتم له . وإن قصد إصلاحا بين قوم لم يخالفه منهم أحد . وإن مشى بين عسكرين افترقوا ولم يقاتل بعضهم بعضا ، وإن شربها وجد مايطلب من السلطان . وإذا استحمت بمائها من ليست متزوجة تزوجت سريعا بسهولة .

بسم الله الرحمن الرحيم

(طه) أمال أبو بكر وحمزة والكسائي الطاء والهاء ، وورش وأبو عمرو الهاء فقط ؛ وفخم الهاء . والباقون الفتح . وإنما أخلص ورش وأبو عمرو فتح الطاء لاستعلائها . وهما من أسماء الحروف .

وقيل : معناه رجل ، على لغة عك .

وقيل : على لغة عكل .

وقيل : على لغة طيء ، وهو قول ابن جبير . وقيل : على لغة النبط . وقيل : يا إنسان على لغة القبط . وقيل : بالسريانية . وقيل : لغة عربية في عكل من عدنان . أي عندهم بمعنى يا رجل .

والمراد بالرجل والإنسان النبي ﷺ .

وقيل : هو من أسماء النبي ﷺ ذكره .

وقيل : معناه يا جبريل بالسريانية . وقيل : بالعبرية .

وعن عكرمة : طه : يا رجل بالحبشية .

وقيل : قسم أقسم الله بطوله أي جُوده وبهدايته .

وقيل : الطاء من اسمه طاهر ، والهاء من اسمه الهادي .

ويصح أن يكون الأصل يا هذا قلبت الياء طاء فحذف الذال وأبقى الهاء ، ولا يخفى ضعف هذا ، إلا إن كان ذلك القلب لغة قوم وأنشد الطبري في ذلك :

... دعوت بطه في القتال فلم يجب ...

أي برجل أو بإنسان وبهذا . ...

ومثله :

• إن السفاهة طه من خلائقكم

ولا دليل فى ذلك باحتماله القسم .

والطاء قد مدا نظيريها والقاء ضدا مشبعا .

وقرأ الحسن طه بإسكان الهاء وذهب بأنه أمر بالوطء ، وأن النبى ﷺ كان يقوم فى تهجده على إحدى رجليه ، ثم على الأخرى ، فأمر بأن يطأ الأرض بقدميه معا . والأصل طأ قلبت الهمزة هاء أو قلبت ألفا كقوله لا هناك المرتع فبنى عليها الأمر ، أو الأصل طأ بالهمزة أو بألف عن همزة ثم ألحق هاء السكت بعد حذف الهمزة أو الألف لأنه أمر من وطئ يطأ حذفت لامه للجزم وألحق هاء السكت .

ويجوز أن يكون أصل طه بسكون الهاء طأ بالألف بدلا من الهمزة والها ضمير للأرض حذفت ألف ها ، وأما ألف طا فحذف خطًّا باتفاق ، ونطقا على قراءة .

(مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ) ۞ خبر طه إن جعلنا اسما بمعنى القرآن أو السورة والرابط على الأول إعادة المبتدأ بلفظه والعموم على الثانى .

وإن جعل طه قسما فالجملة جواب أو نداء فالجملة مدعو لها .

وإن جعل أمرا أو خبرا لمحذوف أو طائفة من الحروف ، فالجملة مستأنفة .

وحمزة والكسائى يميلان أواخر هذه السورة من الشقى إلى ومن اهتدى .

وورش بين بين وأبو عمرو يميل ما فيه راء نحو ترى وما عداه بين بين والباقون يخلصون الفتح .

وأنزل الله ذلك تخفيفا عنه فى قيام الليل وكان يقومه كله ولذا قال بعضهم : هذه ناسخة لفرض قيام الليل المذكور فى المزمل .

[illegible] وقيل لما رأى المشركون من [illegible] صلى الله عليه وسلم [illegible] عيشه

قالوا : إن محمدا مع ربه [illegible] لا [illegible]

[illegible] فقيل : [illegible] أنزل عليك القرآن يا محمد [illegible] فنزلت الآية .

[illegible] وقيل : كان [illegible] على رجل [illegible] فنزل عليه ذلك [illegible]

وروى أنه صلى الله عليه وسلم صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام :

أبق على نفسك فإن لها عليك حقا [illegible] إلا [illegible]

[illegible] القوم أعلام [illegible]

وقيل : إن أبا جهل والنضر بن الحارث قالا [illegible] الأنك [illegible]

[illegible] بأن القرآن سبب [illegible] وأما الما

[illegible]

وقيل [illegible] ما أنزلنا عليك القرآن [illegible] : [illegible] كفار

قريش . وعُدِل عن التعب إلى الشقاء تعريضا [illegible]

[illegible] من قراءة [illegible] بالإسكان [illegible] من

[illegible] بالفتح [illegible] لأن هذا تفسير القراءة [illegible] القراءتان [illegible]

تفسير لقراءته بالإسكان [illegible]

ويصح إرجاع الهاء الساكنة لموضع الصلاة فهي بضمير مذكر أمره أن يطأ

موضع الصلاة برجليه [illegible]

[illegible] (إِلَّا تَذْكِرَةً) استثناء منقطع أى لكن أنزلناه تذكرة والأصل إلا

تذكيرا لأن اللام صحيحة وليس بدلا من محل لتشقى ؛ لأن الشقاوة غير التذكرة

اللهم إلا أن يقال بدل إضراب تابع للمحل [illegible] مؤول بمصدر مجرور باللام

[illegible]

وقرئ ما نزل بالبناء للمفعول ورفع القرآن وليس تذكرة مفعولا لأجله لأن الفعل الواحد لا يتعدى لعلتين إلا بتبع كالعطف كما لابن هشام.

وقال شيخ الإسلام : التحقيق جواز تعديته إليهما ، أو إلى أكثر في غير العقليات كما هنا ؛ لأنها علامات . ولا مانع من اجتماع علامات على شيء واحد ومنعه في العقليات للزوم المحال كالجمع بين النقيضين .

ويجوز قطعاً جعله مفعولا لأجله إذا علقت اللام بمحذوف نعت القرآن أو حال له أي ما أنزل عليك القرآن المنزل لتتعب تبليغه أو منزلا أو ثابتاً لتعب تبليغه لأن تذكرة حينئذ تعليل لمجموع أنزلنا عليك لتشقى .

ومنع القاضي إياه سهو . وقيل : تذكرة حال من الكاف أو القرآن على تأويله باسم الفاعل أو تقدير مضاف أو مفعول مطلق لمحذوف والمحذوف حال ولام الجر واجبة في قوله : « لتشقى » لأن فاعل الشقاء وفاعل الإنزال متغايران .

(لِمَنْ يَخْشَىٰ) لأنه المنتفع به .

وعن مجاهد : ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى في الصلاة إلا تذكرة لمن يخشى ويتوسط ويداوم وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم . وذكروا أن رسول الله ﷺ رأى حبلا ممدودا بين ساريتين في المسجد فقال : ما هذا ؟

فقالوا : علاقة تصلي ، فإذا غُلبت تعلقت به .

فقال : لتصل ما نشطت أو عقلت ، فإذا غَلبت فلتقم .

(تَنزِيلًا) منصوب بمحذوف أي نزلناه تنزيلا أو هو بمعنى القرآن مفعول ليخشى وفكر تعظيما

ويجوز أيضاً في هذا الوجه أن يكون مصدرا .

ويجوز أن يكون تنزيلا منصوبا على المدح أو بدلا من تذكرة إن جعل تذكرة حالا .

وإن جعل تنزيلا حالا من الأشياء لا يصح بنفسه ولا معه ؛ فإن المعنى حينئذ ما أنزلنا عليك القرآن إلا تنزيلا أو تنزيل سورة كذا وقرئ تنزيلٌ بالرفع خبر لمحذوف .

(مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى) جمع عُليا ككبرى وكُبَر . وهذا إلى الحسن تفخيم لشأن التنزيل لنسبته إلى من هذه صفاته وأفعاله .

وبدأ بخلق الأرض والسموات لأنها أصول العالم وقدّم الأرض لأنها أقرب إلى الحس ، ووصف السموات بالعلى دلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها

ومن متعلقة بتنزيلا أو بمحذوف نعت له .

وفي قوله : ممن ، وقوله : الرحمن . وقوله : الله التفات من التكلم في قوله : « وما أنزلنا » إلى الغيبة ، وذلك أن الأسماء الظاهرة من قبيل الغيبة ، وأما ضمائر الغيبة بعدها فتبع لها .

وفائدة الالتفات الحسن في الكلام أحسن مخالفة فيين أي طريق ، فإنه يفيد حسناً وقد ذكره كثير في البديع

وأيضا هذه الصفات تَشرُف مع لفظ الغيبة وأيضاً أسند إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن أولا ثم ثنى بالنسبة إلى من اختص بصفات عظيمة فهو مفخم من جهتين ومَن هذه صفاته يجب الإيمان بكلامه والانقياد له .

ويجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل والملائكة النازلين معه .

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) استولى . وبسط الكلام في ذلك في سورة الأعراف والرحمن مبتدأ وجملة استوى خبر وإن جعلنا الرحمن خبرا لمحذوف على المدح فالجملة خبر ثان أو خبر لمحذوف .

وقرئ بجر الرحمن بدلا من مَن أو بيان لا نعت ؛ لأن مَن لا تنعت ، وعلى الجر فالجملة خبر لمحذوف ولا [illegible] - كما جوزت الإشارة إليه :

كناية عن الملك والقهر كناية مشهورة؛ قال : استوى فلان على عرشه أى سريره أى ملكه وقهره وإن لم يكن له سرير . وأعقب بذكر العرش لأنه أجرى منه الأحكام والمقادير على ما شاء فى الأزل من ترتيب وغيره .

(لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ) ملكا وخلقا . وأما نفس السموات والأرض فدل على ملكه لمن خلقه لهن وفى ذلك دليل على كمال قدرته .

والثرى : الأرضون السبع . والأرض وإن ذكر أراد بها الجنس ، فهن له وما تحتهن له .

وقيل : الثرى : أسفل الأرض السابعة وآخرها ؛ وقيل : المراد بما تحت ذلك الصخرة التى تحتهن .

وقيل : الأرض على ظهر الحوت والحوت على قرن ثور ، وقرناه بالثيان تحت العرش والبحر على صخرة خضراء اخضرت السماء بها ، وهى المذكورة فى سورة لقمان والصخرة على الثرى ، ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله ، ويوم القيامة يسيل البحر فى جوف الثور .

وقيل : الثرى هذا الثرى الذى نحن عليه ، فالذى تحته هو الأرضون .

وأصل الثرى : التراب الندى وفسر به بعضهم الآية .

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ) تعلق به . (فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) تعليل نائب عن جواب إن . وإن شئت فقل : جوابها محذوف . وذلك تعليل بلا نيابة . وإن تجهر بكلام فالله غنى عن جهرك بعلمه منك بلا جهر ؛ لأنه يعلم الكلام السر وما هو أخفى منه وهو ما خطر فى النفس أو حدثت به النفس فلا تجهد نفسك بالجهر فى ذكر الله والدعاء . وذكر ذلك هضبا ما من الاقتران الإرادة والقلوب فى

حقه سبحانه والإرادة لا تنفك عن العلم فأراد أن علمه محيط بجليات الأمور وخفياتها على سواء. فالجهر بالذكر والدعاء إنما هو لتصوير النفس بهما ورسوخها فيه ومنعها عن الاشتغال بغير الله وهضمها بالتضرع والصياح.

وعن ابن عباس: السر: ما في النفس، وأخفى: ما سيخطر فيها.

وقيل: السر: ما قيل أو عمل في غير حضرة الناس ولم يعلموا به، وأخفى: ما في النفس.

وقيل: السر: ما سره الناس. والأخفى: ما لا يظهره الله سبحانه للخلق، ويتفرع عن ذلك زجر المكلف عن القبائح ظاهرة أو باطنة، من حيث إن الله سبحانه يعلم كل ما خفي أو ضر، مما فيه ثواب أو عقاب أو ما لا ثواب ولا عقاب له. وهذا أبلغ من قول الخازن: إن المراد ما فيه ثواب أو عقاب.

وفي الآية أيضا نهي عن الجهر كما قال: «واذكر ربك في نفسك» الآية.

(اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ) لما ظهر أنه الجامع لصفات الألوهية بيّن أنه المنفرد بها والمتوحد بمقتضاها وفضّل أسماءه على سائر الأسماء لدلالتها على معان في نهاية الحسن كالتقديس والربوبية. وهي كلها أحسن.

ونعتها بالحسنى إنما هو للمدح لا للاحتراز. والحسنى مؤنث الأحسن وأنث الأسماء لأنها جماعة.

وفي الحديث: إن لله تسعة وتسعين إسما من أحصاها دخل الجنة. والظاهر عندي أن المراد بإحصائها العمل بمقتضاها والصيانة عن الخروج عنه. فمقتضى لفظ الله مثلا أن تعبد واجب الوجود سبحانه. ولا يخفى أن من عبده بأداء الفرائض يدخل الجنة بفضل الله.

وأول السورة إلى الحسنى خصوصه السعادة والبركة والطاعة من كتب ذلك

فى إناء مرمر أو صينى أو بِلّور بمسك وكافور وماء ورد وبحاه بدهن بان وأصاف إليه شيئاً من المدبر وكافور ومسح بذلك حاجبيه وجبينه بنال القبول والجاه والحبة والعز عند كل من يقابله بإذن الله تعالى .

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ) أتبع ذكر نبوته ﷺ بقصة موسى ليقتدى به فى حمل أثقال النبوة وتبليغ الرسالة والصبر على مُقاساة الشدائد ؛ فإن هذه السورة من أوائل ما نزل .

قال الشيخ هود : هل بمعنى قد والمراد التحقيق ويحتمل التوقع فإن كان ﷺ يتوقع حديث موسى فظاهر وإلا فإنه سبحانه وتعالى عظم حديث موسى حتى إن من شأن من سمع به مجملا أن يتوقع تفصيله .

وبعد فالحق أن هل للاستفهام التقريرى أى هل يا محمد بما عندك من إتيان حديثه أو عدم إتيانه إليك . ومثل هذا فى الاستعظام كثير كما تبدأ الرجل — إذا أردت إخباره بأمر غريب — فتقول : هل علمتَ كذا وكذا ثم تخبره .

(إِذْ رَءَا نَارًا) متعلق بحديث لأنه اسم مصدر دال على الحدث فهو بمعنى التحدث بل أجاز الدمامينى التعلق بنحو الحديث والدهن مما فيه إشارة إلى الحدث إشارة مّا مع أنه غير مصدر ولا اسمه ولا غيرهما مما يعلق فيه الجار والظرف والحديث يستعمل اسم مصدر واسما كرجل ويجوز أن يكون إذ مفعولا لا ذكر والمراد بالنار النور ، لأنه رآه وظنه ناراً . وقيل : نار حقيقة .

روى أن موسى عليه السلام استأذن شعيبا فى الرجوع من مَدْين إلى مصر ليزور والدته وأخاه ، فأذن له وخرج بأهله وماله فى أيام الشتاء فى ليلة مظلمة باردة مثلجة ليلة جمعة ، وأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته حامل ، وهى فى أيام الولادة لا تدرى أتضع ليلا أو نهاراً وتفرقت ماشيته وأجاءه المسير إلى

جانب الطور الغربى الأيمن وولد له ابن فى وادى طوى ، فأخذ زنده يقدح ولا يخرج نارا ، فأبصر نارا فى جانب الطور على يسار الطريق من بعيد ، وقد ضل عن الطريق فرأى نارا عظيمة

(فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا) أقيموا مكانكم . وقرأ حمزة بضم الهاء . قال الصبان من غيره : وهو لغة الحجاز .

(إِنِّي آنَسْتُ نَارًا) أبصرتها من بعيد . وقيل : أبصرتها إبصارا لا شبهة فيه .

وقيل : الإيناس : إبصار ما يؤنس به .

(لَعَلِّي آتِيكُمْ) اسم فاعل باعتبار أن الأصل فى الإخبار الإفراد أو مضارع باعتبار أنه الأصل فى الاستعمال على الصحيح والدلالة على التجدد وأما كونه الأصل فى العمل فضعيف هنا لضعف تفاوت الوصف والمضارع فى العمل فى الظروف والمجرورات .

(مِنْهَا بِقَبَسٍ) شعلة : وقيل : جمرة . والشعلة تطلق على فتيلة وعود وحطب أوقدت فى طرفه نار .

(أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) الاستعلاء مجازى فإنه لا يكون أحد فوق النار ولكن شبه الكون بجنبها بالكون عليها فاستعار لفظ على بجامع القرب والاتصال أو لما كان من بجانبها مستعليا على ما يقرب منهـا أطلق أنه استعلى عليها ، أو الاستعلاء حقيقى ، فإن من كان بجانب النار يستعلى عليها للاصطلاء ولا سيما فى تلك الليلة . وأيضا هو مشرف عليها فى الجملة ولو بلا اصطلاء .

ويحتمل أن يريد بالاستعلاء عليها ملكها . وأنشد ابن هشام وغيره :

• وبات على النار الندى والمحلق •

كالاستعلاء المجازي . والمراد أني أجد عند النار هداية إلى الطريق أو إلى أبواب الدين ، أو إلى الشكل فتصح أن تكون على بمعنى مع ، ولا بعد في إرادة الشكل أو إرادة أبواب الدين ؛ فإن أفكار الأبرار مائلة إلى الدين في كل أحوالهم ووجود الهداية في دخولها له .

وقدر بعضهم هدى بهاديا وبعض بذا هدى .

ولما كان الإيناس محققا مقطوعا به أكده لهم بإن ليوطن أنفسهم .

وأما الإتيان بالقبس ووجود الهدى فمترقبان ، فجاء بلعل طمعا وإطماعا ولم يقطع لعدم دليل القطع ، فلو قطع استراحت أنفس إليهما إلى القبس والطريق استراحة كلية ، فإذا لم يجد ما قصد انقلبت تلك الاستراحة حزنا عظيما لشدة عدم ما وطنت النفس على وجوده . كما ظهر لي .

روي أنه لما وصل إلى النار وجدها تخرج من جذع شجرة شديدة الخضرة يقال لها : العليق . وقيل : العوسج . وقيل : سمرة . وقيل : شجرة العناب . والنار بيضاء تحت أجزاء الشجرة تكاد تخطف البصر ساطعة . ووقف ينظر متحيرا ، ولعل شيئا يسقط . فطال عليه ذلك ، فأخذ ضغثا من حطب رقيق ليقتبس ، فمالت إليه كأنها تريده . وما زال يجيء لها ويذهب حتى خمدت واستقرت في أصل الجذع ، فزاد تعجبا وتحيرا فصار يطوف يمينا وشمالا . وقيل : نار خضراء .

وروي أنه كان غيورا فصار يمشي ليلا بأهله لا نهارا . ولما ذهب إلى النار تباعدت منه ومشت ، فرجع فتبعته ، وهكذا ، فتيقن أنه أمر خارق .

(فَلَمَّا أَتَاهَا) أي النار . (نُودِيَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ) بكسر الهمزة لتأويل النداء بالقول .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتحها لفتديتة حرف الجر وهو الباء وسكن غير نافع وابن كثير وأبي عمرو الياء وياء إني آنست وياء إني أنا الله وسكن الكوفيون ياء أهلي آتيكم [illegible]

ولا يخفى ما في الكلام من التأكيد بإن وأنا ، فقد روى أنه نودى : ياموسى فقال مسرعا : لبيك لبيك سمعت كلامك : وأين أنت ؟

فقال : إني أنا ربك فوقك وعن يمينك وعن شمالك وأمامك وخلفك وفي الأرض وأقرب إليك من حبل الوريد .

ولما انقضى الخطاب وانصرف من الوادي تعرض له إبليس — أبعده الله عنا — فقال له : لعلك تسمع كلام شيطان .

فقال : أنا عرفت أنه كلام الله سبحانه وتعالى بأني أسمعه من جميع الجهات وبجميع الأعضاء .

ويروى أنه لما أتى النار وجد تسبيح الملائكة ، فإذا قرب منها بعدت ، وإذا بعد قربت ، ولم يختلف الصوت .

وإن قلت : كيف تحقيق المسألة على مذهبنا ؟

قلت : إن الله — سبحانه وتعالى عما تقول المشبهة — خلق كلاماً في الشجرة أو في الهواء أو على لسان ملك كما أنزل على لسان جبريل : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ونحو ذلك ولم يتوهم أحد أن المراد بالمنزل الحافظ جبريل وإنما قال : سمعه من كل جهة وكل عضو دفعاً لما يوسوس إليه أنه كلام شيطان .

(فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ) تعظيما للمقام ، كما تخلعان للمسجد ونحوه تواضعاً ، ولتنال قدماه بركة المقام وكانتا من جلد بقرة مذكاة .

وقيل : لأنهما من جلد حمار ميت .

وروى أنه غير مدبوغ ، ولما خلعهما ألقاهما من وراء الوادى .

(إِنَّكَ) تعليل للخلع المأمور به (بِالْوَادِي) في الوادي (الْمُقَدَّسِ) المطهر المعظم المبارك .

قيل : قدّس مرتين .

وقيل : المراد المقدس عن اشتغال القلب بالأمل والمال والولد فالمراد بخلع النعلين الكناية عن تفريغ القلب عن الاشتغال بذلك .

(طُوًى) اسم للوادى بدل أو بيان ممنوع من الصرف للتأنيث باعتبار البقعة مع العلمية .

وقيل : هو كنثنى من الطى بمعنى مرتين مفعول مطلق لنودى أو المقدس ، أى نودى نداءين ، أو قدس مرتين . والصحيح الأول .

قال ابن هشام : وأما طوى فيمن منع صرفه فالمعتبر فيه التأنيث باعتبار البقعة لا العدل عن طاوٍ ؛ ولأن العدل قد أمكن غيره وهو التأنيث فلا وجه لتكلف العدل .

ويؤيد اعتبار التأنيث أنه يصرف باعتبار المكان فلو كان العدل معتبرا فيه لما انصرف إذا اعتبر فيه المكان انتهى .

وقرأ ابن عامر والكوفيون بالتنوين باعتبار التذكر ؛ لأنه واد ؛ ولأنه موضع وذلك وادى الطور .

وقيل : واد مستدير عميق مثل الطور .

وقيل : إن طوى اسم واد بالشام ، وهو عند الطور الذى أقسم الله به فى القرآن .

وقيل : إن طوى بمعنى الرجل بالعبرانية ، وقيل : معرب معناه ليلا .

وقيل : طوى بمعنى طويت لك الأرض مرتين .

قال الجوهرى : لما قيل لموسى : استمع لما يوحى وقف على حجر ووضع يمينه على شماله وألقى ذقنه على صدره ، ووقف يسمع وكان كل لباسه صوفا .

واعلم أن الصحيح أن أمر موسى عليه الصلاة والسلام انقضى تلك الليلة . وزعم بعض عن ابن عباس أنه أقام فى ذلك الأمر حولا .

(وَأَنَا اخْتَرْتُكَ) لرسالتى ولكلامى . وقرأ حمزة وأنا اخترناك بتشديد النون . وقال أبو عمر الدانى : إن الكسائى قرأ أيضا مثله .

(فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ) ما موصول اسمى أو حرفى . والأول أولى ؛ لأنك إذا قلت للوحى وأردت المعنى المصدرى ضعف المعنى ؛ لأن الاستماع للموحى أولى منه للوحى . وإن أولت الوحى بالموحى جعل ما موصولا اسميا مغن عنه ثم لا شك على تعليق اللام باخترتك ؛ فإنه يجوز تعليقها به . فجملة استمع معترضة وتعليقها باستمع ، ولا يبعد التنازع . وفى الكلام نهاية الهيبة والجلال له ، كأنه قيل : لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له .

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي) وحدى ، وذلك مستأنف من نفس الوحى .

وادعى القاضى أن إننى أنا الله الخ بدل من ما ويرده أن الهمزة مكسورة فلو كان ذلك بدلا لفتحت لنية اتصالها بلام الجر . اللهم إلا أن يقال : المراد لفظ إننى أنا الله الخ . وأفاد هذا الكلام أن الوحى إنما هو توحيد هو منتهى العلم ، وأمر بعبادة كمال العمل .

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ) إيت بها مستقيمة خصها بالذكر وأفردها بالأمر لعظم

شأنها ؛ لأن فيها تذكر المعبود وشغل القلب واللسان به . (لِذِكْرِي) لتذكرني فيها ذكر قلب ولسان ، بحيث لا تُرائى بها ولا تشوبها بذكر غيرى ، أو لتكون لى ذاكراً غير ناس ؛ فإن المخلصين يجعلون ذكره على بال ويقْصِرون هممهم به . واللام للتعليل والمصدر مضاف للمفعول اصطلاحاً

وقيل : لأنى ذكرتها فى الكتب وأمرت بها أو لأذكرك بالثناء وأجعلَ لك لسان صدق أو لأذكرك فى عليين بها فاللام للتعليل والمصدر مضاف للفاعل ، أو لأوقات ذكرى بتقدير مضاف ، وهو مواقيت الصلاة ، أو لذكر صلاتى بتقدير مضاف أيضا . ويدل له ما روى عن أبى عبيدة عن جابر بن زيد : من نسى صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها . وفى رواية تقديم النوم . وفى رواية : فليقضها بدل فليصلها

وروى أنس نسى صلاة فليصل إذا ذكر لا كفارة لها إلا ذلك . وممن فسر الآية بذلك قتادة .

وروى مالك وأبو عمرو الإمام الأندلسى أن النبى ﷺ لما قال ذلك ذكر الآية تفسيراً لها بذلك واللام فى الوجهين الآخرين للتوقيت .

وإن شئت فقل للحضور والمصدر على الأول من الوجهين مضاف للمفعول اصطلاحاً وفى الثانى لمحذوف ناب عنه مذكور لا فاعل ولا مفعول .

وإن شئت فلا تقدر مضافاً فى الثانى لأنه إذا ذكر الصلاة فقد ذكر الله ، ولأن فيها ذكره ، ولأن الذكر والنسيان من الله . وقيل : الذكرى بعد غفلة أى أقم الصلاة النافلة إذا تذكرت حتى لما وأمرى بها . وقرئ بإسكان الياء . وقرئ للذكر .

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ) [illegible] (أَكَادُ أُخْفِيهَا) [illegible] فلا أذكر

لهم أنها آتية ولولا اللطف وقطع العذر ما أخبرت بإتيانها .

[illegible] فلولا [illegible] ما أخبرت [illegible] أو أكاد أخفيها بأن

[illegible] أو أخفي [illegible]

[illegible] أكاد أزيل خفاءها بأن أظهرها .

وقرأ [illegible] بن جبير [illegible] ابن كثير وعاصم [illegible]

[illegible] على أنه مضارع [illegible]

هذا [illegible] أهل اللغة وبعض الشراح [illegible]

وقيل أكاد أخفيها من نفسي فكيف يعلمها [illegible] وذلك مبالغة على

عادة العرب إذا بالغوا في كتم شيء وإلا فلا يمكن كتم الشيء من النفس وروي هذا

عن ابن عباس [illegible] قيل وهو باطل [illegible] فيه .

قال [illegible] والذي غرهم أن في مصحف أبي أكاد أخفيها من نفسي وفي

بعض المصاحف أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها .

وقالت فرقة : أكاد بمعنى أريد فالأصل أن أخفيها حذفت أن وارتفع الفعل

واستشهدوا بقوله :

* كادت وكدت وتلك خير إرادة *

(لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ) من خير أو شر وما اسم موصول أو

حرف موصول واللام متعلقة بآتية .

وإن فسرنا الإخفاء بالإظهار تعلقت به أي أكاد أظهرها [illegible] وإنما

[illegible]

[illegible]

(فَلَا يَصُدَّنَّكَ) يصرفك (عَنْهَا) أي عن الإيمان بها والاستعداد لها أو عن الصلاة (مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا)

اعلم أن النهى فى ظاهر العبارة من لا يؤمن بها . والمقصود نهى موسى عليه الصلاة والسلام عن أن يؤثر فيه صد الكافر به عنها وعن لين الشكيمة الذى هو سبب لتأثير الصد فكأنه قال : لاتكذب بها ، فذكر الصد الذى هو سبب التكذيب ، أو لا تلن شكيمتك . فذكر الصد الذى هو سبب عن لينها أى كن صلباً حتى لايطمع الكافر فى صدك . تقول : لا أرينك ها هنا ظاهره نهى نفسك عن رؤيته ها هنا . ومعناه نهى المخاطب عن الحضور الذى هو سبب لرؤيتك إياه وذلك تأكيد ؛ فإنه ﷺ ولو لم ينهه الله سبحانه بمعار الإيمان والرسوخ فى الدين .

وقال النقاش : الخطاب فى لا يصدنك لنبينا ﷺ وهو بعيد .

(وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) فى الكفر بها والمعاصى (فَتَرْدَىٰ) فتهلك جواب النهى أى لا يؤثر فيك صده فتهلك .

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ) الباء الظرفية أو الإلصاق والاستفهام للتقرير يتضمن استيقاظا لما يرتب على عصاه من المعجزات وتنبيه ، لئلا يذهله مايكون من أمرها . كذا ظهر لى . وسماه السيوطى فى الإتقان إيناسا .

وخص اليمين ولم يقل : وما تلك بيدك لما ذكرت من التثبيت لأنها فى يمينه فكأنه قيل له : انظر إلى ما فى يمينك وتَثَبَّتْ فلا يهولنك ما يصير منه

وقال أبو عمرو عثمان بن خليفة ـ رحمه الله ـ : فإن قيل : لِمَ قال يمينك ولم يقل بيدك لاشتبه عليه أيهما أراد والله لا يلبس على خلقه ولا على رسوله ولا على أحد لأنه أرسل بالبيان والرحمة والحجة انتهى . والهاء مضلبقة بعضه وفيه وليلا باحال موثقة

سواء جعلت خبرا وما مهعدا أو بالعكس؛ لأنه اسم إشارة وناصب الحال معنى الإشارة. وعلى قول الكوفيين يجوز أن يكون تلك اسما موصولا، وبيمينك متعلق بمحذوف صلة له ذكره ابن هشام والشيخ خالد.

(يا موسى قال هي عصاي) ما بعد هذا زيادة في الجواب عما كان السؤال عنه، كقوله ﷺ ـ لما سئل عن ماء البحر ـ: هو الطهور ماؤه الحل ميتته. والمستحسن من الجواب أن يكون مطابقا للسؤال أو أعم منه لا أخص ولا مغايرا إلا لنكتة.

ويحتمل أن يكون فهم من السؤال أن المراد تعديد النعم، فأجاب بما يطابق.

وإنما ذكر المسند إليه وهو قوله: هي مع أنه معلوم؛ لأنه في مقام يكون سماع السامع مطلوبا للمتكلم لعظمة السامع، وهو هنا الله، فبسط الكلام بذلك بذكر المسند إليه.

وقرأ الحسن عصاي بكسر الياء اعتبر أن أصلها السكون فكسرها لالتقاء الساكنين. كذا ظهر لي وسكنها ابن أبي إسحاق.

والمشهور عصى بكسر الصاد وتشديد الياء قلب الألف ياء وأدغمها وكسر ما قبلها وهي لغة هذيل. وحكاها الواحدى في البسيط عن طيّ.

قال الشيخ خالد: قرأ عاصم الجحدري وابن إسحاق وعيسى بن عمر عصَيّ ورويت عن النبي ﷺ قاله الشاطبي.

قال ابن هشام: ولم يكسر ياء الإضافة بعد الألف في قراءة الأعمش والحسن هي عصاي.

(أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا) أعتمد عليها إذا عييت ، وعند المشي والوثوب ، وعند الوقوف على رأس القطيع ، أعرف عند الرعي .

(وَأَهُشُّ) أخبط الورق من الشجر .

وقرأ النخعي أهش بكسر الهاء ، وكلاهما من هش الخبز يهش إذا انكسر لهشاشته . قال لقمان بن عاد : أكلت حقا وابن لبون وجذعا وهشت نخب وسيلا وقع والحمد لله من غير شبع . ووقف على المنصوبين المنونين بالإسكان . ونخب : واد قريب من الطائف كثير السدر وذلك لقوته وعظمته . وقالوا : الجزور أكلة لقمان والثلة جرعته .

وقرأ عكرمة بالسين المهملة وضم الهاء أو كسرها أي أقبل بها على الغنم زاجراً الغنم .

(بِهَا عَلَى غَنَمِي) وزعم بعضهم أن الواو في وأهش واو الحال . والهش : الزجر . وهو ضعيف من جهتين : الأولى أن المضارع المثبت الواقع مع مرفوعه حالا لا يقرن بالواو .

وأجاز بعضهم إن فصل عنها فيحتاج هنا إلى تقدير المبتدأ . والأصل عدم الحذف . والثاني : أن في جعل الواو عاطفة إفادة معنى بقوله : أتوكأ عليها ، ومعنى آخر بالهش .

وإذا جعلنا الواو للحال كان الهش الذي هو الزجر قيدا للتوكؤ . فيفيد أنه يتوكأ عليها في حال الزجر . وذكر حاجتين مما يعمل بالعصى ولى من ذكر حاجة إلا إن جعلنا التوكؤ لغير الزجر وجعلنا الهش بمعنى الزجر وجعلنا الحال مقيدة أى أتوكأ عليها عند الإعياء مثلا مقدراً لزجر الغنم بها إذا احتجت . قيل : اسم العصى نبعة ولها ألف معجزة .

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ) جمع مأربة [illegible] الراء بمعنى حاجة [illegible]
[illegible]

ومن تلك المآرب : [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
دلوا وإذا تعرضت السباع لغنمه قاتل بها . وإذا ظهر له عدو قاتل بها أو [illegible]
[illegible] وحدها .

وروى أنه يحمل عليها ويمشى وحدها كالدابة وتحدثه ويركزها فينبع الماء . [illegible] : والطعام . وإذا اشتهى ثمرة ركزها وأثمرت . وإذا رفعها زال الماء والطعام وكانت تقيه من الهوام وكانت تثمر له ما يحتاج إليه ، ويخرج له من ماء وطعام ما يحتاج إليه في اليوم ، وتضيء له بالليل كالسراج . وكانت قبل من شجر الريحان وهي العصى التى أخذها من بيت عصى الأنبياء من عند شعيب عليه الصلاة والسلام حين اتفق معه على الرعية . وهي عصى آدم هبط بها من الجنة .

وعن بعضهم أنه ذكر المنافع المتعلقة بالعصى تفصيلا بالمشى [illegible] وإجمالا بقوله : ولى فيها مآرب أخرى كأنه أحس بما يحدث بها بعد السؤال من أمر عظيم فقال : ما هى إلا عصى تنفع نفع [illegible] أراد [illegible] للمنافع واستكثارها [illegible] عقب ذلك الآية العظمى كأنه يقول : أين أنت عن هذه [illegible] العظمى التى تنسى عندها كل منفعة .

وزوى أنه سأله ليبسط معه ويقلل هيبته .

وقيل : أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد في إكرامه .

وقيل: انقطع لسانه بالهيبة فأجمل . وكان لتلك العصى الموجاع في رأسها إلا طال الغصن جناه به ، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين .

(قَالَ) الله . (أَلْقِهَا) اطرحها . (يَا مُوسَىٰ) قال وهب : ظن موسى أنه أمر بالقائها على وجه الرفض (فَأَلْقَاهَا) على وجه الرفض ثم نظر إليها (فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ) أشعر ذكر (تَسْعَىٰ) على بطنها بسرعة صغيراً على قدر العصى ثم صارت أعظم ما يكون من الحيات ، ولذا عبر عنها في الآية الأخرى بالثعبان في العظم

وأما التعبير في غير ذلك بالجان وهي الحية الصغيرة فباعتبار حال انقلابها فإنها انقلبت صغيرة دقيقة على قدر العصى .

وقيل: أقل عظمة في أسرع وقت . وعبر في هذه الآية بالحية لأن الحية اسم للذكر والأنثى والصغير والكبير .

وقيل : عبر في الآية بالحية لعمومها وبالأخرى بالثعبان باعتبار العظم وفي غير ذلك بالجان باعتبار سرعة الحركة فيصح أن تكون من أول حال الانقلاب عظيمة وكان لها عُرف كعُرف الفرس وبين لحييها أربعون ذراعاً وهما الشعبتان والمحجن عنق وعيناها تتقدان ناراً وتمر بصخرة كجمل فتبلعها وبالشجرة العظيمة فما يسمع إلا وقع أضراسها عليها بصوت عظيم فلما رأى ذلك هرب ثم ذكر ربه فوقف أستحياء منه .

وقيل : لما أمر بإلقائها ألقاها لا على وجه الرفض ولما رأى منها ذلك هرب وما رجع إلا بأمر الله تعالى بالرجوع ، رجع خائفاً وما سكن خوفه إلا بعد قوله عز وجل له : لا تخف .

(قَالَ خُذْهَا) بيمينك

(وَلَا تَخَفْ) منها . وعن بعضهم : إنما خافها لأنه عرف ما لقي آدم منها . ولما قال له : « لا تخف » بلغ من ذهاب خوفه أن أدخل يده اليمنى في فمها وأخذها . والمراد معنى أن يده في شعبتها وهما الموضع الذي يمسك من عصاه .

وروى أنه كان عليه مدرعة صوف ولف طرفها على يده ، فأمره الله أن يكشف يده فكشفها .

وروى أنه لما أتي قيل له : أرأيت لو أذن الله بما تحاذره أكانت المدرعة تغنى عنك ؟ قال : لا ، ولكني ضعيف من ضعف خلقت . فكشف عنها .

(سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى) هيئتها وحالتها السابقة ، وهي كونها حية تنفصل تلك الصلات ثم بعد الإعادة تكون عصى . والسيرة فعلة بكسر الفاء للهيئة من السير . يقال : سار فلان بيده سيرة حسنة ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة والهيئة .

والنصب على نزع الخافض ، أى إلى سيرتها ، أو في سيرتها ، أو بدل اشتمال منها ، أو مفعول مطلق لمحذوف ، أو مفعول مطلق لنعيد ، بمعنى سنسير بها أيضا سيرتها ، أى تسير سيرتها الأولى لا ظرف مكان لعدم الإبهام إلا بما تكلف .

ويجوز أن يراد بالسيرة الأولى كونها عصى إذا قبضتها رددناها عصى وضمائر التأنيث للعصى بدليل السيرة الأولى . ففي قوله : خذها تسهيل أى خذ عصاك ولو كانت على غير صورة العصى فما هي إلا عصاك ، ومع ذلك فالقلب تحقيق لا تخييل إلا ضمير تسمى بالتسمية .

ويجوز إرجاع ها من خذها للحية قبل .

ويجوز أن يكون نعيد من عاده بمعنى عاد إليه فيتعدى إلى الثاني مع الهمزة فيكون سيرة مفعولا ثانيا .

(وَاضْمُمْ يَدَكَ) اليمنى (إِلَى جَنَاحِكَ) جنبك تحت العضد الأيسر والمراد بها ...

... كل مرعوب من ظلمة ونحوها ... إذا ضم يده إلى جناحه ... فجمع الله ... تقرير المعجزة مع الآية في اليد ... وجعلها بيضاء ...

واليد : الكف ؛ فإنها المخرجة بيضاء . ويطلق اليد على الكف والذراع ... للضاف في قوله (تَخْرُجْ) ... أن يكون ... في ... أطلق ضمير اليد بمعنى الذراع ... أو يكون ... استخدام حيث لا بد ... (أو بيضاء) كذا قيل والله الموفق .

والجناح أصله جناح الطائر ؛ لأنه يجنح عند الطيران ، أعنى يميل ، استعير لجانب الإنسان وجانب العسكر .

(بَيْضَاءَ) حال من ضمير تخرج . قال الحسن : أخرجها والله كأنها مصباح .

وعن ابن عباس : تضيء كالشمس والقمر ليلا أو نهارا وهي أكبر آياته ولون موسى ﷺ الأدمة وضوء يده يغشى البصر .

(مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) متعلق ببيضاء أو محذوف حال من ضمير بيضاء أو من ضمير تخرج . والسوء : البرص ، وكنى عنه بالسوء لنفار الطباع عنه وهو أبغض شيء إلى العرب . وكان جذيمة صاحب الزباء أبرص فكنوا عنه بالأبرش ، فكان جديراً أن يكنى عنه . ولا ترى أحسن من كنايات القرآن ، فهي تضيء إذا أراد وإذا أراد انطفاء ضوئها ردها تحت إبطه ...

(آيَةً) حال من ضمير تخرج أو من ضمير بيضاء أو مفعول لخذ أو لدونك الذي هو اسم فعل بمعنى خذ محذوفاً لدليل .

ومنع ابن هشام عمل اسم الفعل بعده وظاهر التسهيل الجواز فليراجع.

(أُخْرَى) غير آية العصا ما اشتمل عليه

(لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا) متعلق بمحذوف

(الْكُبْرَى) أي الآية الكبرى مفعول ثان لنري، أخر للفاصلة، ومن للابتداء وإن جعلت للتبعيض تعلقت بمحذوف حال من الكبرى، والآية الكبرى هي آية اليد ونريك متعلق بجعل أو بدونا لك المقدر.

ويجوز أن يكون الكبرى نعتاً لآياتنا فمفعول نري محذوف أي بعضاً من آياتنا الكبرى، فمن آياتنا نعت المحذوف.

وقيل: من آياتنا في مقام المفعول ومن جعل من التبعيضية اسماً هي المفعول ويجوز تعليق اللام بمحذوف أي فعلنا ذلك لنريك.

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ) فيه دليل للفقهاء على أن الإمام يقصد في الدعاء إلى التوحيد رئيس القوم وبدعائه يحل دماء القوم إن لم يجب.

واختلف في البوادي، فقيل كذلك، وقيل: يدعوهم موحد.

والمراد اذهب إلى فرعون وقومه، وخص فرعون بالذكر لأنه أعتى وأكفر كما قال عز وعلا: (إِنَّهُ طَغَى) جاوز الحد عصى وتكبر وادعى الربوبية وكان معبودا فدعاؤه أحق من دعاء غيره، وإلا فموسى ﷺ مبعوث إلى الكل، وأمره بالذهاب إليه بالآيتين.

قال ابن منبه: قال الله تعالى لموسى: استمع كلامي واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي وإنك بعيني وسمعي، وإن معك يدي وبصري، وإني ألبستك جبة من سلطاني تستكمل بها القوة في أمري، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي، بطر نعمتي وأمن مكري حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي، وإني أقسم بعزتي لولا الحجة

التي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار ، ولكن هان عليّ وسقط من عيني فبلّغه رسالتي وادعُه إلى عبادتي وحذّره نقمتي، وقل له قولا ليّنا لا يغتر بلباس الدنيا ؛ فإن ناصيته بيدي لا يطرف ولا يتنفس إلا بعلمي . وموسى ساكت بجانبه ملك فقال : أجب ربك فعلم أن ذلك رسالة وفهم قدر التكليف فدعا الله في المعونة ؛ إذ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم كما قال الله عز وجل حكاية عنه:

(قَالَ رَبِّ) يارب . (اشْرَحْ) وسع لتحمّل أثقال النبوة (لِي صَدْرِي) قال ابن عباس : يريد حتى لا أخاف غيرك

وذلك أن موسى خاف فرعون خوفا شديدا لشدة شوكته وكثرة جنوده فسأل ربه أن يوسع قلبه حتى يعلم أنه لا يقدر أحد على ضره كائنا ما كان . وإذا علم ذلك لم يخف فرعون .

(وَيَسِّرْ لِي) سهل لي . (أَمْرِي) ما أمرتني به من تبليغ الرسالة .

وقيل : شرح الصدر : جعله قابلا لما يرد من الأمور .

وفائدة « لي » في الموضعين إبهام الكلام أولاً ورفعه ثانيا بذكر الصدر والأمر مبالغة وتأكيد لطلب الشرح والتيسير .

وقيل : يسر لي أمري تأكيد لاشرح لي صدري .

(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي) هي العقدة التي كانت له بوضع جمرة في لسانه . روى أن موسى عليه الصلاة والسلام قعد في حجر فرعون فمد يده إلى لحيته فنزع منها خصلة وهو طفل فغضب فرعون وأراد قتله وقال لامرأته آسية : إن هذا عدوى .

وروى : أنه لطم فرعون ونزع من لحيته .

وروى أنه كان عليه السلام إنما يمد يده إلى لحيته ، ولما أراد قتله قالت آسية : إنه صبي ولا يعقل .

وروى أن أم موسى لما فطمته ردته إلى فرعون ، فنشأ في حجره وحجر امرأته واتخذاه ولداً ، فبينا هو يلعب بين يدي فرعون وبيده قضيب فضرب به رأس فرعون فهمّ بقتله فقالت آسية : إنه لا يعقل جرّبه إن شئت ، فجاء بطستين في أحدهما جمر وفي الآخر جوهر ، فوضعهما بين يدي موسى فلما أراد أن يأخذ الجوهر صرف جبريل يده عنها ، فأخذ جمرة بيده ولم تعد على يده ، فوضعها على لسانه فاحترق ، وصارت فيه عقدة ، فزال غيظ فرعون .

وقيل : لما أخذها بيده أحرقتها فجعلها إلى لسانه . واجتهد فرعون في علاجها ولم تبرأ . ثم لما دعاه إلى الله قال : إلى أي رب تدعوني ؟

فقال : إلى الذي أبرأ يدي ، وقد عجزت عن إبرائها .

وروى أنه أدخل الجمرة في فيه فأحرقت فيه لسانه ، ولم يحرق إبهامه لسانه .

وروى أن يده لم تبرأ لئلا يدخلها مع فرعون في قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المؤاكلة .

قيل : ولعل تبييض يده كان لضربه بها فرعون ونتف لحيته . « ومن لساني » متعلق بالحال أو صفة لعقدة . وعلى الأول فمن للابتداء ، وعلى الثاني ظرفية .

واختلف في زوال العقدة ، فقيل : زالت بجملتها لقوله : « قد أوتيت سؤلك ياموسى » .

وقيل : بقي بعضها لقوله : « وأخى هارون هو أفصح منى لساناً » ، وقوله : « ولا يكاد يبين » .

وكان في لسان الحسن بن علي رُتّة فقال رسول الله ﷺ : ورثها من عمه موسى عليه السلام . وأصل الأرتّ إنما يكون في شيء دام إلى موت صاحبه .

وأجيب بأنه لم يقصد حل عقدة لسانه مطلقة بل عقدة تمنع الإفهام حتى إن بعضا جعل من لساني صفة نعتاً لعقدة وجعل من للتبعيض أي عقدة من عقد لساني بدليل إجابة الدعاء بقوله : (يَفْقَهُوا) يفهموا (قَوْلِي) ولم يطلب الفصاحة الكاملة بدليل الإفراد والتنكير في عقدة وأن الأرتّ في الحديث بمعنى أنه وقع له ما وقع لموسى ﷺ ولكن إنما يحسن التبليغ من البليغ الفهم إلا أن يقال : إن إزالة تلك العقدة يوصله إلى البلاغة (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا) معينا على ما كلفتني به من الوزر بكسر الواو وإسكان الزاي بمعنى الثقل من أموره أو من الوَزَر بفتحهما وهو الملجأ ؛ لأن الأمير يلتجئ إليه في أموره . ويقرب إليه ما قيل : إنه من المؤازرة وهي المعاونة وأن أصله الهمزة قلبت واوا .

وقيل : إن أصله أزير من الأزر وهي القوة قلبت الهمزة أيضا واوا ووزنه فعيل بمعنى مفاعل بضم الميم وكسر العين أو فتحها كعشير وجليس وقعيد وخليل وصديق ونديم وقلبها همزة نظرا إلى قلبها في يؤازر ومؤازر ومؤازرة .

(مِنْ أَهْلِي هَارُونَ) مفعول أول ووزيرا ثان قدم اعتناء بأمر الوزارة ولي متعلق باجعل أو حال منه أو لامه للتقوية وتكون راجعة إلى قوله وزيرا ، ومن متعلقة باجعل أو بمحذوف نعت لوزيرا ، ووزيرا مفعول أول ، ولي مفعول ثان ، وهارون بدل من وزيرا بدل معرفة من نكرة بناء على جواز ذلك ولو لم تخصص النكرة . وإن جعلنا من أهلي نعتا لها فقد خصصت .

وأجاز جار الله كونه عطف بيان عطف معرفة على نكرة ، لإجازته ذلك ، وعطف نكرة على نكرة عطف بيان .

(أخي) بدل من هارون أو عطف بيان عليه [illegible] أو مبتدأ خبره

(اشدُدْ) قوِّ (بِهِ أَزْرِي) ظهري إخبارا بالطلب ويجوز أن يكون لي مفعولا

أولا ومن أهلي ثانيا [illegible]

وقرأ ابن عامر أشدد بهمزة قطع مفتوحة [illegible] مجزوما في جواب الطلب

وسكّن ياء أخي ومدّها.

قال أبو عمرو الداني: وسكن غير نافع وأبي عمرو ياءات الإضافة: ويسر لي

أمري، وعلى عيني، ولا برأسي.

وسكّن غير ورش وحفص ولي فيها

وفتح ابن كثير وأبو عمرو أهلي اشدد.

وسكّن الكوفيون وابن عامر [illegible] في ذكري اذهبا فحذفت

لساكن. وسكن غير نافع وابن كثير يا حسرتي.

وأثبت نافع وأبو عمرو ياء ألا تتبعن في الأصل وأثبتها ابن كثير ساكنة

في الأصل والوقف.

وكان موسى أقل من هارون سنا وجمالا. وكان هارون أبيض وموسى آدم.

وروى أنه أكبر من موسى بأربعين سنة. وقيل: بسنة. وقيل: بثلاث سنين.

(وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) اجعله شريكا لي في الرسالة حتى نتعاون.

وقرأ ابن عامر وأشركه بضم الهمزة على أنه مضارع معطوف على اشدد

المجزوم في جواب الطلب في قراءته.

وقرئ بالنصب في جواب اشدد وبالرفع.

وقرأ ابن مسعود أخي واشدد، وأبيّ بن كعب أشركه في أمري واشدد به أزري.

(كَيْ نُسَبِّحَكَ) ننزهك باللسان والقلب تسبيحاً (كَثِيراً) وقيل : المراد بالتسبيح الصلاة .

(وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً) مطلق الذكر تنزيه أو غير تنزيه .

(إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً) عالماً بأمرنا وأنا محتاجون لما يصلحنا، وأن هارون نعم المعين لي فيما أمرتني به .

وقيل : المراد بالذكر الصلاة على نسخة الإيصال وغيره . وأجيز كون كثيراً في الموضعين ظرفاً زمانياً .

وقيل : معنى إنك كنت بنا بصيراً أنك عالم بنا فأنسبت بالرسالة .

(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ) أعطيت (سُؤْلَكَ) أى سؤالك كالأكل بضم الهمزة بمعنى المأكول والخبز بمعنى المخبوز . (يَا مُوسَى وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى) أنعمنا عليك فى وقت آخر .

(إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى) إذ حرف تعليل أو ظرف بدل من مرة والمعنى إذ أوحينا إلى أمك ما لا يعلم إلا بالوحى وأوحينا إليها ما ينبغى أن يوحى ولا يبخل به لعظم شأنه ؛ إذ فيه مصلحة دينية ودنيوية .

والإيحاء إلهام أو وحى منام أو على لسان نبى فى وقتها أو ملك لا على وجه النبوة كما أوحى إلى مريم . وقيل : هما نبيتان .

(أَنِ اقْذِفِيهِ) أن مصدرية إن بنينا على جواز دخولها على الأمر أى بأن اقذفيه أو تفسيرية ؛ لأن الوحى فيه على معنى القول دون حروفه . زعم بعضهم أنها تفسيرية تقدر الباء معها والقذف والرمى يقالان للإلقاء والوضع نحو : « وقذف فى قلوبهم الرعب » وقول الشاعر :

* غلام رماه الله بالحسن يافعا *

أى وضع فيه الحسن (فِي التَّابُوتِ) الصندوق .

(فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ) بحر النيل

(فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ) شاطىء البحر ، [illegible] دون النهى أمر [illegible] الظاهر وفى ذلك مبالغة أو [illegible] والنهى مما أمر [illegible] إلقاء اليم إياه إلى الساحل أمر لا بد من وقوعه لسبق الأزل [illegible] فأمره بالإلقاء والهاء فى قوله بالساحل [illegible]

(يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ) هو فرعون [illegible] أو [illegible] العداوة وتكثيرها .

(وعدو له) [illegible] مبالغة فى العداوة أو لاختلاف العداوتين . إن عداوة الله واقعة وعداوة موسى [illegible] [illegible] من [illegible] التابوت ، ورده الباقى إلى موسى [illegible] ولا يخفى أنه ولو كان المقذوف فى اليم الملقى اليم بالساحل [illegible] التابوت ليكن ذلك [illegible] ولا ضير فى [illegible] فى اليم فى جوف التابوت وألقاه اليم فى جوفه بالساحل وأخذه فرعون من جوفه .

[illegible] أنها جعلت فى التابوت قطنا محلوجا فوضعته فيه وسدت الخلل بالجص والقطران ممزوجين وألقته فى البحر وجاء به الموج إلى بركة فى بستان فى دار فرعون فأدناه فى أقرب الماء [illegible] البركة أو ألقاه فى [illegible] .

ولا ضير بتسمية طرف البركة ساحلا . وكذلك يجوز تسمية مائها بحراً وذلك للشبه ولأن ماءها من البحر . ويجوز أن يراد ساحل نهر فم البركة ثم أوصله الماء إلى البركة وفرعون مع زوجه آسية رضى الله عنها ينظر من الساحل أو من موضع فى الدار فأمر فأخرج منه صبى أصبح الناس وجها ﷺ .

وسمى الشاطئ ساحلا لأن الماء يسحله أى يقشره فهو فى الأصل إما فاعل بمعنى مفعول وإما من باب تسمية المحل وهو الشاطئ باسم الحال وهو الماء .

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي) فى قلوب الناس وكل من رآه أحبه ولما رآه فرعون - لعنه الله - أحبه حباً شديداً ولم يتمالك

وروى أن كل من رآه أحبه لملاحة فى وجهه وعينيه .

وقيل : المراد بالمحبة القبول الذى يضعه الله عز وجل فى الأرض لأخيار عباده وكان حظ موسى منه فى غاية الوفر .

قيل وهو الأصح ومنى متعلق بألقيت ، أى من نفسى أو بمحذوف نعت لمحبة أى محبة كائنة منى .

ويجوز أن يكون المعنى إنى أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب ولا يختص هذا المعنى بتعليق منى بألقيت كما ادعى القاضى تبعاً لجار الله .

(وَلِتُصْنَعَ) تربى ويحسن إليك فى التربية والعطف على محذوف أى ليعطف عليك أو ترأم ، أو متعلق بمحذوف أى وفعلت ذلك لتصنع .

ويجوز تقديره مؤخراً عن عينى وعلى العطف على محذوف هو متعلق بما تعلق به المحذوف .

وقرئ بالبناء للفاعل بفتح التاء والنون أى وليكون عملك وتصرفك على عينى فلا تخالف أمرى .

وقرئ بالجزم وإسكان اللام وكسرها على أن اللام للأمر .

(عَلَى عَيْنِي) على رعايتى وحفظى لك فالعين كناية عن الحفظ ولا عين هناك وإن شئت فقل : مجاز مرسل من باب إطلاق اسم الآلة على ما يعمل بها ولا عين أيضاً كذا ظهر .

(إذ تمشي أختك) مريم لتتعرف خبرك وقد أحضروا مراضع ولم تقبل من واحدة وصادفتهم الأخت في حال إحضارِ للراضع وطلبهن، وهي غير أم عيسى فقالت ما قال الله.

(فتقولُ) الخ وإذ معلقة بألقيت أو تصنع، أو بدل من إذ قبله، على أن المراد بهما وقت متسع ويجوز كونها تعليلا لأوجهنا أو بحذف الأول أو الثاني.

(هل أدُلُّكم على من يكفُلُه) أي على امرأة ترضعه وتقبل عنها، ومَن واقعة على المؤنث والتذكير نظرا للفظ، فقالوا: نعم فجاءت أمه فقبل ثديها كما قال الله عز وجل

(فرجعناك إلى أمك) وما سبق قولنا: «إنا رادوه إليك» (كي تقرّ).

هي. (عينُها) بلقائك ورؤيتك

(ولا تحزنَ) هي بفراقك فالفاعل مستتر جوازاً أو لا تحزن أنت على فراقها فالفاعل مستتر وجوبا وموسى عليه الصلاة والسلام في ذلك الوقت ولو كان صغيراً جعل الله فيه من العقل ما يفرح به ويحزن، أو المراد لا تحزن إذا وصلت حدّاً يمكنك فيه الفرح والحزن.

وإن قلت: كيف يقال: لا تحزن بفراقك وقد حزنت بفراقك؟

قلت: المراد لا تحزن بعد أي ليذهب عنها الحزن.

تتمة

روي أن موسى هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى ابن يعقوب.

روى أن يعقوب ولد لاوى وقد مضى من عمره تسع وثمانون سنة ثم إن

لاوى فنكح نابغة بنت مارى بن يسخب فولدت له عرشون ومرزى وقاهث بن لاوى وولد لاوى قاهث بعد إذ مضى من عمره ست وأربعون سنة فنكح قاهث ابن لاوى فاهى بنت تاويب بن بركيا بن يقشان بن إبراهيم ، فولدت له يصهر بعد أن مضى من عمره ستون سنة وكان عمر يصهر مائة وسبعا وأربعين سنة فولد عمران ونكح عمران بن يصهر نجيبا بنت اشموئيل بن تركيا بن يقشان بن إبراهيم فولدت له هارون وموسى .

وقيل : اسم أمها ناجية . وقيل : لوحا وهو المشهور وكان عمر عمران مائة وسبعا وثلاثين وولد له موسى . وقد مضى من عمره سبعون سنة . وعاش موسى مائة وعشرين سنة . وموسى اسم سريانى

وعن عكرمة عن ابن عباس : سمى موسى لأنه ألقى بين شجر وماء فالماء بالقبطية مو والشجر سا .

وقال المناوى : أصله موشى بالقبطية مو الماء وشا الشجر .

وروى أنه لما أراد فرعون ذبحه لظنه أنه الذى يهلك على يده استوهبته منه آسية فوهبه لها فقال : سميه فسمته موسى .

وكان طويلا وهارون أطول منه . وكان على أرنبته ولسانه شامة . وكان موسى آدمَ جَعْداً كأنه من رجال شَنُوءة وفى طرف لسانه شامة سوداء وهارون أخوه شقيق كما مر .

وقيل : لأمه . وقيل : لأبيه ومات قبل موسى .

وروى أنه ولد قبله بسنة ، وسر خلافه . ورآه سيدنا محمد ﷺ ليلة الإسراء ونصف لحيته أبيض ونصفه أسود يكاد لحيته تضرب إلى سرته من طولها . فقلت : يا جبريل مَن هذا ؟

قال : المحبب فى قومه هارون بن عمران .

وعن بعض أن منى هارون العبرانية المحبوب.

(وَقَتَلْتَ نَفْسًا) من القبطي بمصر فالخصنى القود من جهة فرعون، وخوفًا من عقاب الله وكان موسى وقت القتل صاحب اثنتى عشرة سنة.

(فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ) غم القتل وغم الخوف وعقاب الله بأن استغفر فغفر له.

(وَفَتَنَّاكَ) ابتليناك بالإيقاع في غير ذلك وخلصناك منه، فجعل الخبر ذاك والمصدر واحد.

(فُتُونًا) مصدر كالشكور، أو جمع فتن أو فتنة مفعول مطلق أى ابتليناك ابتلاء وابتليناك ضروبًا من الابتلاء فخلصناك مرة بعد أخرى.

سأل سعيد بن جبير ابن عباس رضى الله عنه عن ذلك فقال: خلصناك من محنة بعد محنة: ولد فى عام يقتل فيه الصبيان، فهذه فتنة يا ابن جبير. وهمّ فرعون بقتله، فهذه فتنة يا ابن جبير. وقتل قبطيًا، وهمّ فرعون بقتله، فهذه فتنة يا ابن جبير. وأجّر نفسه عشر سنين، فهذه فتنة يا ابن جبير. وضل الطريق، فهذه فتنة يا ابن جبير. وتفرقت غنمه فى ليلة مظلمة، فهذه فتنة يا ابن جبير. ومشى حافيًا جائعًا يأكل البقل ثمانى ليال إلى مدين حين قتل القبطى، فهذه فتنة يا ابن جبير. وفارق الأحباب والوطن، فهذه فتنة يا ابن جبير. وإنما الفتون إجمال لما لقى فى سفره وغيره قبل؛ أو لما لقيه فقط. ومن ذلك منعه الرضاع إلا من ثدى أمه

(فَلَبِثْتَ) أقمت (سِنِينَ) عشر سنين بدعوى غنم شعيب مهر زوجته وثمانى عشرة بعد ذلك بلا رعى، وقيل ثمانى وعشرين سنة أقامها مع شعيب فى مدينه.

وقيل: عشر سنين فقط. والأول قول وهب.

وقال الشيخ هود ـ رحمه الله ـ : عشر من سنة

(فِي أَهْلِ مَدْيَنَ) ثلاثة على ثماني مراحل من مصر ، وزعم بعض أنها على ثلاث مراحل .

(ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى) هو القدر الذي يذكر مع القضاء في كتب الفقه ، أي جئت على ما سبق في قضائي وقدري ، من وقت مخصوص غير مقدم أو مؤخر أكلك فيه وأستنبئك . وهو الوقت الذي أوحي فيه إلى أنبيائي ورسلي وهو تمام أربعين سنة . ولك أن تقول : القدر ـ بفتح الدال ـ : القدر الذي بسكونها . وهو ذلك الوقت . وفسره بعض بالقدرة .

وفي الآية تلويح إلى تمثيل حاله بحال من رآه بعض الملوك أهلا للقرب والمنزلة والطالب للقائم لجمعه الفضائل . ويرشح ذلك قوله : (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) اخترتك لحقي وجعلتك محل الإكرام .

ويحتمل أن يكون التمثيل في قوله : « واصطنعتك لنفسي » أي أنعمتك على وحيي ورسالتي وجعلتك خليفتي حتى كأني الذي أقمت عليهم الحجة وخاطبتهم :

(اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ) إلى الناس (بِآيَاتِي) معجزاتي التسع وقيل : جميع ما أنزل الله عليه وما أجرى عليه .

(وَلَا تَنِيَا) لا تضعفا ولا تقصرا . ويقال : ونى أي فتر وفشل أو أبطأ . وقرأ ابن مسعود ولا تهنا وقرأ بعضهم بكسر التاء .

(فِي ذِكْرِي) أي تسبيحي ودعائي . والنداء علي وتبليغ رسالتي . فالمصدر مضاف لما هو مفعول اصطلاحا ولا يخفى أنه إذا بلغ الرسالة فقد ذكر الله سبحانه وأمرهما بمداومة الذكر ليكون الذكر معونة لهما .

وعن بعضهم أن المعنى لا تنيا في ذكري بالإحسان إليكما أو ... ذكر النعمة : شكرها .

(اذهبا إلى فرعون إنه طغى) أمر موسى وحده في قوله : « اذهب أنت وأخوك » وأمره هنا وأخاه فلا تكرير .

وقد روى أن الله عز وعلا أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يلتقى بموسى .

وقيل : سمع بإقباله إلى فرعون فاستقبله . وقيل : ألهم . ولما التقى بموسى أخبره بما أوحى إليه .

(فقولا له قولا لينا) قال ابن هشام : قولا لا تعجل فيه إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى ، وإنما كان لينا لأنه استفهام ومشورة وفيه ترغيب بالفوز العظيم وتليين الكلام غلبة علاجية قال ﷺ : جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها .

وعن سهل في القول اللين : أنه إذا دخل عليه قال : يا أبا مصعب قل : لا إله إلا الله وأني رسول الله .

وقيل : القول اللين : التكنية قبل دعائه مثل يا أبا مصعب أو يا أبا العباس أو يا أبا مرة أو يا أبا الوليد فله أربع كنى لا ثلاث كما قال جار الله . ولكن العدد لا يفيد الحصر .

وقيل : القول اللين : أن يقولا : إن لك على قبول الإيمان شبابا لا يهرم وملكا لا ينزع منك إلا بالموت وبقاء لذة المطعم والمشرب والنكاح إلى الممات والجنة بعد الموت . فقالا له ذلك فأعجبه . وكان لا يقطع أمرا دون هامان .

ولما جاء هامان قال : أردت أن أقبل منه ما قال لي وهو كذا وكذا .

فقال له هامان : ليس ذلك عقلا وإنما أنت رب تريد أن تكون مربوبا ... تريد أن تعبد ... ...

وإنما ... ... والاستعلاب ...

وقيل : لما له من حق التربية فى موسى كحق الأب . والظاهر أن التليين إنما هو لذلك كله .

وعن ابن العربى من علماء الأندلس : وفى الآية دليل على جواز الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر باللين لمن معه القوة .

وفى الإسرائيليات أن موسى أقام بباب فرعون سنة لا يجد من يبلغ كلامه حتى لقيه حين خرج فجرى له ما قص الله علينا من خبره وكان ذلك تسلية لمن جاء بعده من المؤمنين فى سيرتهم مع الظالمين . انتهى .

ولا يخفى على المنصف أنه كان يتبعه بلا تغليظ ولا لين له وإن كان لا ينتهى إلا به غلظ عليه إن قدر عليه وإلا لين له كسراً لشكيمته . ومن لا يعرف حاله لين له . وقد يجب التليين لحق كحق الأبوة والتربية .

(لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ) بعظ أو يخاف فيسلم ؛ فإنه إن خاف أن الأمر كما يقولان أسلم إن شاء الله .

والترجى مصروف إلى موسى وهارون ، أى اذهبا على رجائكما أو قولا قولا لينا على رجائكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو أن يجد ما يريد فصار يجتهد فى أسباب وجوده .

ويحتمل « لعل » التعليل ، وهو مصروف أيضاً لموسى وهارون ؛ لأنه سبحانه قد علم أنه لا يؤمن ولكنه أرسلهما قطعا لعذره وإظهارا للآيات الواقعة فى ذلك ، وكل من الترجى والتعليل - كما علمت مما ذكر - عائد إلى قوله : «اذهبا» أو قوله «قولا» .

قال القاضى : المتذكر المتحقق والخشية المتوهم ولذلك قدم الأول أى إن لم يتحقق صدقكما ولم يتذكر فلا أقل من أن يتوهم فيخشى .

قال يحيى بن معاذ الرازي ـ لما تليت عنده الآية وبكى ـ إلهي هذا رفقك بمن يقول : أنا الإله فكيف رفقك بمن يقول : أنت الله ؟!

(قالا) موسى وهارون : (ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا) أن يعجل بالعقوبة قبل تمام الدعوة وإظهار المعجزة . ومنه : الفارط والفرط : الذي يسبق إلى الماء يهيئه لأصحابه . وقول المصلي على الطفل : اللهم اجعله لنا فرطا . وفرس فرط : يسبق الخيل . والمراد بالعقوبة : القتل أو ما دونه .

(أو أن يطغى) يجاوز الحد في الإساءة بأن يعذبهما ثم يقتلهما أو يقتلهما شر قتلة أو يعذبهما عذابا شديدا بلا قتل ، أو نخاف أن يعاقبنا بشيء أو أن يقتلنا أو المراد بالطغيان : أن يقول في الله تعالى ما لا ينبغي لجرأته وقسوته . وفي التعبير عن لفظ ما يقوله بالطغيان أدب وتنزه عن النطق بالعظيمة .

وقرئ يفرط بالبناء للمفعول من أفرطه غيره ، أي نخاف أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقوبة من شيطان إنسي من القبط أو غيرهم أو جني أو من نفسه لجبروته واستكباره وادعائه الربوبية وحب الرياسة .

وقرئ يفرط بضم الياء وكسر الراء مبنيا للفاعل من الإفراط اللازم بمعنى المبالغة في الأذى والطغيان بعده أشد .

(قال) الله عز وجل : (لا تخافا) منه . وعلل هذا بقوله : (إنني معكما) بالحفظ والنصر والعون .

(أسمع) أعلم قولكما وقوله .

(وأرى) أعلم ما تفعلان وما يفعل ، فلا يصلكما منه ما يضركما فلا تهابا ، فحذف المفعولين لئلا تطول الفاصلة ، ولئلا يكون آخر الفاصلة غير ألف إلا تقدر مفعول أرى بعده

ويجوز أن تقدر المفعول عاماً أى كل شئ

ويجوز أن لا يكون لهما مفعول أعم من شأنى السمع والرؤية أى العلم فليس يخفى عنى حالكم .

(فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ) أرسلنا إليك ربك .

(فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) أطلقهم يأتوا إلى الشام معنا .

(وَلَا تُعَذِّبْهُمْ) وكان يعذبهم بالأعمال الشاقة ، كالحفر والبناء وقطع الصخر وحمل الأثقال ، وقتل الأولاد الذكور ، واستخدام النساء ، ومن لم يقدر على العمل ضرب عليه الجزية .

قال القاضي : وتعقيب الإتيان بذلك دليل على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم إلى الإيمان ويجوز أن يكون للتدريج فى الدعوة .

(قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ) تدل على صدقنا فى ادعاء الرسالة . قال : وما هى ؟ فأخرج يده لها شعاع كالشمس .

فالآية آية اليد .

وقيل : آية اليد والعصى ؛ وإنما أفرد لأن المراد ما تثبت به الدعوى شىء أو شيئان أو أكثر ، كأنه قيل : قد جئناك بما يدل على صدقنا وليس الغرض اتحاد الحجة أو تعددها والجملة مقررة لقولهما : « إنا رسولا ربك » ودعوى الرسالة لا تثبت إلا بالبينة فقد للتحقيق أو للتوقع

(وَالسَّلَامُ) السلامة فى الدنيا والآخرة ، أو سلام الله أو الملائكة وخزنة الجنة

وزعم بعضهم أن المراد السلامة وأنه لا يصح أن يراد التحية . (عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ) .

وقيل : يحتمل أن يكون ذلك آخر كلام فيقوى أن يكون السلام بمعنى التحية جريا على العرف في التسليم عند الفراغ من القول .

ويحتمل أن يكون في درج القول السابق واللاحق فيكون خبراً بالسلامة .

وقد قالت فرقة بالاحتمال الأول وفرقة بالثاني . وكان رسول الله ﷺ إذا كتب : السلام على من اتبع الهدى

(إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ) في الدارين وتوبيخ خزنة النار . (عَلَى مَنْ كَذَّبَ) ما جئنا به أو ما جاء به غيرنا من الرسل (وَتَوَلَّى) أعرض عنه .

ومقتضى السياق السابق أن يقولا : والعذاب على من كذب وتولى ، وعدلا عن ذلك إلى قولهما « إنا قد أوحى » الخ تأكيداً وتهديداً ولو اكتفيا من ذلك بقولهما : « والسلام على من اتبع الهدى » على سبيل التعريض لكفى ، لكنهما أرادا التأكيد والتصريح بالوعيد ؛ لأن التهديد في أول الأمر أم ربما وقع على النهر أو يقع بسبب فعله أليق .

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى) قال ذلك بعد ما أمراه بما أمراه بدليل الحال ، فكأنه لما قالا له : آمن بربك واعبده قال لهما : فمن ربكما هذا الذى تقولان تؤمنان به وتعبدانه ؛ فإن المطيع إذا أمر بشيء فعله .

وإنما خص موسى بالنداء لأنه الأصل وهارون وزيره وتابعه ، أو لأن في لسانه رُتّة باقية ؛ أو لأنه غير بالغ فصاحة هارون فطمع أن يفحمه .

(قَالَ رَبُّنَا) خبر لمحذوف أى هو ربنا . (الَّذِي) نعت أو خبر ثان أو ربنا مبتدأ والذى خبره .

(أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ) كل مفعول أول وخلقه مفعول ثان ، أى أعطى

كل شيء صورته التي سبق علمه بها المميز بها عن غيره، التي تطابق المنفعة المعلقة بها فأعطى الرجلين الهيئة التي هما عليها المطابقة للمشي، وأعطى العين الشكل الموافق للإبصار، وهكذا. أو أعطى كل شيء من الحيوانات نظيره في الخلق والصورة، فأعطى الرجل المرأة، والجمل الناقة، وهكذا. ولم يزوج شيئا من غير جنسه إلا ما شذ.

وصح أن يكون كل مفعولا ثانيا وخلقه مفعولا أول بمعنى اسم مفعول، أي مخلوقات، وأفرد لأن لفظه مصدر، أي أعطى خلائقه كل شيء يحتاجون إليه. وقدم المفعول الثاني لأنه المقصود بالذات؛ لأن الغرض ذكر المعنى.

وقرئ خلقه بفتح اللام، فالجملة نعت كل أو نعت لشيء، لجواز نعت المضاف إليه لكن نعت المضاف أولى.

وزعم بعض أن نعت المضاف إليه شاذ والمفعول الثاني محذوف أي أعطى كل مخلوق ما يصلح له.

(ثُمَّ هَدَىٰ) أي هداه لمنافعه. وقيل: هداه إلى معرفة كيف يأتي الأنثى وحذف المفعول للفاصلة. فإذا كان هو المعطي لكل شيء الخالق له الهادي له الميسر له كيف تبقى له المنفعة وتكمل، فهو الغني بالذات المحتاج إليه كل ما عداه وهو جواب عظيم مفحم. ولذلك بهت فرعون ولم يجد له ردا، فصرف الكلام إلى ما حكى الله تعالى عنه بقوله:

(قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ) كقوم نوح وقوم هود وقوم لوط وقوم صالح في عبادة الأوثان. أي ما حالهم عند ربك؟ والبال: الحال.

(قَالَ عِلْمُهَا) أي علم بالهم. فالضمير للبال؛ لأنه بمعنى الحال والحال يجوز تأنيثه، أو للقرون على حذف مضاف، أي علم بالها.

(عِندَ رَبِّي) [illegible] وعبادة الأوثان

(فِي كِتَابٍ) في اللوح المحفوظ خبر ثانٍ [illegible] بما يتعلق به عنده [illegible]

ويقدر المحذوف ثابت أو مثبت أي مثبت في اللوح المحفوظ [illegible]

والكتابة [illegible] يوم القيامة [illegible]

ويمكن أن يراد بالكتابة [illegible]

وقيل [illegible] في السعادة والشقاوة [illegible]

[illegible] بالإحسان [illegible]

وقيل : معنى جواب موسى رد العلم في ذلك إلى الله وأنه لا يعلم [illegible]

[illegible] وقومه، [illegible] باطل [illegible] (بأن) من

أحسن سعد ومن أساء شقي ، إلا إن أراد القائل [illegible] منهم بأعمالهم

[illegible] من كان منهم سعيدا ومن كان منهم شقيا ، وإن موسى أجاب بأنه

لا يعلم إلا ما علمه ربه .

وقد يجوز أن يكون سؤاله عن سائر أحوالهم في الدنيا [illegible] شيئا [illegible]

وخروجا عما فيه كلام موسى لإفحامه . فأجاب بأني لا أعلم ذلك . ولما نزلت

التوراة وجد فيها بعضهم أحوالهم .

وأجاز بعضهم أن يريد : ما بال القرون الأولى لم تبعث لنا ؟

وقيل : ما بالهم ماتوا ولم يبعثوا ؟

(لَا يَضِلُّ رَبِّي) الضلال : أن يخطىء شيئا في مكانه ولم يهتد إليه ، تعالى

عن ذلك . وفي معنى ذلك : لا يغيب عن شيء .

وقرئ بضم الياء أي لا يضيع شيئا من أضله الرباعي .

(وَلَا يَنسَى) النسيان : ذهاب شيء عن بالك ، تعالى الله عن ذلك كما

يضل البشر وينسى

(الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا) الخطاب لمطلق الناس الحاضر والغائب ، والحضور يغلب على الغيبة .

وقيل لفرعون وقومه ، ومثلهم أن غيرهم مثلهم . والمهاد : الفراش ، أو جمع مهد ويدل له قراءة الكوفيين مهداً أى جعلها لكم مثل المهد الذى يمهد للصبى . والذى نعت لربى أو خبر لمحذوف أو منصوب بمحذوف على المدح .

(وَسَلَكَ) جعل أو أوجد ، قيل : أو جعل ، قلت : أو أدخل بمعنى ما ذكر .

(لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا) طرقا أدخلها بين الجبال والبرارى والأودية تمشون فيها لمقاصدكم .

(وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) هذا تمام كلام موسى ، ثم قال عز وجلا تعميا لما وصفه به موسى وخطابا لأهل مكة :

(فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ) أصنافا مختلفة الألوان والطعوم والروائح والمنافع ، وبعض لكم ، وبعض لدوابكم . سميت أزواجا لازدواج بعضها ببعض أى لاقتران البعض بالبعض . وشتى ألفه للتأنيث جمع شتيت . ومن نبات نعت لأزواجا ومن للبيان . وشتى نعت أزواجا للتوكيد ، قيل : أو نعت نبات ولو كان جمعاً ؛ لأن نباتا فى الأصل مصدر يصلح للواحد فصاعداً .

وقيل : النبات أصله لما ينبت واستعماله مصدراً خروج عن ذلك وتشتت الأمر : تفرق فهو شتيت : متفرق .

وتعلم مما مر أن كلام موسى تم عند قوله : ماء أنه لا التفات .

وإن قلنا : إن كلامه لم يتم عند ذلك ففى الكلام التفات من الغيبة إلى التكلم حكاية لكلام الله وإما التنبيه على ظهور كمال القدرة والحكمة والإيذان بأنه مطاع تنقاد له الأشياء المختلفة ، فكما يدل عليهما التعبير بالتكلم

يدل التعبير بالجملة [illegible] للالتفات كما في قوله [illegible] لكل لغرض
من حيث إن الكلام حينئذ [illegible] لا الكلام من موصل
من القدرة فافهم .

(كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ) مقول لحال محذوفة وصاحبها ضمير أخرجنا
أى قائلين : كلوا الخ ، ولكن هذا القول عبارة عن الإذن وعدم المنع . أراد أن
بعض النبات لكم وبعضه علف لدوابكم .

وأصل العبارة : هي صالحة للأكل والرعي ، وأخرج الكلام على الأمر ؛
لأنه أعز للنفوس ومضمن الإذن في الأكل والرعي .

قال بعضهم : من نعمة الله جعل ما يخرج من طعامنا كنوى التمر علفاً
لدوابنا ولا يضيع . والأنعام : الإبل والبقر والغنم .

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ) لأصحاب العقول الناهية عن اتباع
الباطل أو النهى جمع نهية وهى العقل لنهيه عن القبائح كغرفة وغرف .

وزعم بعضهم أن النهى : الورع .

(مِنْهَا) من الأرض ، وقدم حصرا واعتناء .

(خَلَقْنَاكُمْ) لما كان التراب أصل مواد أبداننا لأن أبانا آدم خلق منه قال :
خلقناكم منها ، أو يقدر مضاف أى خلقنا إياكم ، وماصدق الوجهين واحد ،
أو معنى خلقه إيانا منها : ما روى أن الملك يأخذ من التراب الذى يدفن فيه
الإنسان فيبدده على النطفة فهو من تراب ونطفة ، فالتقديم للاعتناء فقط أو
الحصر الإضافى أى ما خلقناكم إلا من تراب أى مع نطفة ولم نخلقكم من غير
التراب مع النطفة .

، وإن أريد بالخلق منها كونهم فيها أى من خلق منها كآدم ، وكون نطفهم مخلوطة بترابه مدافنهم كان جمعا بين الحقيقة والمجاز ، أو من عموم المجاز .

وإن أريد خلط النطف بالتراب مع تقدير المضاف فليس فيه الجمع بين الحقيقة والمجاز المختلف فى جوازه ؛ لأن حذف المضاف مجاز بالحذف ، لا مجاز مرسل ولا بالاستعارة .

(وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ) قدم الظرف للحصر والاهتمام ، أى ما تقبرون إلا فيها . وذلك تهديد لما تلاق ؛ لأوجه من المنافع : جعلها فراشا لهم ، وجعل لهم فيها مسالك ، وأنبت فيها أقواتهم وعلوفات بهائمهم ، وهى أصلهم الذى تفرعوا منه ، وكفاتهم إذا ماتوا . ولذلك قال ﷺ : « تمسحوا بالأرض فإنها بكم برة » . إشارة إلى أنها أم برة بالولد .

(وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ) بالبعث بعد تأليف الأجزاء المتفتتة الفانية على الصورة السابقة ورد الأرواح إليها (تَارَةً) مرة . (أُخْرَىٰ) مقابل لقوله : « منها خلقناكم » فإن خلقهم منها هو الإخراج الأول منها .

(وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ) أبصرناه . والضمير لفرعون ، أو المعنى عرفناه . وعلى كل فهو من رأى المتعدى لواحد ، تعدى لاثنين لدخول الهمزة .

(آيَاتِنَا كُلَّهَا) أى عرفناه حجة آياتنا .

ويجوز أن يكون أرى من رأى المتعدى لاثنين تعدى لثلاثة لدخول الهمزة والثالث محذوف ، أى أعلمناه آياتنا صحاحا .

والتأكيد بكل إما لشمول الأنواع ؛ فإنه ولو أراه تسع آيات فقط لكن هذه التسع شاملة بالتضمين لغيرها .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

أو كره التوحيد والطاعة . [illegible]

٥٧ (قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى)

روى أن فرعون كانت فرائصه ترتعد خوفا مما جاء به موسى [illegible] الحق [illegible]

[illegible]

[illegible]

من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر . والاستفهام للتوبيخ [illegible]

٥٨ (فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ) [illegible]

[illegible]

[illegible]

(فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا) مصدر [illegible]

(لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ) [illegible]

[illegible] معنى المصدر [illegible] أن يكون اسم زمان

أو اسم مكان ؛ لجواز أن يقال : خلف زمان الوعد أو مكانه [illegible]

[illegible] (مَكَانًا سُوًى)

بلا ناصب؛ لأنك تقول: هو غير منصوب بموعد ولو جعل مصدراً صحيحاً؛ لأنه قد نعت بجملة لا نخلفه، والمصدر المنعوت لا يعمل، فناصبه فعل محذوف دل عليه موعد أي عدنا مكاناً سوى، وانتصابه على المفعولية لا الظرفية؛ لأنهم في زمان إتيان الموعد ليسوا في ذلك المكان السوي، ولا أرادوا أنهم يعدون إليه ويتعدون فيه الوعد إلا على تضمين عدنا مكاناً سوى نلتقي بالوعد فيه مع موضعنا . وقيل على نزع في وكما يدل الموعد مصدراً على ذلك المحذوف يدل الموعد مكاناً أو زماناً؛ لأنه اسم الزمان والمكان المتضمن معنى المكان والحدث، والزمان والحدث . والحدث هنا هو المصدر .

ثم دلالة المصدر على المحذوف المذكور أولى؛ لأن معناه الحدث فقط فهو بكليته يدل على المحذوف .

وظاهر جار الله أن مكاناً منصوب بموعد وموعد مصدر، وهذا بناء على جواز عمل المصدر المنعوت . وفيه بحث بسطته في الهمع وابن هشام منع عمل المصدر الموصوف قبل العمل .

قال ابن عقيل في شرح التسهيل : ويجوز بعده . ويجوز كونه مكاناً بدلاً من موعداً . وأما على جعل الموعد اسم مكان فواضح . وقد مر أن الاختلاف يناسب المكان والزمان مناسبة دون مناسبة المعنى المصدري، خلافاً للقاضي وجار الله في قولهما : إنه لا يناسبهما .

وإن جعلنا الموعد مصدراً ميمياً قدر مضاف أي مكان وعد، ويطابق هذا جوابه في قوله: (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ) فإن يوم الزينة يدل على مكان مشهور باجتماع الناس فيه في ذلك اليوم .

وإذا جعلنا الموعد الثاني اسم مكان لم يصح الإخبار عنه بيوم فيقدر مضاف

أي موعدكم مكان يوم الزينة [illegible] كما

قدره القاضي . [illegible]

[illegible] إذا جعلنا الموعد الثاني اسم [illegible] لا يطابق

الموعد الأول إلا أن يجعل الأول اسم زمان [illegible] مكان [illegible]

أي المكان [illegible] يوم الزينة [illegible] أي وعدكم

وعد يوم الزينة [illegible]

[illegible] وقرأ الحسن بنصب اليوم على الظرفية [illegible] أي موعدكم [illegible]

[illegible] على هذه القراءة [illegible] الموعد

الأول ولا [illegible] خلافا لبعض [illegible]

[illegible] الزمان الذي [illegible] كل [illegible]

في الشام ، وهو [illegible]

في [illegible] وعليه السلام [illegible]

ويجوز على قراءة الحسن كون خبر الموعد [illegible] من ذلك

اليوم [illegible] أن موعدكم زمان . [illegible]

وقرئ بجزم نخلف في جواب الأمر [illegible] كون لا ناهية والقول مقدر ،

أي [illegible] لا نخلفه [illegible]

[illegible] وقرئ بعدم تنوين سوى ، وقرئ بضم السين مع التنوين وتركه [illegible]

ووجه عدم التنوين وتركه الوصل بنية الوقف ، أو جرى الوصل مجرى

الوقف [illegible]

[illegible]

[illegible]

وقرأ أيضاً بالضم منصوب ، ومعنى سوى على القراءات : تستوى مسافته إلينا وإليك . قاله مجاهد .

وقيل : مستو غير منخفض ولا مرتفع وليس بمعتبر ؛ لأن سوى بمعناها لا تتجرد عن الإضافة خلافاً لمن قال : هو بمعناها أى لا نعوضه مكاناً سواه .

وقراءة كسر السين شاذة ، من حيث إنه جمع سوى بفتح السين وكسر الواو وتشديد الياء الذى أصله سَوُوى بوزن صبور اجتمعت الواو والياء والسابقة ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت وقلبت ضمة الواو قبلها كسرة وفعول بفتح الفاء لا يجمع على فِعَل بكسر الفاء وفتح العين ، ونظيره عدو وعدا بكسر العين . قالوا ولا ثالث لهما ، هذا حاصل ما حررت عليه كلام بعض ، ويمكن لك أن تقول : سوى مفرد وكذا سُوى بالضم ، سلمنا أن المكسور جمع لكن لا نسلم أن سوى أصله بوزن صبور بل أصله بوزن فعيل .

ويوم الزينة هو يوم عاشوراء ، يوم فرح لهم ، يوم عيد فى كل عام ، واتفق أنه كان يوم سبت وأول سنة . وقيل : يوم سوق .

وإنما عيّنه ليظهر الحق على رءوس الأشهاد . وإنما أضيف الزينة لتزينهم فيه .

وقال الثعالبى : وقيل : هو يوم كسر الخليج الباقى إلى الآن .

(وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى) عطف على اليوم ، أى وعدكم وعد يوم الزينة وحشر الناس ، أو على الزينة ، أى يوم الزينة ويوم حشر الناس ، وضحى متعلق بيحشر .

وقرئ بالتاء الفاعل ونصب الناس ، وفى يحشر حينئذ ضمير فرعون ؛ إما الغائب على الخطاب انتهت ، وإما على طريقة خطاب الملوك كما تقول حضرة الملك ؛ فعل الملك كذا . فيه بعض ... على جانب ...

موعدكم يوم الزينة ... والمتكلم فرعون ... أو ... ... [illegible]

وقرئ بالتاء والياء ... خطابا لفرعون ... أهل مصر ... [illegible]

(فتولى فرعون) أدبر (فجمع كيده) ما يكيد به موسى عليه السلام وهو السحرة و... (ثم أتى) ... الموعد ...

(قال لهم موسى) قال المفسرون: هم اثنان وسبعون ساحرا مع كل واحد حبل وعصى . اثنان من القبط ، وهما رأسا السبعين والسبعون من بنى إسرائيل .

وقال الكلبى : الرأسان ... من أهل نينوى .

وقيل : رئيسام شمعون ويوحنا وهو قول مقاتل .

وقال ابن جريج : كانوا تسعمائة .

وقال السدى : هم ... ألف — فى رواية عنه — .

وقال أبو ثمامة : سبعة عشر ألفا .

وقيل : هم أربعمائة .

وقيل : اثنا عشر ألفا وهو قول كعب .

وقال ابن إسحاق : خمسة عشر ألفا .

وقال عكرمة : سبعون ألفا .

وقال محمد بن المنكدر : ثمانون ألفا .

وقال السدى : بضعة وثمانون ألفا . [illegible] مع كل واحد حبل وعصى [illegible]

وروى أنه [illegible]

آلاف سبع مئة ، والمختار منها سبعون . فالضمير للسحرة الملومين من القسام أو المشهورين في القصة أو للكيد المذكور باعتبار وقوعه على السحرة فقط إلا باعتبار وقوعه عليهم وعلى آلاتهم ، فذلك شبيه بالاستخدام .

ويجوز أن يراد بالكيد السحرة ، فالضمير لهم بلا إشكال . وإنما أعاد ضمير الجمع للكيد في الوجهين نظراً لما أريد .

ويجوز أن يراد بالكيد المعنى المصدري ، والضمير للسحرة الذين يدل عليهم الكيد ، أو يقدر مضاف . أي جمع ذوي كيده وهم السحرة ، فالضمير للمضاف المحذوف .

ويجوز رجوع الضمير لقوم فرعون ، فإنهم ما بين ساحر وراض بالسحر مصدق به مريد غالبيته .

(وَيْلَكُمْ) أي هلاككم ، أو عذابكم ، مفعول مطلق عامله محذوف وجوبا من معناه .

ومن أثبت الفعل للويل قدره من لفظه والأصل : أهلككم الله هلاكا أو عذبكم تعذيباً على سبيل الدعاء ، ولما حذف العامل أضيف المفعول المطلق للفاعل أو مفعول لمحذوف أي ألزمكم الله الويل ، وهو العذاب ، أو الهلاك ، أو واد في جهنم .

(لَا تَفْتَرُوا) لا تحدثوا (عَلَى اللهِ كَذِبًا) مفعول تفتروا . وإنما يستعمل الافتراء بمعنى مجرد الإحداث لدلالة كذبا على أنه إحداث في الكذب ، وإلا فأصله إحداث الكذب مطلقاً أو المظلم .

ويجوز استعماله بمعنى الكذب ، فيكون كذباً مفعولا مطلقاً [illegible]

[illegible]

(فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ) فيستأصلكم به. قاله الحسن. والمصدر السَّحت بفتح السين وذلك لغة الحجاز.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص: (فيُسحتكم) بضم الياء وكسر الحاء. والمصدر الإسحات بكسر الهمزة وهو لغة نجد وتميم.

(وَقَدْ خَابَ) خسر الدنيا والآخرة

(مَنِ افْتَرَىٰ) كذب على الله، أو ادعى إلهًا مع الله، أو طعن في الآيات: بأنها سحر أو ادعى الربوبية.

والحاصل أن كل حال منها تؤدى بفرعون وقومه؛ لأن فيهم تلك الخلال، وكان يفترى على الله ما لا يليق بالله عليه ولم يتقوله.

(فَتَنَازَعُوا) أى السحرة أو قوم فرعون (أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ) فى أمر موسى وأخيه، حين سمعوا قوله: لا تفتروا الخ وما لهم هذا التحذير منه. فقال بعضهم: هو حق، وما هذا كلام ساحر. وقال بعضهم: مبطل.

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ) والإسرار - بكسر الهمزة -: الإخفاء، والنجوى: الكلام الخفى خفاء، أى بالغوا فى إخفاء الكلام مخافة أن يتبين لفرعون نيتهم وضعفهم.

ويحتمل أن يكون النجوى بمعنى مطلق الكلام تسمية للعام باسم الخاص، فالمعنى أخفوا الكلام، وهذا الكلام الذى تناجوا به هو قولهم: إن غلبنا موسى اتبعناه. قاله ابن عباس.

وقال قتادة: إن كان ساحرًا فسنغلبه، وإن كان من السماء فله أمر.

وعن بعضهم: أن تنازعهم وإسرارهم كان فى معنى واحد فسره بقوله: (قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ) [illegible]

العاص وتشاوروا فيما يغلبون به موسى ، والإشارة لموسى وهارون ، وهذه قراءة نافع وابن عامر وحمزة والكسائي .

وقد أطال ابن هشام في إعرابها في شرح الشذور ، وأطلت في حاشيته وإعرابها أيضاً في المغني وغيره .

وروى عن عائشة أن ذلك وقوله : والصابئون بعد إن ، وقوله : والمقيمين الصلاة قبل قوله والمؤتون خطأ من الكاتبين .

وعن عثمان أن ذلك لحن مكتوب ستصلحه العرب بألسنتها .

قال السيوطي : كيف يظن بالصحابة وهم الفصحاء أن يلحنوا في الكلام ، ولا سيما القرآن الذي تلقوه عن النبي ﷺ وأمروا بالصون له ؟ وكيف يجتمعون على الخطأ ثم كيف لا يرجعون عنه ؟ وكيف يكلونه إلى إصلاح العرب له باللسان ويتركونه مكتوباً ؟

وما روى عاماً أن في الكتاب لحناً ستقيمه العرب مؤول على نحو الحذف كالكتٰب والصٰبرين ، بإسقاط الألف في الخط وعلى نحو الزيادة مثل ولا أوضعوا ولا أذبحنه .

وكيف يتركون الخطأ في الكتاب لمن يقيمه مع أن غيرهم إنما يقتدى بهم .

وروى أن عثمان لما عرضت عليه المصاحف بعد الفراغ منها قال : أرى شيئاً سيقيمه ، ومراده ما كتب بغير لغة قريش كما كتبوا التابوت التابوه وقد أقامه بلغتهم فلم يبق شيء .

وروى عن ابن جبير عن عثمان أن فيه لحنا سيقيمه ... ومراده إطلاق اللغة والقراءة للكاتب .

[illegible]

... عن النخعي : إن هذان لساحران بالألف مكان الياء، والصابئون بالواو مكان الياء، والمقيمين بالياء مكان الواو .

وقيل لابن الشهاب : مواجهة نقرأ هذان بالياء ولا نكتب بالألف، وحكمها كما كتب الصلاة بالواو ويقرأ بالألف .

ورد بأن الكاتب هذان بالألف مثلا يقرؤه بالألف وقد تبين أنه لا لحن .

فإن قلت : فما الإعراب ؟

قلت : هاذان اسم إن على لغة قصر المثنى .

وقيل : الألف ألف المفرد ونون النصب محذوفة أو الضمير إن ضمير الشأن وهذان مبتدأ واللام زائدة أو للابتداء داخلة على مبتدأ محذوف أى لهما ساحران .

ويرده أن المؤكد باللام لا يليق به الحذف .

وقيل : ها اسم إن .

ورد بحذف ألفها واتصالها بالدال وانفصال إن ، أو الألف بدل من الهاء لمناسبة يريدان كما نون سلاسلا لمناسبة أغلالا .

وقيل : إن بمعنى نعم ، وهذان مبتدأ واللام زائدة فى غيره ، وقد بحثت فى تلك الوجوه فى الحواشى النحوية .

وقرأ أبو عمرو إن هذين لساحران بالياء على الجهة الظاهرة المكشوفة .

وقرأ ابن كثير وحفص إن هذان لساحران بسكون النون ، على أن إن مخففة واللام للفرق بين النفى والإثبات ، أو إن النافية واللام بمعنى إلا .

وقرأ أبى إن ذان إلا ساحران بالإسكان .

وقرأ ابن مسعود ... وأخرجه الجوهرى أن هذان ساحران بفتح الهمزة والتشديد على الإبدال من النجوى .

ومن ابن كثير إن هذان لساحران بالإسكان وتشديد نون هذان ومد ألفه .

(تُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ) إلى غيرها ؛ أو المراد بالإخراج منها الاستيلاء عليها ؛ فإنه إذا كان الحكم لهما فكأنهما أخرجوهم منها (بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ) بمذهبكم الذى هو أفضل المذاهب ، كما صرح بالتفضيل بقوله : (الْمُثْلَى) فإنه تأنيث الأمثل بمعنى الأفضل والأشرف ؛ ومرادهم بالمذهب هذا الدين تبعاً للتعبير بالطريقة .

ومعنى ذهابهما بطريقتهم إزالتها وإظهار دينهما قال : إنى أخاف أن يبدل دينكم .

وقيل : الطريقة سادات القبط سموا طريقة من حيث إنهم قدوة لغيرهم متبوعة كما يتبع الطريق . تقول العرب : فلان طريقة قومه أى سيدهم وصاحب العقل منهم .

واستظهر بعضهم أن الطريقة المملكة أو السيرة .

وقيل : المراد صرف وجوه الناس عنكم .

وقيل : الطريقة المثلى : بنو إسرائيل ؛ لأنهم أهل علم ومال وعدد، أى بأهل طريقتكم . وإنما نسبتهم للطريقة من حيث بناؤها عليهم من كل ما احتاجوا . ويطابق هذا قوله : « أرسل معنا بنى إسرائيل » .

(فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ) بقطع الهمزة وكسر الميم من أجمع بمعنى أحكم وأتقن أى اضبطوا كيدكم وقووه ولا تختلفوا عليه .

وقرأ أبو عمرو فاجمعوا بوصل الهمزة وفتح الميم من جمع بمعنى لم أى ضموا كيدكم بعضه لبعض . والضمير فى قالوا إن كان للسحرة فهو قول بعض لبعض ، وإن كان لهم ولفرعون فهو قولهم لأنفسهم [illegible]

(ثم ائتوا) المكان الموعود (صفاً) مصطفين ؛ لأن ذلك أهيب وكانوا قيل : سبعين ألفا مع كل واحد حبل وعصا وأقبلوا عليه إقبالة واحدة ، وصفاً حال .

وعن أبي عبيدة : الصف : المصلى لأن الناس يجتمعون فيه لعيدهم وصلاتهم . والمراد مصلى معين أو مصلى من المصليات . وعلى هذه الرواية يكون مفعولا به .

(وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى) أى فاز الغالب فوزا محققا . واستعلى بمعنى علا لكن فيه التأكيد بالزوائد والجملة قبل معترضة وفيه نظر :

(قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ) منصوب لمحذوف أى إختر إما إلقاءك أولاً .

(وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى) وإما كوننا أول ملق أو خبر لمحذوف أى الأمر إما إلقاؤك أولاً ، وإما إلقاؤنا . لما أتوا صفاً خيروا موسى استعمالا للأدب وتواضعا .

والمراد بأن تلقى : أن تلقى ما به تسحر أى إما أن تستعمل سحرك وتظهره أولاً .

وقيل : مرادهم أن تلقى عصاك على أنهم علموا أن همه يكون بها .

(قَالَ) موسى : (بَلْ أَلْقُوا) أنتم أولاً . قال هذا مقابلة لأدبهم بأدبه ، ولعدم مبالاته بسحرهم ، وإسعافا إلى ما أوهموا من الميل إلى البدء بذكر الأول فى إلقائهم دون إلقائه ؛ إذ قالوا : « أن نكون أول من ألقى » ولم يقولوا : إما أن تلقى أولاً ، مع أنه مراد ولكن أسقطوا لفظ أول ، وبتغيير النظم إلى وجه أبلغ ؛ إذ المطابق لقولهم : « إما أن تلقى » أن يقولوا : وإما أن نلقى . والمراد فى الشقين الإلقاء أولاً . وأيضا أكرم موسى بالإلقاء أولا لأنهم إذا بدأوا بالإلقاء واستفرغوا مجهودهم فسلط الله المعجزة على سحرهم ومحقته كان أبهر من أن يبدأ

موسى فيسلطوا سحرهم على معجزته فلا يبطلها أو يجعلوا تخييلا من غير تسلط عليها ، والله أعلم أن موسى بأنه غالب فاطمأن أو ألهم ذلك إلهاما .

وإن قلت : كيف قالوا : « أول من ألقى » بالمضى ؟

قلت : هو بمعنى المضارع وعبر بالماضى للفاصلة ، أو لاعتبار وقوع الإلقا بن ومضيهما والفراغ منهما ، حتى إن الخبر ليتنزل : « أولا من ألقى » .

وإن قلت : كيف أمرهم بإلقاء السحر وهو كفر — رضى الله عنهم ؟

قلت : إنما أمرهم به نظرا إلى محقه بمعجزته وفى محقه إعلاء الدين .

(فإذا حبالهم وعصيهم) جمع عصا ، وفى ذلك محذوف تقديره : فألقوا فإذا الخ . وإذا للفجاءة حرف عند الأخفش وابن مالك .

قال ابن هشام : ويرجحه قولهم : خرجت فإذا إن زيدا بالباب بكسر إن لأن إن لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، وظرف مكان عند المبرد وابن عصفور ، وظرف زمان عند الزجاج وجار الله الأكمل : والتحقيق أنها الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصبا لها ، وجملة تضاف إليها ، خصت فى بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلا مخصوصا وهو فعل المفاجأة . والجملة اسمية أى ففاجأ موسى تخيله وقت تخيل سعى حبالهم وعصيهم .

قال ابن هشام : وذلك زعم لبعضهم بل ناصبها الخبر المذكور أو المقدر بعدها وأطلت الكلام فى النحو .

وأصل عصيهم عصووهم بناء على أن ألف العصى عن واو وهو الصحيح أدغمت الواو فى الواو وقلبتا يائين وكسر ما قبلهما ، أو أصله عصويهم بضم العين والصاد وإسكان الواو قلبت ضمة الصاد كسرة وقلبت الواو ياء لسكونها بعد كسرة وأدغمت فى الياء ، أو لما اجتمعت مع الياء وسكنت قلبت ياء وأدغمت

وكلمة [illegible] بكسر الهاء [illegible]

[illegible]

وقرئ بضم العين [illegible] وفيه [illegible] والأولى [illegible] ثم

[illegible]

(يخيل إليه من سحرهم) من التخييل (أنها تسعى) فاعل يخيل

وقرئ بكسر الهاء [illegible] أي [illegible] إلى الله

[illegible]

وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر تخيل بالتاء الفوقية [illegible]

الحبال والعصي وأنها تسعى بدل اشتمال منه [illegible]

وقرئ بالتاء [illegible] الذي هو ضمير ذلك وأنها تسعى مفعول [illegible]

ونسب لابن ذكوان عن ابن عامر. [illegible]

وقرئ نخيل بنون [illegible] ضمير ذلك وأنها تسعى [illegible]

[illegible]

وروي أنهم [illegible] بالزئبق [illegible] فلما ضربت عليها الشمس

اضطربت [illegible] وكانت [illegible] ميلا [illegible]

(فأوجس) أضمر. (في نفسه خيفة) نوعا من الخوف (موسى) [illegible]

أنها جبلة [illegible] مطبوع في البشر لا يكاد يخلو منه كائنا ما كان.

ومن بعض أن الإيجاس للخوف إضمار بعض منه قليل.

وقيل: إنما خاف من أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه.

(قلنا لا تخف) ما توهمت.

(إنك أنت الأعلى) تعليل للنهي وتقرير لغلبته مؤكدا بالاستئناف،

وبطريق التعليق ونحو إن ، وبتكرير الضمير ، سواء جعل بدلا من الكاف أو توكيدا له أو لا محل له أو مبتدأ ، وبالحصر بتعريف الطرفين ، وبصيغة التفضيل من لفظ العلو ، فإنه لو قيل : إنك غالب أو قال : غير مغلوب لكفى ، مع أن قولك : غير مغلوب يحتمل التكافؤ ، فعدل إلى الأعلى لذلك وللفاصلة ، كما إنه أخر موسى مع أنه فاعل أو حسن ـ للفاصلة ، وعاد الضمير إليه مما قبله وهو في النية بعده . والأصل خوفة قلبت الواو ياء لكسر قبلها .

هذا ولا يخفى أن لفظ الغلبة ولو أفاد الظهور أو القصر لكن لفظ العلو أولى منه .

(وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ) أي العصا . وإنما أبهمها تحقيرا لكيدهم بتحقيرها مخرج التحقير ، أي لا تُبالِ بما رأيت من سحرهم ؛ فإنه مع كثرته إنما تحقه عصا صغيرة ، ولا تُبقي منه أثرا ولا عينا ، أو أبهمها تعظيما لها أي لا تُبال بسحرهم فإن في يدك شيئا عظيما يدمغه .

(تَلْقَفْ) تبلع بقدرة الله عز وعلا . وأصله تتلقف حذفت تاء الماضي أو تاء المضارع . وتاء المضارع إما للتأنيث مراعاة لمعنى « ما » لوقوعها على العصا والعصا مؤنثة أي تلقف عصاك ، فضمير تلقف عائد لما وما بمعنى العصا ، وإما خطاب لموسى تجوز في الإسناد إذ أسند التلقف إليه مع أنه للعصا ؛ لأنه له فيه تسبب وهو الإلقاء أو المجاورة .

وقرأ ابن عامر بالرفع على الحال المقدرة ، أي ألقها وهي في قوة التلقف ، أو على الاستئناف .

وقرأ حفص بالجزم وإسكان اللام فلا تشدد القاف من لقفه بعدم التشديد بمعنى تلقفته (مَا صَنَعُوا) من السحر

روى أن فرعون جلس في علية له طولها ثمانون ذراعا والناس تحته في بسيط

... فيقال ... ألقى عصاه ... عليه السلام ...
... قيل ...
... أن ... الإسكندرية ... اليوم
...
... كالجبال ...
و ... أنه طال حتى جاز ... وأنه ذهب في الإسكندرية .
... طال حتى جاز ... بحر القلزم ، قيل : هذا قول
بعيد من الصواب ، مفرط الإغراق ، أي المبالغة . وفرعون في كل هذا ...
ويرى أنه ... ثم ...
فرعون ...
(... صنعوا) ما موصول ... اسم لأن أو حرف ... إن ... مصدر ...
(... كيد ساحر) خبر إن .
وقرئ بنصب كيد مفعولا لصنعوا ... كافة .
وإذا جعل ما اسما لأن ... الكيد أصله مصدر بمعنى ما وقع به الكيد ...
فهو باق على معنى المصدر ، وإذا كانت كافة جاز المعنيان .
وقرأ حمزة والكسائي كيد سحر على حذف مضاف ، أي كيد ذي سحر ،
أو ذوي سحر ، أو على تسمية الساحر سحرا مبالغة ، أو على إضافة البيان ،
كقولهم : علم فقه وعلم نحو وعلم بيان .
وذلك أن الكيد يكون سحرا وغير سحر ، فبين أنه كيد سحر ، كما أن العلم
يكون علم فقه وغيره فبين أنه علم فقه .

وإنما المقدرت الشاف مفرداً مطابقة لساحر في القراءة الأولى ، وقصدر تصحيحها باعتبار الواقع ، فإنهم جماعة ، لكن الغرض الحقيقة لا الإفراد ، كما أنه وصد الساحر في القراءة الأولى ؛ لأن المراد مطلق الجنس لا معنى العدد . ولذلك قال :

(وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ) أى هذا الجنس . وكذا المراد في قوله : « كيد ساحر » لكن نُكر فيه لأجل أن يبق كيد على التنكير ، أى كيد سحرى ، بوصف كيد بسحرى ؛ ومن ذلك قول العجاج :

يوم ترى النفوس ما أعدت … في سعى دنيا طال ما قدمت

أى سعى دنيوى .

ويحتمل أن يكون التنكير للتحقير ، أى بساحر حقير الشأن ودنيا حقيرة .

ويحتمل الوجهين قول عمر رضى الله عنه : إنى لأكره أن أرى أحدكم لا في أمر دنيا ، وقوله : ولا في أمر آخرة يحتمل الأول ، ويحتمل التعظيم .

(حَيْثُ أَتَىٰ) قال ابن عباس : حيث كان أى إذا أقبل إلى موضع وقام فيه للسحر فلا يفلح ، أى لا ينال مرغوبه . وهذا تفسير معنى . وحيث ظرف مكان وضمرها بمعنى بالحين .

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ) أى ألقاهم تلقف العصا الذى هو معجزة دالة على الله (سُجَّدًا) لله تعالى على الأرض بوجوههم توبة وتعظيماً للمعجزة جمع ساجد .

وإنما أسندنا الإلقاء للتلقف لأنه السبب ، أو الأصل : ألقاهم الله سجداً بسبب التلقف .

قال جار الله : سبحان الله ما أعجب أمرهم ! ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود .. فما أعظم الفرق بين الإلقاءين .

وروى أنهم لم يرفعوا رءوسهم حتى رأوا [illegible]، والنار
وثواب أهلها [illegible]

وعن عكرمة [illegible] سجودهم [illegible]
يصيرون إلى [illegible]

(قالوا آمنا برب هارون وموسى) [illegible] أو [illegible]،
أو لأن فرعون ربّى موسى [illegible] فلو اقتصروا على موسى [illegible]
[illegible] أن المراد [illegible] فرعون [illegible]،
أو تعميم لربوبيته. وهذا تحقيق الكلام في هذا المقام.

(قالَ) فرعون: (آمَنتُم) بهمزة الاستفهام والألف بعدها [illegible] آمن
يؤمن، قلبت ألفا. [illegible] وكتبت [illegible] بأنها قد
كانت لا تقرأ. كذا قيل، والحق أنها كتبت [illegible]
[illegible]

وقرأ حفص وقنبل بهمزة وألف واحدة، على الإخبار [illegible] الإنكار،
أو على تقدير همزة الاستفهام. [illegible]

وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بهمزتين محققتين بعدها ألف (أأمنتم) [illegible]
[illegible] على أصله، ويضمن آمنتم معنى خضعتم [illegible]

(قَبْلَ أَنْ آذَنَ) أنا. (لَكُمْ) في الإيمان به.

(إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ) عظيمكم في السحر وأعلمكم به أو أستاذكم (الَّذِي
عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ) وأهل مكة يقولون لمعلمهم القرآن أو غيره: كبير. يقولون:
أمرني كبيري. وقال لي كبيري.

وروى أنه قال لهم: قد تواطأتم على ما فعلتم.

(فَلَأُقَطِّعَنَّ) التشديد للتأكيد .

وقرئ بفتح الطاء غير مشددة وإسكان القاف وفتح الهمزة (أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ) اليد اليمنى والرجل اليسرى وكل واحد من العضوين خالف الآخر ؛ لأن هذه يد وهذه رجل واليد يمنى والرجل شمال ومن للابتداء ، لأن القطع مبتدأ وناشئ من مخالفة العضو الآخر لا من ذاته ، متعلقة بأقطعن ، أو بمحذوف حال من الأيدي والأرجل وهما جميعا فقط ، وأراد بهما الكثرة . والأصل أيديكم بضم الدال كسرت لئلا تقلب الياء واوا ويجوز كونه من المصاحبة .

(وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ) بالتشديد للتأكيد .

وقرئ بكسر اللام غير مشددة وإسكان الصاد وفتح الهمزة وهو أول من قطع الأيدي والأرجل وصلب (فِي جُذُوعِ النَّخْلِ)

قال ابن هشام : « في » للاستعلاء بمعنى على . انتهى . وإيضاحه أنه شبه الاستعلاء المطلق بالظرفية المطلقة بجامع التمكن فسرى التشبيه بجزئيات كل فاستعار لفظ « في » لمعنى على وهو استعلاء جزئي استعارة تبعية تحقيقية هذا مذهب الكوفيين .

وقال البصريون : « في » هنا للظرفية . شبه المصلوب لتمكنه من الجذع بالحال فيه ، على طريق الاستعارة بالكناية ، أو شبه الجذوع بالظروف بجامع التمكن في كل على طريق الاستعارة بالكناية . و « في » على الوجهين تخييل ومن أراد تحقيق ذلك فعليه بشرحي على شرح عصام الدين .

وعن أبي حيان : حفر لهم في الجذوع فالظرفية حقيقة . وقد يقال حقيقة بلا حفر باعتبار أن الجذوع قد ألصقوا بها ، وفضلت عنهم أطرافها بل أو لم تفضل فافهم .

(وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا) أنا أو موسى، أو إلهنا أو رب موسى. وعلى الأول ففي الكلام رفع نفسه في اعتقاده من القهر بالعذاب والتعيير لموسى والتهكم به، حيث أثبت له التعذيب مع أنه لا يقدر في ذلك المقام على تعذيب أحد بل يقدر على مقابل المعجزة، ولكنه ليس من التعذيب في شيء. قال جار الله: اللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله كقوله: يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين

(أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ) عذابا. وقيل: أبقى عقابا وهو أتم، وكذا قول بعضهم على المخالفة.

(قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ) لن نختارك (عَلَىٰ مَا جَاءَنَا) الضمير المستتر لما. ولا يجوز أن يكون لموسى، ويقدر الرابط أي ما جاءنا به موسى؛ لأن هذا الرابط مجرور بما لم يجر به الموصول، ومتعلق بما لم يشبه ما يتعلق به جار الموصول. كذا ظهر لي وأجازه القاضي.

(مِنَ الْبَيِّنَاتِ) بيان لما، أو ضميره المستتر، أو الهاء المقدرة على ما قال القاضي.

(وَالَّذِي فَطَرَنَا) خلقنا. والعطف على ما. ويجوز أن تكون الواو للقسم وجوابه محذوف دل عليه «لن نؤثرك» كذا فسرت كلام القاضي، ولكن قال ابن هشام: تلقي القسم بلن ولم نادر جدا كقول أبي طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا

وأجازه بعضهم بلا ندور.

(فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ) افعل ما أردت أن تفعله. وهذا الأمر يسميه علماء الأصول تفويضا. وكذلك سموا الأمر في قوله: «ألقوا ما أنتم ملقون» لاحتقار سحرهم بالنظر لمعجزة موسى التي أعلم موسى أو ظن أنها تكون.

ويصح أن يكون الأمر هنا للإنذار مثل : « قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار » ويسمى تهديداً ، كأنه قيل : من وراء فعلك الآخرة لنا بالرحمة ولك بالعذاب .

وبعضهم يفرق بين التهديد والإنذار بذكر الوعيد مع الإنذار . وعليه فالأمر تهديد ، والرابط محذوف مضاف إليه ، أى قاضيه ، أو مفعول به ، أي قاض إياه ، أو مجرور بلام التقوية ، أى قاض له ولام التقوية زائدة أو كالزائدة فلا يبحث بأنه كيف يحذف العائد المجرور بالحرف مع أن الموصول لم يجر بمثل الجار له .

قال ابن هشام : ويجوز حذف العائد المجرور بالإضافة « إن كان المضاف وصفاً غير ماض نحو : « فاقض ما أنت قاض » .

قال خالد خلافاً للكسائى : وإن قلت : كيف أجزت تقدير قاض إياه بالانفصال مع إمكان الاتصال ؟

قلت : لأن انفصاله على المفعولية واتصاله على الإضافة فلم يكن الاتصال إلا على جهة غير جهة الانفصال ، ولأنه إنما يمتنع الانفصال مع إمكان الاتصال فى الاستعمال لا فى التقدير .

قال ابن هشام فى حاشية التسهيل: « ما » هذه يحتمل أن تكون مصدرية أى اقض قضاءك أو مدة قضائك ، بدليل قوله تعالى : (إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) اهـ .

وإنما أجاز ذلك لأن الجملة الاسمية بعدها ، الخبر فيها مشتق ، أى المعنى افعل ما شئت ، إنما تفعل ما تهواه فى الدنيا ، والآخرة خير ، فإنما تقضى الخ كتمهيد لما بعده وتعليل لما قبله وتهديد له ، أى تفعل اليوم تجازى غداً

وهذه ظرف زمان لوصفه بالمصدر الدال على الزمان أو لإبدال المصدر

المذكور عليه مثلا وعطف أطلبه عطف بيان متحول ، كأن كلمة كذا حياة فلان ، أى فى حياته .

وقيل : منصوبة على نزع فى [illegible]

وقرئ : تُقضى هذه الحياةُ الدنيا ، بالبناء للمفعول والرفع ، كقولك : صِيم يومُ الجمعة .

(إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا) كفرنا وصغائرنا .

(وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ) عطف على خطايانا . ويؤخذ منه أنه خير للإنسان أن يموت ولا يسحر ولا يعلمه ؛ فإنهم طلبوا الغفران لما فعلوا من السحر وتعلمه وهم عليه مكرهون . كذا ظهر لى .

وإن قلت : كيف أكرههم وهم جاءوا مختارين ؟

قلت : قيل : أكرههم أولاً على تعلم السحر . فالمراد على هذا بالإكراه على تعلم السحر . قيل : كانوا اثنين وسبعين : اثنان من القبط ، وسبعون من بنى إسرائيل .

وقيل : قالوا لفرعون : أرنا موسى نائماً ففعل ، فرأوا عصاه تحرسه . فقالوا له : ما هو ساحر . الساحر إذا نام بطل سحره ، فأبى إلا أن يعارضوه ويستعملوا سحرهم .

(وَاللَّهُ خَيْرٌ) ثواباً ، (وَأَبْقَى) عقاباً ، وفيه رد لقول فرعون : « أينا أشد عذاباً وأبقى » وقيل : خير منك يا فرعون ومما تدعونا إليه .

واختلفوا : هل أنفذ فرعون وعيده فيهم ؟

ويدل على أنه أنفذه قوله ﷺ : كانوا أول النهار سحرة وآخر النهار شهداء . رواه الشيخ هود ـ رحمه الله ـ وذلك آخر السحرة .

وقيل : ما رأى أيضاً من كلامهم ، وعظوا به فرعون .

(إنّه) أى الشأن (مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً) أى بموت على شركه أو نفاقه .

(فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا) فيستريح (وَلَا يَحْيَى) إما على حذف النعت والمنعوت ، أى حياة نافعة ، أو على تشبيه حياته بعدمها ، والكلام مانع وحد من النافع ، والقرينة قوله : لا يموت

(وَمَنْ يَأْتِهِ) بالهاء بعد الهاء لدوام الاعتداد بالياء المحذوفة قبلها .

وقرأ قالون بالاختلاس اعتداداً بها فى رواية عنه فى الوصل وأبو شعيب بإسكانها فيه ، وتلك روايات عن نافع ، والمشهور الهاء .

والمشهور عن قالون عنه الاختلاس ، وروى عنه الهاء .

ومن العرب من لا يمد الهاء بياء أو واو مطلقاً ، ويحتمل أن يكون هذا هو معتمد المختلس كذا قيل .

والحق أن معتمده الساكن المحذوف كما مر .

(مُؤْمِناً) مات على الإيمان الكامل وهو حال .

(قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ) الفرائض والنوافل فى الدنيا حال أخرى وصاحب الحالين ضمير يأت ، فهما مترادفتان ، أو صاحب الثانية ضمير مؤمناً فمتداخلتان والثانية مؤكدة ؛ لأن المؤمن اسم الموحد الموفى بالعمل الصالح ، وإن جعل هنا بمطلق الموحد فمؤسسة .

(فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ) المنازل (الْعُلَى) الرفيعة جمع عليا مؤنث أعلى كالكبرى .

(جَنَّاتُ عَدْنٍ) بدل من الدرجات ، أو خبر لمحذوف على المدح ، والعدن : الإقامة .

(تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى)
تطهر من الذنوب .

وقال ابن عباس : قال : لا إله إلا الله وقد مر أشراط العمل الصالح وقو
حال مما مر كائن وظاهر وخالدين ناصبه معنى الإشارة أو الاستقرار لقوله :
« لهم » و « تجري من تحتها الأنهار » نعت لجنات ؛ لأنه لما نكرة أو حال لجنات
للإضافة لعدن على أن تكلف له مرتبة تنبيه للحالية .

(وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى) هذا إخبار من كلام الله تعالى لسيدنا محمد
ﷺ (أَنْ) تفسيرية لأن في الوحي معنى القول دون حروفه . ومن أجاز دخول
المصدرية على الطلب أجاز مصدريتها أي أوحينا إليه الأمر بالإسراء أو بالأمر به
(أَسْرِ بِعِبَادِي) بني إسرائيل من مصر . والإسراء : المشي ليلاً . وهو
هنا بمعنى السرى وهو أولى من أن تجعل همزة ماضيه للتعدية لأداة إلى كون
الباء زائدة .

وقرئ أن اسرِ بكسر النون ووصل الهمزة من سرى .

(فَاضْرِبْ لَهُمْ) بالعصا (طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ) أي فاجعل لهم كقولك : ضرب
له في ماله سهماً أو فاتخذ لهم ، كقولك : ضرب اللبن أي اتخذها بأن عملها
(يَبَسًا) مصدر كاليبس بضم فإسكان كالعدم والعُدم والسقم والسُّقم وصف به
مبالغة ، أو لتأويل بيابس أو بذي يبس والمصدرية وصف به المؤنث والمثنى
والجمع بلفظ واحد نحو شاة يبس أي جف لبنها .

وقرئ يبْسًا بإسكانها على أنه وصف كشذ المكان فهو شاذ ، أي خشن ، أو
ارتفع أو غير ذلك ، أو على أنه مخفف من اليبس بكسر الباء كيقظ فهو يقظ ،
ويقظ ، بكسر القاف وإسكانها ، أو على أنه جمع يابس كراكب وركب وصف به

المفرد مبالغة ، كقولك بِتّي جياع فمي واحد الأمعاء ، وجياع جمع جائع ، وصف به مبالغة في الجوع ، أو وصف به المفرد لتعذره معنى ؛ فإنه جعل لكل سبط طريقاً .

قال الشيخ هود : قال الحسن : أتاه جبريل على فرس ، فأمره فضرب بعصاه البحر ، فصار في البحر اثنا عشر طريقاً ، لكل سبط طريق يبس .

وأجاز القاضي كون يبساً بفتح فإسكان مخففاً من يبس بفتحتين .

قلت : الذي حفظناه أن تخفيف فعل بفتح الفاء والعين بالإسكان نادراً وضرورة ، وإنما يخفف فعل بضم العين أو كسرها . ولي في يبسا في الآية بحث في شرح اللامية .

(لَا تَخَافُ دَرَكًا) اسم مصدر بمعنى الإدراك ، أي لا تخاف أن يدركك فرعون وجنوده من ورائك .

وقرأ أبو حيوة بسكون الراء ، وهو كالدرك بالفتح والجملة صفة من طريقاً ثانية والرابط محذوف أي فيه وإن جعلنا في البحر صفة ، فتلك ثلاث صفات ولك أن تجعل الجملة حالا من ضمير يبساً ويبسا حالا من ضمير مستتر في قوله : « في البحر » إن جعل صفة لا إن علق باضرب ، لأنه لا ضمير فيه حينئذ .

وقرأ حمزة لا تخف بالجزم في جواب الأمر أو بالنهي .

(وَلَا تَخْشَىٰ) عطف على لا تخاف : وأما على قراءة جزم تخاف . فجملة لا تخشى مستأنفة أي ومن شأنك أنك آمن لا خاشٍ ، أو معطوفة على لا تخف وثبت الألف الفاصلة ؛ أو جاء على لغة ذكرها بعض النحاة أن بعض العرب يثبت حروف العلة في الجزم . وعلامة الجزم على هذه اللغة حذف الضمة المقدرة على الحرف .

قال القاضي : أو حال بالواو ، أي على حذف المبتدأ ، أي وأنت لا تخشى ؛ لأن الحال الذي هو جملة المضارع المنفي بلا ومرفوعه لا يقترن بالواو ، قاله ابن هشام خلافا لابن محمد بن مالك والواو لا تخشى غرقا من البحر أمامك .

(فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ) خرج موسى بعباد الله أول الليل فأخبر فرعون بذلك ، فقص أثرهم وأتبع لموافقة الجرد ، أي تبعهم والباء المصاحبة أو معاقبة لهمزة التعدية متعلقة بأتبع . ويجوز على المصاحبة تعليقها بمحذوف حال .

ويؤيد ذلك قراءة بعضهم فتبعهم أو الهمزة للتعدية والمفعول الأول محذوف ، أي أتبعهم نفسه ، والباء المصاحبة ؛ أو المفعول الأول هو جنود زيدت فيه الباء .

وإنما قلت : المفعول الأول نفسه أو جنود أي والثاني الهاء قبل الميم قدمت لأنه وجنده فاعلان معنى لأنهما تابعان وفي خروج فرعون تحريض لجنده . وقال ابن هشام : زيادة الباء في مفعول ما يتعدى لاثنين قليلة .

(فَغَشِيَهُمْ) أي أصاب فرعونَ وجنودَه قيل : أو الضمير لجنوده .

(مِنَ الْيَمِّ) بحر القلزم . وزعم بعضهم أنهم غرقوا في بحر النيل .

(مَا غَشِيَهُمْ) أبهم الصلة تهويلا ومبالغة . وفي الكلام اختصار ، أي أي أصابهم ما سمعت قصته وهو الغرق ، ولا يعرف كنهه إلا الله سبحانه وكانت جنوده قيل أربعين ألف ألف .

قال ابن هشام : شرط الصلة أن تكون معهودة أي للمخاطب إلا في مقام التهويل والتفخيم فيحسن إبهامها نحو « فغشيهم من اليم ما غشيهم » .

وقال الرودانى : الصلة أبدا تكون معهودة إما خارجا وإما ذهنا . والآية

من تعريف الحقيقة فى ضمن كل فرد منه من العهد الذهنى . ويجوز أن تكون من الخارجى أى الذى يعرف فى الخارج أنه غشيهم ؛ فإن المعهود خارجا يجوز كونه مجملا كما يكون مفصلا . ومن للابتداء أو للظرفية ، وأجيز كونها للبيان من ما تتعلق بمحذوف حال منها .

وقرئ فغشاهم من اليم ما غشاهم بالتشديد ، أى غطاهم وعليه كالفاعل ما كما فى القراءة الأولى .

ويجوز كونه على القراءتين ضميرا مستترا لله سبحانه ، أو لفرعون لعنه الله ؛ لأنه سبب هلاكهم . وعليه فما مصدرية ، والمصدر مفعول مطلق ، أو اسم واقع على المصدر مفعول مطلق . وعلى التشديد يجوز كونه مفعولا أول ، أخر بناء على أن التشديد للتعدية لا للتوكيد .

(وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ) إضلال دين ؛ إذ دعاهم لعبادته ، وإضلال الدنيا ؛ إذ وصلهم هذا الموصل المخزى

(وَمَا هَدَىٰ) أى ما هداهم لصلاح دين ولا دنيا وذلك رد لقوله : « وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » وتهكم به وذلك من التلميح البديعى وهو أن يشار فى أثناء الكلام إلى قصة أو شعر أو مثل من غير ذكره ؛ فإن « وما هدى » إشارة إلى ادعائه ، إشارة قومه مثل أن يدعى زيد أنه يبالغ فى القتال فإذا لم يفعل قلت له : ما بالغت فى القتال ، وحذف المفعول للفاصلة وهكذا فى مثله مع العلم به والاختصار .

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر ، وإغراق فرعون ومن معه ، على إضمار قلنا أو خطاب للذين منهم ، فى عهد النبي ﷺ بما فعل بآبائهم ، فلا يقدر القول . والأول أولى ، وإضمار القول كثير

(قد أنجيناكم) وقرأ حمزة والكسائي: قد أنجيتكم. (من عدوكم) فرعون وقومه. (وواعدناكم) وقرئ وواعدتكم. (جانب) وقرأ بعض وعدناكم، وبعض ووعدتكم. (الطور) الجبل. (الأيمن) نعت جانب، لنؤتي موسى التوراة فيه، للعمل بها، والمناجاة.

وإنما عدى للمواعدة على بني إسرائيل أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب، مع أنها لموسى أو له والسبعين المختارين لكون موسى والسبعين منهم ونفعهم ولعود ذلك إليهم وذلك الطور هو طور سيناء.

وقرئ بجر الأيمن، مع أنه نعت للجانب، لجواره المخفوض، وهو الطور ومعنى كونه مجرورا أنه على صورة المجرور، وإلا فكسرته ليست إعرابا، كما أنها لم تكن بعامل، ولكنها للمناسبة ونصبه مقدر.

ويجوز على هذه القراءة أن يكون نعتا للطور لما فيه من اليُمن، أو لأنه على يمين من يمشي في الجادة.

(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ) الترنجبين ينزل عليهم مثل العسل في محلتهم في التيه من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس (وَالسَّلْوَى) الطير المسمى السمانى بالقصر.

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) وقرأ حمزة والكسائي ما رزقتكم. والطيبات: الحلال، أو اللذائذ. والإضافة للبيان أو التبعيض، فإن من الرزق ما هو حلال وما هو حرام. هذا مذهبنا معشر الأباضية.

(وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ) أي فيما رزقناكم، أي لا تجاوزوا الحد فيه بالإسراف، ومنعه عن مستحقه، والتكبر، وعدم الشكر، واستعماله في المعاصي، والتقوّي به عليها.

وقيل : لاتدخروا . وقيل : كانوا لا يأخذون لغد لأنه يفسد ، ولا يوم الجمعة ويوم السبت ، لتفرغهم للعبادة .

قيل : لولا بنو إسرائيل ما اختزن الطعام ، ولولا حواء ما خانت أنثى زوجها .

(فَيَحِلَّ) أى يجب (عَلَيْكُمْ غَضَبِي) من حل الدين : إذا وجب أداؤه وقرأ الكسائى بضم الحاء ، بمعنى ينزل .

(وَمَنْ يَحْلِلْ) يجب . وقرأ الكسائى بضم اللام ، أى ينزل . (عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ) هلك . وقيل : وقع فى الهاوية .

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ) كثير الغفران وعظيمه ، فقيه ترجية (لِمَنْ) لذنوبه ، فهو بتقدير مضاف . ويحتمل بيان إن لا تقديرا ، أى لا أظهره على رءوس الأشهاد بالفضيحة ، واللام للتقوية عائدة لغفار .

(تَابَ) من الشرك (وَآمَنَ) وحد الله . وفيه تأكيد ؛ فإن من تاب من الشرك قد آمن .

(وَعَمِلَ صَالِحًا) الأدى الفرض الذى هو عمل الواجبات ، وترك المحرمات (ثُمَّ اهْتَدَىٰ) علم أن ذلك توفيق من الله تعالى .

وقيل : لزم ذلك إلى الموت .

وقيل : علم أن لذلك ثوابا

وقيل : أقام على السنة ، إذ الله الاعتقاد الفاسد عن قلبه ، كما طمع فى دخول الجنة بمجرد الإيمان دون العمل ، وكادعاء رؤية البارى . والله أعلم بمراده . وهذه شروط الغفران أيضا للكبائر التى ليست بشرك .

ويحتمل أن يكون معنى الآية : وإنى لغفار لكبائر الشرك ، وكبائر النفاق ،

على تقاربهما ، وآخر يجعل ذلك بمعنى [illegible] إيمانا [illegible] فإن كان مشركا فليؤمن إيمانا خالصا ، وإن كان مؤمنا فليثبت إيمانا [illegible] فالمؤمن [illegible] [illegible] لم يجتهد بما [illegible] من الكبائر ، ولزم على ذلك إما الجمع بين الحقيقة والمجاز ، أو الجمع بين معنيين كلاهما أو بعض المجاز ، ويبقى أهل جواز ذلك .

(وَمَا أَعْجَلَكَ) [illegible] جوازا ، بمعنى أى شىء حملك على العجلة [illegible] والواو [illegible] يمكن منه التعجب ، [illegible] وجوبا .

(عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى) عاتبه على العجلة وأنكرها عليه ، لأنها نقيصة من حيث تركه القوم [illegible] ، ومن حيث إغفاله القوم ، وإيهام التعظيم عليهم .

والقوم : النقباء : السبعون المختارون ، تقدم منهم إلى الطور ليأخذوا معه التوراة على الموعد المضروب ، وتقدمهم شوقا إلى كلام ربه وتنجز وعده ، ظنا أن ذلك أقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل . وغاب عنه أن الله جل وعلا ما وقت أفعاله إلا لحكم ومصالح .

(قَالَ هُمْ أُولَاءِ) وقرأ عيسى ابن عمر بترك الهمزة وذلك مبتدأ وخبر (عَلَى أَثَرِي) خبر ثان أو حال ، أى ما تقدمتهم إلا بخطا يسيرة لا يعتد بها عادة ، ويتقدم بها بعض الرفقة على بعض ، وبتقدمها على الوفد رئيسهم .

وإن قلت : فكيف قال : هم أولاء بإشارة البعيد ؟

قلت : القرب والبعد نسبيان : يصح أن تقول فى القريب : هو بعيد بالنسبة إلى ما هو أشد قربا ، وفى البعيد : قريب بالنسبة لما هو أشد بعدا .

وعن بعضهم : أنه استعمل أولاء هنا فى القرب

وقرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر همزة أثري . وقرأ عيسى بن عمر بضمها والفتح أفصح ، والثانية ما كثرة في قراءة الكسر والضم .

ومن قال القشيري : حجاج بن ناصر الفيلي ورد عليه بقوله : وعجل أثره ، زعم أن المراد الجميع ، وأنه ما دونهم قبل الميعاد .

وقد يجاب بأن معنى قوله : على أثري ، أنهم ينتظرونني .

(وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ) إلى طاعتك (رَبِّ) يارب (لِتَرْضَىٰ) عني رضا زائدا على رضاك ؛ فإن العجلة إلى امتثال أمرك يزيد رضاك . فيتوجه بمقتضى الوعد على ذلك بالثواب .

وإطلاق القاضي أن العجلة في نفسها نقيصة ليس بجيد ؛ لأنها في الطاعة جيدة . وإنما هو ترتب عليه لسبقه القوم ، وما تقدم .

وقرئ بيناء ترضى للمفعول .

وسؤال الله عوض أو تعجيبه إنما كان في العجلة . فمقتضى الجواب الاقتصار على عجلت إليك رب لترضى ، ولكن زاد بسطا لعذر أولا بأن قال : إن التقدم الذي تقدمته غير معتد به عندنا معشر البشر وكأني غير متقدم ، أو لما عاتبه الله انزعج فلم يأت بالجواب المطابق .

(قَالَ) الله عز قائلا : إن ظننت ما ظننت . (فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا) ابتلينا (قَوْمَكَ) في دينهم بعبادة العجل . (مِنْ بَعْدِكَ) من بعد خروجك عنهم ، وتخلف ما ظننت من بقائهم على الخير ، ومن أن العجلة مرضاة . وهؤلاء القوم هم الذين خلفهم مع هارون وهم ستمائة ألف ، نجا منهم من عبادة العجل اثنا عشر ألفا .

(وَأَضَلَّهُمُ) باتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته (السَّامِرِىُّ) هو موسى ابن ظفر منسوب إلى السامرة قبيلة من بنى إسرائيل، وقيل كان منافقا.

وقيل: كان من [illegible].

وقيل: كان علجا من كرمان.

وقيل: من أهل باجرما قرية بالموصل، وأن [illegible]، وكان من قوم يعبدون البقر.

وقيل: قبيلة من بنى إسرائيل تسمى السامرة خالفوهم فى بعض دينهم، وكان جارا لموسى، وكان عظيما فى قومه وصائغا.

وقرئ بضم اللام على الابتداء: أى أشدهم ضلالة السامرى؛ لأنه ضال مضل.

روى أنهم أقاموا على الدين عشرين ليلة، وحسبوها بأيامها أربعين، وقالوا: كملت العدة، ثم كان أمر العجل، وأن هذا الخطاب كان عند قدومه.

وليس فى الآية ما يدل على أن الخطاب موجود عند تقدمه. وإن صح ذلك فالوجه ما يتخذه بقوله: «قد فتنا» أن الله عز وجل أخبر عن الفتنة المترقبة بلفظ الماضى لوقوعها لا محالة، أو المراد بفتنته إياهم، سبق علمه بأن سيفتنهم. والعلم بالشىء ومشيئته له أصل وقوعه، أو افترض السامرى غيبته، فعزم على إضلالهم عند انطلاقه، وأخذ فى تدبير ذلك، فكان بدء الفتنة موجودا. وقال الله لنبيه: استخلف هارون على قومه. ولما انتهى إلى الجبل مناجيا ربه، زادهم فى الأجل عشرا.

(فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ) عليهم جميعا؛ لأن منهم من عبد العجل، ومنهم من لم يقاتلهم على ذلك، ولم يغلظ عليهم إلا الذين ساروا معه.

وإنما رجع بعد استيفاء الأربعين ذي القعدة وعشر من ذي الحجة ونزول التوراة .

وقيل : قبل ذلك ثم رجع (أسِفًا) حزينًا على ما فعلوا .

وقيل : شديد غضب ؛ لقوله ﷺ : موت الفجاءة رحمة المؤمن ، وأخذة أسف للكافر . وعليه الحسن .

(قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا) وعدهم أن يعطيهم التوراة وهي صلاح لهم ولأعقابهم دنيا وأخرى ، ولا وعد أحسن من ذلك .

وقيل : حسنًا معناه : صادق . وهذه نعمة يجب أن تشكروه عليها ، فكيف عبدتم غيره ؟!

وقيل : المراد الوعد بالثواب في الآخرة على التمسك بدين . كانت التوراة ألف سورة ، كل سورة ألف آية يحمل أسفارها سبعون جملا .

(أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ) الزمان ، وهو زمان مفارقته عليه السلام لهم .

وقال مجاهد : الوعد (أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ) يجب .

وقال الشيخ هود : إن بعضا قرأه بضم الحاء أي ينزل ، وقال أبو عمرو الداني : الكسر في هذا مجمع عليه .

ووجه الجمع بينهما أن المجمعين على الكسر القراء السبعة أو العشرة ؛ لأن كلامهم في قراءتهم والقارئ بضمها غيرهم .

(عَلَيْكُمْ غَضَبٌ) هو ضد الرضى أو المراد به العذاب . وذلك لأن الغضب سبب العذاب ، وهو أولى بقراءة الضم من ضد الرضى والسكر جائز (مِنْ رَبِّكُمْ) لعبادة ما هو في غاية الغباوة حتى يضرب به المثل في الغباوة ، وعدم قتال العابدين والتغليظ عليهم ، أي أم أردتم فعلا يوجب الغضب . والمراد التوبيخ ، فإن الإنسان لا يريد غضب الله .

ويحتمل أن يكون الخطاب في ذلك كله للأنبياء المتوعدين وهو أنسب بما بعد، فهو أولى، لئلا يجعل الخطاب فيما قبله لغيرهم وفيما بعده خاصا بالذين ولو كانت القرينة موجودة.

(فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي) مصدر ميمي مضاف للمفعول، أى لوعدى، أى وعدكم إياى بالثبات على الإيمان بالله سبحانه، والقيام بما أمرتكم به، أو وعدكم إياى بالمجيء بعدى.

ويصح أن يكون اسم زمان أو مكان، أى تركتم الزمان الذى تواعدنا أن نجتمع فيه، أو المكان الذى تواعدنا الاجتماع به، وذلك زمان أخذ التوراة والمناجاة ومكانهما.

وقيل: المعنى فوجدتم الخلف فى وعدى لكم بالعود بعد الأربعين، من أخلفت وعده: وجدت الخلف فيه، وهو مضاف للفاعل، ولكن التفسير لا يناسب ترتيب قوله: « فأخلفتم موعدى » على ما قبله، ولا على الشق الذى يليه وهو « أم أردتم » الخ... ولا يناسب الجواب بقوله: (قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا) أى ما أخلفناه بأن ملكنا أمرنا، إذ لو خلينا وأمرنا ولم يسوّل لنا السامرى لما أخلفناه.

وقرأ حمزة والكسائى بضم الميم، وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسرها والكل مصادر ملكت الشيء.

ويستعمل المضموم والمكسور بمعنى الشيء المملوك، بل قيل: هذا هو الأصل فى المضموم والمصدرى الكل مضاف للفاعل.

وفسره بعض بالقدرة، وبعض بالأمر من الأمور، وبعض بالاختيار.

(وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا) جعلنا حاملين (أَوْزَارًا) أحمالا أو أثقالا، أو آثاما. والثانى قول مجاهد.

(مِنْ زِينَةِ) حلية (الْقَوْمِ) القبط ، استعاروها منهم حين هموا بالخروج من مصر باسم العرس ، ولا عرس حقيقة .

وقيل : كان أباحها الله لهم

وقيل : لا بل يردونها .

وقيل : استعاروها للعيد ولم يردوها عند الخروج مخافة أن يعلموا بخروجهم .

وقيل : هي ما قذفه البحر من زينتهم بعد إغراقهم ولم تحل لهم الغنائم ولأنهم كانوا مستأمنين تحت القبط وليس للمستأمن أخذ مال الحربي .

والحاصل أنها سميت أوزاراً إما من الوزر بمعنى الثقل ، وهي حلي كثيرة ، أو من الوزر بمعنى الذنب ؛ لأنهم أخذوها على جهة العارية فتملكوها ، أو لما ألقاها البحر أخذوها ملكاً ولم تحل لهم ، أو لأنهم ألقوها في النار فصيغت عجلا عُبِدَ من دون الله ، ولكن هذا الإلقاء يكون ذنبا إن علموا أن السامري يريد ذلك .

نعم هو ذنب مطلقا من حيث إنه تصرف في مال الغير بلا إذنه ، أو سموها وزراً لأنها سبب الإثم ، من أن العجل بني بها .

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وروح قيل وأبو بكر بفتح الحاء والميم والتخفيف .

(فَقَذَفْنَاهَا) طرحناها في النار بأمر السامري (فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ) ما معه منها والفاء للاستئناف . وكذلك مفعول مطلق لألقى .

وروى أنه قال لهم : إن موسى أخلف ميعادكم لما معكم من حلي القوم ، وهو حرام عليكم . فالرأى أن نحفر حفرة ونقذفه فيها ، ففعلوا وقال لهم : يجيء موسى فيأمرنا بما نفعل به بأمر ربه وبعد ذلك أوقد ناراً وصاغه ، لعنه الله .

وقيل: لما قال لهم [illegible] حفرة [illegible] وتلقيه فيه [illegible]

وقيل: إن هارون عليه السلام أمرهم بإلقائه في حفرة [illegible] فيها حتى يجيء موسى [illegible]

وروى أنه مر على السامري يصوغ فقال له: ما هذا؟ فقال: أصنع ما ينفع ولا يضر فادع لي. فقال: اللهم أعطه ما سألك على ما في نفسه. فألقى تراب حافر فرس الرسول جبريل عليه السلام. واسم فرسه حيزوم. ألقى ما صاغ على هيئة العجل، فكان عجلا يخور بدعوة [illegible]. والصحيح أنه خار بسبب التراب. ولكن لا [illegible] أثر التراب [illegible] دعا هارون.

وقيل: إن هارون لم يدع له [illegible] ولم يعلم بذلك إلا بعد صوغه وخواره.

وقيل: إن السامري لما قال لهم: ألقوا ما معكم فيها ألقوا، وجعل كأنه يلقي ما معه. ولم يلق ولكنه ألقى التراب، وأوحى إليه وليه الشيطان: أنه إذا خالط مواتا كان حيوانا.

وقد مر أن السامري اسمه موسى، وولد في وقت الذبح، فألقته أمه في جبل بعد ما لفته، ورباه جبريل وغذاه لما أريد به من الخزي.

وذلك أن فرعون لما أمر بذبح الأولاد جعلت المرأة إذا ولدت غلاما، انطلقت به سرا في جوف الليل، إلى صحراء أو واد أو غار في جبل، فتخفيه، فيقيض له ملكا يربيه ويطعمه ويسقيه حتى يختلط بالناس. وكذلك من ولد في عام الذبح، بعد أن كان يذبح عاما ويترك آخر. وكان السامري ولي أمره جبريل.

وروى أن الله سبحانه خلق في إحدى إبهاميه سمنا وفي الأخرى عسلا ومن ثم كان الصبي إذا جاع مص إبهامه فيروى وجعل الله له فيه رزقا [illegible]

وروى أن الله وكل به (عجلا) ليونا تسقيه اللبن بالغداة والعشى حتى كبر وخلط بالناس .

وقيل: وكلها به جبريل، وفيه ــ لعنه الله ــ وفى موسى النبى ــ عليه السلام ــ قال بعضهم :

إذا المرء لم يخلق سعيدا تخلفت ظنون مربيه وخاب المؤمل

فموسى الذى رباه جبريل كافر وموسى الذى رباه فرعون مرسل

(فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا) من ذلك الحلى المذاب . وليس ذلك من كلامهم فضلا عن كونه التفاتا ، وكون الأصل فأخرج لنا (جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ) صوت كصوت البقرة ، عند ابن عباس والحسن وقتادة والجمهور وهو الصحيح .

وقيل : كصوت الريح، وهو قول مجاهد .

والمراد أنه على صورة عجل جسد بلا روح ، ولكن له خوار . وهذا الخوار إما لروح كانت فى بعضه ، وإما لجعله له مخارق ومنافذ وأنابيب إذا دخلها الريح صاتت كالعجل ، كما قال بعضهم بذلك ، وأنه لا تظهر هذه الخارقة على يد ضال .

فمعنى قوله « عجلا » على تقدير مضاف ومجاز صورى .

ومعنى قوله «جسدا» أنه لاروح فيه؛ فإن الأصل فى الجسد أن يكون بلا روح.

ومثله ماقيل : إن معناه جسد لا يتغذى .

وقال ابن عباس والسدى : بل انقلب الحلىّ بعد صوغه عجلا جسدا لحما ودما يمشى ويخور كالعجل . وكانوا يسجدون له مادام يخور ، فإذا ترك الخوار رفعوا رؤوسهم .

ولا يعترض هذا بأنه ملبس ، فكيف يكون لأنه قد أعد الله من يمحقه ، ويزيل أثره ، وهو موسى .

وبعد ، مأفوخ بالأوحظه من الكلام الخوار . ومثله كمثل سائر الثيران التي خلقها الله . ومَن يعبد هذا لِمَ لا يعبد سواه . وأيضا صانعه لم يدّع الربوبية بذلك . قيل : تأثير التربة في إحياء الموات كرامة لروح القدس ، إذا باشر حافر فرسه تربة ولاقت تلك التربة جمادا كان إن شاء الله حيوانا كما أنشأ عيسى عليه السلام من غير أب بالنفخ في الدرع ، وخلق خلقة العجل فتنة يضل بها الكافر ، ويثبت معها المؤمن بالقول الثابت . ومن عجب من خلقه فليعجب من خلق إبليس .

وقيل : خار مرة واحدة .

وقال وهب : كان يخور ولا يتحرك . والصحيح أنه كان لحما ودما وروحا يخور ويمشي وفيه الشعر بقدرة الله . وبه قال السدي . وعليه فقد استعار لفظ العجل للحيوان الذي خلقه الله من حلي القبط ، والجامع الشكل .

وروى أنه لما مضت ثلاثون ليلة قال السامري : إنما أخلفتم بالأجل وما أنتم فيه من أجل الحلي الحرام فهاتوه فأعطوه فصاغه .

وقيل : وقّت الله لموسى ثلاثين ، فلما أتمها بعشر قال السامري : بليتم بالزيادة لهذا الحلي فهاتوه فصاغه .

وروى أنه ناقق بعد الخروج من البحر .

(فَقَالُوا) السامري ومن افتتن به أول ما رآه : (هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ) وكانوا أحبوه حبا لم يحبوا شيئا مثله .

وقيل : القائلون : من فتن به أول ما رآه لمن لم يره ثم من رآه بعد لغيره .
(فَنَسِيَ) أي نسيه موسى ، أي هو موسى لكنه نسيه ، وذهب يطلبه عند الطور .

وقيل : النسيان هنا بمعنى الضلال عن الطريق، أى هذا الذى فى طلبه لكن ضل الطريق .

وقيل : قوله « فنسى » من كلام الله ، أى ترك السامرى ما كان عليه من التوحيد ، أو ما رآه من الآيات الدالة على الله كشق البحر .

وقيل : ترك ما كان عليه من إظهار التوحيد ، وهو المناسب لكونه منافقاً . وعليه فيحتمل أن يكون النسيان مقابل التذكر ، أى زال من حافظته ما كان عليه . من إظهار التوحيد ، فصرح بالشرك

(أَفَلَا يَرَوْنَ) أفلا يعلمون . (أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا) أن مخففة لوقوعها بعد يقين واسمها ضمير الشأن ، أو ضمير العجل محذوفاً ، أى أفلا يعلمون أنه لا يرد هو جوابا ولا يكلمهم . وقرئ بنصب يرجع على أن أنْ ناصبة للفعل وهو ضعيف ، لسبق اليقين .

قال الشيخ خالد : النصب لإجراء « يرى » مجرى الظن .

وأجاز الفراء وابن الأنبارى النصب بعد اليقين الصريح ، ومنعه المبرد مطلقا .

(وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) توبيخ بعبادة من لا يقدر أن يضرهم أو ينفعهم ، أو المراد لا يملك لهم دفع ضر ولا جلب نفع

(وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ) قبل رجوع موسى ، كما بقاسه حتى يرجع إلينا موسى ، أو قبل قول السامرى ، كأنه أول ما وقع عليه بصره ، حين طلع من الحفرة ، توهم أنهم يفتنون به ويعبدونه ، فبادر يحذرهم :

(يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ) بالعجل . الحصر واقع على الفتن ، أى ما أمر العجل إلا فتنة ، أو على « به » أى ما فتنتم عن التوحيد إلى الشرك إلا به ؛ لأنهم ولو صدر منهم شيء قبله لم يقع موقع العجل فى التعظيم وكثرة الأتباع ، وهو أولى لأن الغالب كون المقصور عليه بعد إنما هو المتأخر .

[illegible] (وإن ربكم الرحمن) لا العجل [illegible] (فاتبعوني) [illegible]
[illegible]

وتقليد؛ إلى الطور الذي وعدكم الله إياه (وأطيعوا أمري) في عبادة الله عز وجل، أو في الذهاب إلى الطور، أو في الثبات على الدين، وهو قريب من الأول.

[illegible] كما أحسن كلامه إلا أنهم قد أخطأوا الطريق ونقضوا عهد موسى عليه [illegible]

وعبر بالرحمن في [illegible] إشعارا بأنه جل وعلا كثير الرحمة فهو يقبل توبة من تاب ويقربه، وأتباعه؛ ثانيا بأنه عارف بالدلالة على الطريق الموصل للجنة، من حيث إنه نبي فلا يبقى علم اتباعه في الأصل وطاعته في الفروع، هكذا ظهر لي بفضل الله، وإني لعاجز.

(قالوا لن نبرح) أي نزال (عليه) على عبادة العجل وتقريب القربان إليه، متعلق بقوله (عاكفين) مقيمين (حتى يرجع إلينا موسى) أي نسمع قول موسى، فاعتزلهم هارون في الاثني عشر الذين لم يعبدوه. ولما رجع موسى في الصباح، وكانوا يرقصون حول العجل فقال للسبعين الذين معه: هذا صوت الفتنة؛ لأنه سبحانه أخبره أن قومه مفتونون، فعلم أنه صوت الفتنة، وظن أنه أخبره الله بتفصيل الفتنة، أو أخبره بعد رجوعه.

ولما رأى هارون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله وجره إليه غضبا لله وكان حديدا، مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب في كل شيء، شديد الغضب. فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله بعد ما رأوا الآيات العظام أن ألقى ألواح التوراة، وعنف بجر لحى أخيه كبير السن [illegible]، من رأسه ووجهه.

(قَالَ) موسى بعد رجوعه : (يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ) هو مفعول ثان لمنع ، أو بتقدير جار ، أى ما منعك عن الاتباع لى فى الغضب لله ؛ أو فى المقاتلة ، بأن تقاتلهم أنت ومن معك ، كما أقاتل من كفر ، أو عن الاتباع لى إلى الطور ، فيكون زجراً، إذ رأيتهم ضلوا بعبادة العجل .

(أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي) بالصلابة فى الدين والمحاماة عليه .

(قَالَ) هرون : (يَا ابْنَ أُمَّ) قياس الخط يابن أم ، أضافه للأم للاستعطاف ؛ فإن الأم أشد شفقة على الولد من الأب ؛ لأن ماءها من صدرها وما بين ثدييها وماءه من وراء ظهره ، وهو أخوه لأب وأم على الصحيح .

وقيل : هو أخوه لأمه ، ولذا أضافه للأم . والتحقيق أنه ولو كان أخاه لأمه ، فالتعبير بالأم استعطاف ؛ إذ يمكنه أن يقول : يا أخى .

وقيل : هو أخوه من الأب ، واعترض بالإضافة للأم .

والأصل أمى قلبت الكسرة فتحة والياء ألفا فحذفت الألف .

وقرئ بكسر الميم وحذف الياء ، وهى قراءة ابن عامر وأبى بكر وحمزة والكسائى .

(لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي) وقرئ بفتح اللام وهو لغة الحجاز .

(وَلَا بِرَأْسِي) بشعر رأسى ؛ فإنى لم أعمل موجب ذلك . وإنما فعلت ماظهر لى أنه صواب .

(إِنِّي خَشِيتُ) لو قاتلتهم بمن معى أو فارقت بعضهم ببعض (أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ) تحفظ وتراع (قَوْلِي) أمرى لك : إخلافك فى قومى ، وإصلاحك ، وحفظ الجماعة عن التفرق حتى أرجع .

وقال بعضهم : إنى خشيت لو أنكرت عليهم . ويرده أنه قد أنكر عليهم ، أوما يحل له أن لا ينكر وهو قادر على الإنكار .

(قَالَ) موسى (فَمَا خَطْبُكَ) ما شأنك الحامل لك على ما صنعت (يَا سَامِرِيُّ) ؟

والخطب : الأمر العظيم ، ويطلق على غيره ، وذلك إنكار ، وهو مصدر خطبت الشيء : طلبته . والشأن والأمر العظيم مطلوبان .

وعن بعض : معناه : ما طلبك ؟

قيل : الخطب : الأمر والشأن . ولعل الخطب تقتضي انتهاء ، لأن الخطاب يستعمل في المكان ، كذلك يقال .

والظاهر أن المراد ما توصلت به إلى خوار جسد ذهب ، أو إليه وإلى كونه لحا ودما ليناسب الجواب .

(قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ) يعني القبط وبني إسرائيل ، أي علمت ما لم يعلموه ، وفطنت لما لم يفطنوا له ، ونظرت ما لم ينظروا ، فهو من البصيرة أو من البصر .

وقرئ بصرت بفتح الصاد بما لم يبصروا به بكسرها وهو بأحد المعنيين .

وقرئ بكسر صاد بصرت وفتح صاد يبصر . وإن ضم هذا القارئ صاد يبصروا فعدول إلى مضارع بصر بالضم أو بالفتح ، وإن كسره فإلى مضارع بصر بالفتح .

وقرأ حمزة والكسائي تبصروا بالفوقية وضم الصاد على الخطاب لموسى وغيره وذلك أنه رأى حافر حيزوم وهو فرس جبريل كما وقع على موضع نبت النبات في الموضع فعلم أنه فرس الحياة لا يخالط أثره مواتا إلا حيي

وقيل : إنه رأى جبريل يمشي في الأرض ، وعلم أنه روحاني لا يمس أثره شيئا إلا حيي . وذلك كله حين جاء في أمر البحر . وإنما عرفه لما سمع أنه رباه .

وروى أنه كان يجعل كف نفسه فى فيه ، فيرضع منه اللبن والعسل ، أو لما رأى ذلك علمه جبريل ، ولما أثرت الحياة أثر قدمه أو حافر فرسه فهلتن .

(فَقَبَضْتُ قَبْضَةً) فعلة للمرة بمعنى اسم مفعول بدليل فنبذتها؟ فإن القبض لا ينبذ ، وإنما ينبذ المقبوض .

وقرئ قبصة بالصاد والأول للأخذ بجميع الكف ، والثانى للأخذ بأطراف الأصابع ، كالخضم : بجميع الفم ، والقضم : بمقدمه

(مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ) أى من أثر حافر فرس الرسول ، بتقدير مضافين ، قاله ابن هشام .

وقرأ ابن مسعود : من أثر فرس الرسول . والظاهر أن لا يقدر الحافر كما تقول: ضربت زيداً ، ولا يعنى تقدير اليد ، ولا تجعله بدل ، ولم يقدر مضمومة شيئاً .

وقال : إنه قبض من أثر الرسول نفسه ، وقراءة ابن مسعود ترده

والرسول : جبريل .

وعبّر بالرسول إعلاماً بأنه قبض من أثره حين أرسل إلى موسى ليمشى قدام قوم فرعون يتوطهم ، وخلف قوم موسى يحرضهم على المشى ، أو حين أرسل إليه ليذهب به إلى الطور ، وعرفه لأنه رباه .

وقيل : لأنه لم يعرف أنه جبريل ، ولكن أعلم أنه رسول من الله .

(فَنَبَذْتُهَا) مع الحلى وأذبته ، أو نبذتها فى فم العجل المصوغ منه ، أو فى الحلى المذاب ، فكان العجل يخور ، وكان لما قبضها جعلها فى عمامته .

(وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ) يذت وقيل من السؤال (لِي نَفْسِي) مع أن قومك قد طلبوا منك إلهاً .

(قَالَ) موسى : (فَاذْهَبْ) يا سامرى من بيننا (فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ) فى مدة حياتك عقوبة على ما فعلت (أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ) مصدر ماس أى

لا يمسني أحد ولا أمسه لئلا تصيبني الحمى . وكان إذا مسه أحد أو مس أحداً ولو بلا عمد أصابتهما الحمى جميعاً .

وروى أنه كان يقرض بدنه بالمقراض إذا مسه أحد أو مس أحداً . وكان ذلك طويلا ، وعيداً ، وحرم على الناس أن يكلموه أو يبايعوه أو يلاقوه ملاقاة ما . ولا عقوبة أعظم من ذلك . وكذلك جنوده سامرة ، وذلك باق فيهم إلى اليوم .

قال الشيخ هود : يقولون إلى الآن بأرض الشام : لا مساس .

وقرئ « لا مساسِ » بكسر السين غير منون مبنياً علماً لجنس المس كفجارِ .

(وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا) في الآخرة زيادة على عقوبة الدنيا . والموعد : مصدر أي وعداً ، أو اسم زمان ، وهو يوم القيامة ، أو اسم مكان وهو جهنم .

(لَنْ تُخْلَفَهُ) لن يخلفك الله إياه ، بل لا بد أن يحضره إليك ، والنائب مستتر ، والهاء مفعول آخر . وقراءة ابن كثير وأبي عمرو بكسر اللام . قاله أبو عمرو الداني .

وقال القاضي : هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وبصري آخر ، أي لن تغيب عنه ، ولا بد أن تلقاه ، من أخلف بمعنى خلف ، أو من أخلف العدى لا تنجز ، والأول مخذوف ، أي لن تخلف الواعد إياه ، والاقتصار على الثاني لأنه الغرض ، أو من أخلف الوعد ، إذا وجد فيه خلفا .

وقرأ ابن مسعود بالنون وكسر اللام ، حكاية لقول الله جل ثناؤه على حد « لأهب لك غلاماً زكياً » أو النون لموسى ؛ لأن الوعد ولو كان بيد الله لكن موسى عليه السلام قد لابسه ، وكان بإبدائه ، ولا بد من حضوره مع السامري فيه .

(وانظر إلى إلهك) نظر تثبت وتيقن ؛ فإنك تراه بعد الساعة فانياً لا أثر له كأن لم يكن ، أو نظر وداع ولا ضير بذلك الأمر ؛ لأن المراد إعلامه باضمحلاله .

(الذي ظلت) دمت أو صرت ، وأصله فعل الشيء نهاراً فقط وأصله ظللت بكسر اللام الأولى ، حذفت تخفيفا ، وخصت بالحذف لأنها تدغم .

وقيل : حذفت الثانية لحصول التكرار بها

وقرئ بكسر الظاء نقلا من اللام المحذوفة ، وهو لغة تميم ، والأول لغة الحجاز .

وزعم ابن جني أن الأول لغة الحجاز وتركه لغة تميم ، قاله الشيخ خالد .

(عليه عاكفا) مقيما على عبادته (لنحرقنه) بالنار كما يدل عليه قراءة لنحرقنه ، بضم النون وإسكان الحاء وكسر الراء .

وقرأ ابن مسعود لنذبحنه ولنحرقنه ، بالضم فالإسكان فالكسر .

وأجاز الفارسي في قراءة التشديد أن تكون من حرقه بفتح الراء بمعنى برده بالمبرد ، وشدد للمبالغة ، ويدل له قراءة ابن عباس رضي الله عنهما وعلي لنحرقنه بضم الراء ، أي لنبردنه بالمبرد .

(ثم لننسفنه) لنذرينه (في اليم) البحر ، أو الماء الغمر (نسفا) أو لنذرينه في هواء اليم

وقرئ بضم السين . والظاهر أنه إن لم ينقلب لحما ودما لا يؤثر فيه الإحراق فيصير رماداً ينسف .

فالتحقيق إنما هو التبريد بالمبرد ، اللهم إلا أن يكون الإحراق بالنار لمجرد الإهانة والإذابة . والنسف مستعار لإلقائه في اليم مذابا ، أو يفعل به ما يكون

به رماداً ثم أنه صيره ذا دم ولحم، أو بمعنى ذم ولحم كما هو في قراءة ابن مسعود، وصرح به الكلبي، فذبحه وأحرقه، وبرّد عظامه. كذا قيل. وفيه أن الظاهر قبل الإحراق حتى صير رمادا، فلا يصح توجيهها. والأظهر اقتصر من تفاسير مقبول مبني على الحق المتلاشي بمعنى المبرد بالمبرد. قيل: تذبحه متوقف على مسائل بعضهم.

قال مكي: إن موسى عليه السلام كان مع السبعين في المناجاة، وحينئذ وقع أمر العجل، وإن الله أعلم موسى بذلك، فكتمه موسى عنهم، وجاء بهم حتى سمعوا لغط بني إسرائيل حول العجل، فحينئذ أعلمهم.

وقيل: هذا ضعيف، والجمهور على خلافه، وإنما تعجل موسى وحده، فوقع أمر العجل، ثم جاء موسى، وصنع ما صنع بالعجل، ثم خرج بالسبعين على معنى الشفاعة في بني إسرائيل، وأراهم يطلبهم على المناجاة، فكان لموسى نهضتان.

(إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) تمييز محول عن الفاعل.

وقرأ طلحة: الله الذى لا إله إلا هو الرحمن رب العرش.

وقرأ مجاهد وقتادة بتشديد السين مفتوحة، فيكون كل مفعولا ثانيا، وعلما مفعولا أول.

وذلك أن علما ولو كان تمييزا لكنه فاعل في المعنى، فلما شدد الفعل صار مفعولا كما يصير الفاعل، بإدخال همزة التعدية مفعولا، لما أزال موسى سبب الفتنة، وأبطل مكرهم، إلى بيان الدين الحق، وخاطب بنى إسرائيل أو الكل؛ فإن مستحق العبادة من لا يدانيه أحد، ولا يدانيه في كمال العلم والقدرة.

ومن أحاط علما بكل ما يمكن علمه، من كل ما وقع، أو يقع، فهو عالم بالمطيع والعاصي فيجازيهما، لا عجل يصاغ ويحرق، ويصح ضرب المثل به في الغباوة.

(كَذَلِكَ) كما قصصنا عليك وأعلم هذه القصة . (نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ) أخبار

(مَا قَدْ سَبَقَ) من الأمم ، تكثيراً لبيناتك ، وزيادة في معجزاتك ، وليعتبرها المستبصرون من أمتك ، وقد علمت أن الإشارة إلى ذكر قصة موسى مع السامري إما واقعة على أسلوب حسن جميل .

ويصح أن تكون الإشارة إلى ذكر تلك القصة وقصته مع فرعون ، ومعناها : وإنه على جميع ما دون في الأمم ، يقص عليه ما يكون عبرة من جملة الأخبار التي هي من جملة ما وقع فيهم ومنهم . ومفعول نقص محذوف موصوف بالجار والمجرور ، أي شيئاً من أنبائه ، أو أقيم الجار والمجرور مقام الموصوف ، حتى إنه لا يذكر .

وقيل : من التبعيضية اسم ، بمعنى مفعول مضاف ، وهكذا في مثل ذلك .

(وَقَدْ آتَيْنَاكَ) أوصلنا إليك . (مِنْ لَدُنَّا) من عندنا . (ذِكْراً) وهو القرآن ، والتنكير للتعظيم ، وعبّر عنه بالذكر لأن فيها حق الله مشتمل على ما يوجب الذكر والاعتبار ، من قصة وغيرها ، لمن لم يعرض عنه .

وقيل : الذكر : الثناء الجميل .

دخل الحسن يوماً على يزيد بن معاوية ، وجعل يزيد يفتخر والحسن ساكت ، فابتدأ المؤذن الأذان . ولما قال : أشهد أن محمداً رسول الله . قال الحسن : يا يزيد ألك جد مثل هذا ؟ فخجل يزيد ولم يرد جواباً .

وفي ذلك يقول علي بن محمد بن جعفر :

لقد فاخرتنا من قريش عصابة ٭ بمد جدود وامتداد أصابع

فلما تنازعنا الفخار قضى لنا ٭ عليهم بما نهوى نداء الصوامع

ترانا سكوتاً والشهود بفضلنا ٭ عليهم جهير الصوت من كل جامع

(من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا) حملا ثقيلا من الذنوب.

وقيل : عقوبة كالحمل الثقيل .

وقيل : ذنبا عظيما ، أو الوزر : الذنب أي مجموع الذنب ، أو حمل الوزر : الإثم ، وجملة الشرط والجواب نعت لذكر ، والرابط هاء عنه ؛ فإنها عائدة للذكر بمعنى القرآن أو النبأ .

وقيل : عائدة لما ، ليست الجملة نعتا .

وقرئ بضم الياء وفتح الحاء وتشديد الميم مبالغة .

(خالدين فيه) الجملة نظرا لمعنى من والإفراد في أعرض نظرا للفظه . وهو حال مقدرة إن لوحظ معنى الدوام ، وإن لوحظ معنى الوصول فليست مقدرة : (فيه) أي في الوزر بالوجوه المذكورة ، أو في جزائه .

(وساء لهم يوم القيامة حملا) فاعل ساء ضمير يفسره التمييز الذي هو قوله حملا . والمخصوص بالذم محذوف ، أي وزرهم ، أو فاعل ساء ضمير وزرا . كقولك : زيد بئس رجلا ؛ فإن في بئس ضمير زيد .

وقيل : لا يجوز هذا ، وإن ساء وبئس ونعم ونحوهن لا يرفعن ضميرا معينا . ولا يصح أن يكون بمعنى أحزن لفساد المعنى ؛ لأن المعنى حينئذ أحزن لهم الوزر حملا ، ولو صح هذا لكانت اللام متعلقة بساء ، ولا يشكل إبهامها كما قال القاضي ولكن كيف يصح جعل الحمل مفعولا لساء بمعنى أحزن ، من حيث المعنى ؛ فإن الحمل لا يحزن . نعم يصح كون الوزر بمعنى الذنب ، والحمل بمعنى الجزاء ، وساء بمعنى جعل سيئا ، أي جعل ذنبهم جزاءهم سيئا .

والحق المعنى الأول ، واللام فيه للبيان ، متعلقة بشتان ، أو بمحذوف حال من حلا ، ويوم معلق بساء . ولا ضير بالتعلق بفعل الإنشاء ؛ لأن غاية المعنى عظم إثمهم يوم القيامة حملا .

(يَوْمَ) بدل من يوم (يُنفَخُ فِي الصُّورِ) القرن ، وفي الصور نائب الفاعل الذي هو إسرافيل . والمراد النفخة الثانية ، بناء على أن النفخات ثنتان ، والثالثة إن قلنا : ثلاث ، ينفخ فيه فيرجع كل روح إلى جسده .

وقيل : الصور جمع صورة كـكلمة وكلم ، ويناسبه قراءة بعضهم في الصُّوَر ، بضم الصاد وفتح الواو ، جمع صُورة .

وقرئ ينفخ بفتح الياء ، فاعله ضمير الله ، أو ضمير إسرافيل ، وإن لم يتقدم ذكره ؛ لاشتهار أنه النافخ .

وإن قلت : كيف يصح إسناد النفخ إلى الله تعالى ؟

قلت : على التجوز ؛ لأنه الآمر به ، الجاري هو على توفيقه ، وقراءة أبي عمرو ننفخ ، بالنون وضم الفاء تدل له ، وفيها تعظيم الله ، وتعظيم النفخ . وأيضا لكرامة إسرافيل على الله ، وقرب المنزلة صح إسناد ما يفعله إلى الله سبحانه .

(وَنَحْشُرُ) أي نجمع . وقرئ بالياء ، فالضمير لله جل وعلا أو لإسرافيل عليه السلام .

وقرأ الحسن بالياء والبناء للمفعول ، ورفع ما بعده (الْمُجْرِمِينَ) المشركين (يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) زرق العيون ، جمع أزرق ، وصفوا لذلك ؛ لأن الزرقة أقبح ألوان العيون ، وأبغضها إلى العرب ؛ لأن الروم ـ أعداءهم الذين كانوا أعدى أعدائهم ، وهم زُرق ولذلك قالوا في صفة العدو : أسود الكبد ، أصهب السِّبال ، أزرق العين .

[illegible] الأزرق [illegible] كلون [illegible]

وقيل: المراد بالزرق العمي؛ لأن [illegible] أزرق [illegible]. وقيل: [illegible]

ومن بعض [illegible] يظهرون [illegible] الأبدان، أي [illegible] بعد ذلك.

(يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ) يقول بعض لبعض بالإسرار [illegible] صدورهم من

الرعب والهول، والخفت: إخفاء الصوت [illegible]: (إن) أي: ما (لبثتم) [illegible] في

الدنيا أو في القبر (إلا عشرا) أي: ليالي [illegible] عشر [illegible] أو عشر

ليال بدون أيام.

وقيل: [illegible]

ويجوز أن يراد بالعشر الأيام، وحذفت التاء [illegible] المعدود.

ويناسب هذا كل المناسبة ذكر اليوم بعد.

وإنما استقصروا مدة لبثهم [illegible].

قال عبد الله بن [illegible]: [illegible] بالأشياء [illegible]

[illegible] الآخرة؛ [illegible]

[illegible] بأيام [illegible] من الشدائد، [illegible]

تذكرهم أيام النعمة، فيتأسفون عليها، ويصفونها بالقصر؛ لأن أيام [illegible]

[illegible] وتذكرهم [illegible]

وقيل: المراد اللبث فيما بين النفختين: نفخة الموت، ونفخة البعث، لأنهم

لا يعذبون في ذلك [illegible] بعد ما كانوا يعذبون في قبورهم، على القول الصحيح.

وذلك مقدار أربعين سنة.

واستدل بعضهم على أن المراد اللبث في القبر [illegible] من حين الموت إلى البعث

بقوله تعالى: « يوم تقوم الساعة » الآيات.

وأشار الله جل وعلا إلى أن قائل ذلك لم يبلغوا حد العقلاء، وأنها أقل مما قالوا بقوله: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ) في مدة اللبث.

(إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ) أعدلهم وأفضلهم (طَرِيقَةً) أعدهم رأيا، أو عملا: (إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا) بأطلعه أو دونها.

وقيل: لم يقولوا ذلك احتقارا، بل نسوا مقدار لبثهم لشدة ما دهمهم، ويوقف كونه لو يقولون حالة المجرمين، أي نحن أعلم بما يقولونه بعضهم، فبعض قال: لبثنا عشرا، وبعض قال: يوما.

وسأل جماعة من المسلمين النبي ﷺ عن مآل الجبال يوم القيامة، فأنزل الله عز وجل: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ) أي عن مآلها. والمضارع بمعنى الماضي، أو مستقبل؛ فإن القرآن نزل قبل ذلك السؤال.

(فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا) أي يفرقها بالريح. يستعمل الخاص في العام؛ فإن النسف: النفخ على الشيء أو هبوب الريح عليه فيطير، فاستعمله في مجرد التفريق حتى يحتاج بعد ذلك إلى البيان بقوله بالريح، أو أسند النسف إليه مع أنه للريح؛ لأنه أمرها ولو نسب خصوصه ومالك أمرها، أو يقدر مضاف، أي ينسفها أو تنسفها ريح ربي.

والريح يذكر ويؤنث، وإن أنث بالتاء في أول المضارع مثلا أبدلت بالياء، إذا حذف وأقيم عنه غير المؤنث.

وعن ابن عباس: سأل رجل من ثقيف رسول الله ﷺ: كيف تكون الجبال يوم القيامة؟ فأنزل الله سبحانه الآية. وعليه إنما عبّر بالجماعة لأن السائل من جماعة فكأنما سألوه، والواو للجماعة معتبر فيها الحقيقة لا الإفراد.

وعن بعضهم: النسف القلع من الأصل.

وعن بعضهم : يجعلها كالرمل ، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها . فهو يصح أن يقول : أسند النسف إلى نفسه لأنه جعلها كالرمل بسبب النسف .

وقيل : سأله جماعة من المشركين على لسان رجل منهم فأنزلت .

﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ أي الجبال ديارها حتى المواضع التي كانت فيها ، بحذف المضاف ، والضمير للأرض وإن لم يتقدم ذكرها لدلالة الجبال عليها من جهة أنها على الأرض كقوله عز وعلا : « ما ترك على ظهرها من دابة » .

﴿ قَاعًا ﴾ حال ... ﴿ صَفْصَفًا ﴾ ... لأنه منبسط وخال . أو مفعول ثان متعدد .

﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ الجملة حال ثالثة ، أو حال من ضمير قاعا أو صفصفا ، أو نعت ثان لقاعا ، أو مفعول ثان متعدد .

وإنما صح ذلك لأن المراد بالقاع والصفصف ما لا يرى فيه عوج ولا أمت كله مقار الجبال وهي أرضها ولا مانع من أن يقال : إن قوله قاعا يكفي لما بعده فما بعده تأكيد .

وقيل : الجملة مستأنفة لتبيين ما قبلها .

وقيل : يدخل الله الجبال في الأرض حتى يستوي أعلاها مع الأرض .

والعوج : الاعوجاج . وفسره بعضهم بالانخفاض . والأمت : الارتفاع .

وعن الحسن : قاع البحر ورأس الجبل سواء ، كأنه يقول : إن الله يدخل الجبال في الأرض ، ويخفض من الأرض ما علا ، أو يعلي ما انخفض .

وقيل الأمت : العوج يسير .

وعن ابن عباس : العوج : الوادي ، والأمت : ما يرتفع من الأرض . وإنما استعمل العوج بالكسر فيما هو عين وهو الأرض ، وحقه الفتح إشارة إلى نفي الاعوجاج على وجه بليغ .

وذلك أنك لو سويت أنت وحذاق الناس أرضاً بالنظر على قدر ما تمكنكم ثم صنعتها على مهندس معتبر على قياس هندسي لأراك فيها عوجاً لا يدرك بحاسة البصر ، فنفى الله هذا العوج الدقيق ، وذلك العوج الذي لم يدرك إلا بقياس الهندسة لحق بالمعاني .

وقوله : يستعمل العوج بالكسر في الأعيان والمعاني فانظره في سورة الكهف .

وقوله : « ويسألونك – إلى – أمتا » ينفع الدماميل والجراحة والطحال وكل ما يطلع على الجسم ، يكتب في إناء نظيف طاهر بمداد فارسي ويمحى بماء ينضج ويمسح به على الجسد فإنه يبرئ بإذن الله تعالى .

(يَوْمَئِذٍ) يوم إذ نسفنا الجبال (يَتَّبِعُونَ) أى الناس بعد قيامهم من قبورهم ومن حيث كانوا .

(الدَّاعِيَ) إسرافيل يقف على صخرة بيت المقدس أو بين السما والأرض هنالك ويدعو في الصور : أيتها العظام البالية ، والجلود المتمزقة ، واللحوم المتفرقة هلموا إلى عرض الرحمن فيجيء الناس من كل جهة إلى جهة الصوت فهذا هو اتباع الداعي . ويوم متعلق بيتبعون .

قيل : أو بدل من يوم القيامة بعد بدل وليس بشيء لأنه على الإبدال ينقطع عما بعده فلا تفيد الآية أن الاتباع يكون يومئذ (لَا عِوَجَ لَهُ) أى لا عوج للداعي ، أتبعه من المدعوين لا يقدر أن يميل عنه إلى جهة ، ولا يقدر أن يقف في المكان الذي بعث منه أو غيره .

وقيل: الداعي للاتباع لا يعدل عنه أحد ولا ينحرف [illegible].

وقيل: الداعي لا يختلف إليه فيقولون إلى الاتباع ما أمرنا به لا يدعونا.

(وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ) خضعت لهيبته.

وقيل: خشعت أصحاب الأصوات (فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا) صوتا خفيا.

وقيل: خشوع الأصوات بسكونها وعدمها. والهمس: صوت أقدامهم في المشي إلى المحشر كصوت أخفاف الإبل في مشيها.

وقال ابن عباس: الهمس: تحريك الشفاه من غير نطق.

وروي عنه أنه وطء الأقدام. وقراءة أبي: لا ينطقون إلا همسا، ظاهر في أنهم ينطقون.

(يَوْمَئِذٍ) متعلق بينفع؛ إذ لا صدر للا النافية على الصحيح إذا لم تكن من باب كان أو إن (لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ) من مفعول لتنفع والمستثنى منه محذوف وهو المفعول في الأصل وهو عام، أي لا تنفع الشفاعة أحداً إلا من أذن له الرحمن في أن يشفع له. وأما غيره فمن رام الشفاعة فيه لم تقبل منه.

فهذا نبينا ﷺ يشفع في أناس فيقال له: بدلوا وغيروا فلا شفاعة لهم ونحوه كثير. واللام للتعدية، ومَن واقع على المشفوع له. والإذن بمعنى الأمر.

ويجوز أن يكون من بدلا من الشفاعة أو منصوبا على الاستثناء منها بتقدير مضاف، أي إلا شفاعة من أذن له الرحمن، فمن واقعة على الشافع وأذن بمعنى أمر أو سمع واللام للتعدية أو للتعليل أي إلا الشفاعة من أمره الله بالشفاعة لكرامته عنده بأن يشفع أو من سمع الله قوله في الشفاعة لكرامته عنده. ومفعول تنفع محذوف وليس الاستثناء منه أو لا يقدر له مفعول ومتعلق أذن محذوف كما قررته. وإن قدر مفعول لها أي إلا شفاعة من كرم عليه في الشفاعة.

(وَرَضِيَ لَهُ) أى لأجله الذى قصده الشفاعة ، فاللام للتعدية أو التعليل .

وأجيز كون اللامين للتعليل مع إيقاع هذين والهاء بين المشفوع له .

ويجوز كون له حالا من قولا ولو لحقنا القول قول الشافع فى الشفاعة ورجعنا الهاء للمشفوع له ؛ لأن قول الشافع منفعة للمشفوع له .

(قَوْلًا) فى شأن الشفاعة .

وقيل : القول : قول المشفوع له وهو قول : لا إله إلا الله محمد رسول الله وما جاء به حق فمن رضى منه هذا القول بأن ماتهم بالعمل الصالح قبلت فيه الشفاعة .

ويجوز أن يراد قول الشافع وأنه لا تقبل إلا شفاعة من يقول ذلك قولا مرضيا مقبولا منه .

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) ما تقدمهم من الأحوال

(وَمَا خَلْفَهُمْ) ما بعدهم مما هو مستقبل قيل : ما بين أيديهم من أمر الآخرة وما خلفهم من أمر الدنيا وهو أولى والضمير لمن فى الحشر . وقيل : الشافعين

(وَلَا يُحِيطُونَ) أى لا يحيط علمهم فعلما بعد هذا تمييز منقول عن الفاعلية .

(بِهِ) أى بالله فإنه لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء فكيف يعلمه أحد أو الضمير له لكن على حذف مضاف أى معلوماته .

وقيل : لما الأولى بعد الثانية لتأويلهما بمفرد أى يحيطون بمجموع ذلك أو بما ذكر أو الثانية قول : أو الأولى وذلك أنهم لم يعلموا ذلك كله بل بعضه وهذا البعض لم يعلموا تفصيله .

(بِعِنَتِ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ) ذلت وخضعت الوجوه وجوه الخلق أجمعين وأل للاستغراق ، أو وجوه المجرمين المذكورين فى قوله : « ونحشر المجرمين » قال

خضوعًا فإن [illegible] أكرم يدل على وجوههم [illegible] أو الاستغراق [illegible] أو بدلا من
المضاف إليه أى وجوههم [illegible]
[illegible] ويدل [illegible] وقالوا [illegible] بعد [illegible] كما [illegible] به
[illegible]

واختار لفظة عنت لما تدل له من كونهم [illegible] المالك القهار .

[illegible] قوله ﷺ [illegible] من حوالى بين أيديكم [illegible] القرآن [illegible]
[illegible] أى [illegible] أسعد [illegible]
[illegible]
[illegible] (الْحَيِّ) [illegible] (الْقَيُّومِ) [illegible] أو بالواو
[illegible] على كل [illegible] فيها [illegible] في [illegible]

(وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) خصه بالذكر لعظمه [illegible]
[illegible] والمراد بالظلم [illegible] أو النفاق [illegible] (ظُلْمًا) [illegible]
[illegible] ابن عباس : [illegible] الشرك [illegible]
نفسه أو [illegible] لاسم الخاص [illegible]
وحمل الظلم : [illegible] والجملة [illegible]

[illegible] (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ) [illegible] أو
مع النفل .

(وَهُوَ مُؤْمِنٌ) [illegible] تارك للأعمال [illegible] ، والجملة حال من ضمير يعمل
[illegible] لا يقبل [illegible]

(فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) [illegible] ، وعن ابن
عباس [illegible] الظلم [illegible] في [illegible] والمضمر [illegible]

وقيل : الظلم منع الثواب ، والهضم النقص منه ، ويصح أن يراد لا يخاف جزاء ظلم ولا جزاء هضم ؛ لأنه لم يظلم غيره ولم يهضم حقه .

وقرأ ابن كثير فلا يَخَفْ بالجزم ، إما على أن الفاء زائدة ولا ناهية ، وإما على أن الفاء رابطة ولا ناهية ، نهاه عن الخوف فى الآخرة إذا كان فيها ، وهذا على سبيل التأكيد فى الاطمئنان .

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ متعلق بأنزلناه أو نعت لمصدره محذوف ، والكاف اسم بمعنى مثل ، نعت لمصدر محذوف ، أو الكاف حرف متعلق بمحذوف ، أى إنزالا ثابتا كذلك الإنزال ، أو مثل إنزال هذه الآيات المتضمنة للوعيد ، أو إنزالا مثل ذلك ، وقد يقال إن المعطوف عليه مقدر ، ولم يصح كون الكلام كذلك وحده ، كما يوهمه كلام القاضى ، والمعطوف عليه جملة بمعنى ، ولكن مراد القاضى ما ذكرت والله أعلم .

(أَنزَلْنَاهُ) أى القرآن ، دل عليه لفظ الإنزال المعطوف عليه أيضا قوله : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ إذ لو كان الضمير لغير القرآن لم يقل قرآنا عربيا ؛ لأن غير القرآن لا يصح فيه أن يقال : أنزلناه قرآنا .

وإن قلت : إذا كان الضمير للقرآن فما فائدة قوله قرآنا ؟

قلت : الفائدة فى وصفه بعربيا ، فصح كونه حالا مع أنه جامد وجعل التأويل بمقروء .

وإن قلت : فهلا قيل : أنزلناه عربيا ؟

قلت : صرح بقرآن ليدل على مرجع الضمير ، فيكون فيه فائدة الإبهام ثم التفسير ، وفى التصريح به أيضا بلاغة ليست فى عدم ذكره .

والمراد أنزلناه قرآنا بلسان العرب ليفهموه ويقفوا على إعجازه ، كرر المجيد

وتكريرهم لم تدع عن المعاصي كما قال : (وَصَرَّفْنَا فِيهِ) كررنا وفصلنا من إرسل كذا فله أو عليه كذا .

(مِنَ الْوَعِيدِ) شيئا منه .

(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) الشرك وما يوجب سخطنا . والترجي منصرف إلى سيدنا محمد ﷺ ومن معه ، فإن في نزول الآيات وما يطمعون به في إيمان المشركين وارتداع الطائفين .

(أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا) أي يحدث القرآن لهم عظة عن تقدم يسمعون بها ، أو تذكرا واعتبارا ، فيثبطهم عن الشرك والمعاصي ، فيخرجون منها إلى الإيمان والتقوى .

ولما كانوا يتقون فالمراد رسوخ التقوى حتى تكون ملكة ولذلك لم يكتف بأحد الكلامين عن الآخر .

وقالت فرقة : معنى إحداث الذكر إحداث الشرف والثناء عليهم بالإيمان به ، والذكر يمنع عن المعاصي فتكون التقوى ملكة . ولما ذكرت أسند التقوى إليهم والإحداث للقرآن . والذكر يطلق أيضا على الطاعة والعبادة .

وقرئ تحدث بالتاء خطابا لسيدنا محمد ﷺ .

وقرئ بالنون وقرئ بالياء وإسكان الثاء تخفيفا كما قرئ وما يشعركم بإسكان الراء . (فَتَعَالَى اللَّهُ) عظم شأنه ذاتا وصفة وفعلا وقولا عما يقول المشركون من التشبيه أو الإنكار ولا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء في ملكه .

(الْمَلِكُ) النافذ أمره ونهيه الحقيق بأن يرجى وعده ويخشى وعيده .

(الْحَقُّ) في ملكوته مستحق الملك لذاته ، أو الحق : الثابت في ذاته وصفاته .

قيل : وصف نفسه بالملك الحق لأن ملكه لا يزول ولا يعفو وليس بمستفاد من قبل الغير ، ولا غيره أحق له أو أولى به منه . وفي الآية تعظيم الحق من هو كذلك .

(وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ) لا تعجل بقراءة القرآن إذا كان جبريل يلقنك إياه حتى يتم تلقينه . وكان يخاف فانة النسيان وعجلته سبب نزول الآية وذلك استطراد بعد ذكر الإنزال لقدر تبيين أن القرآن يطلق على الكل وعلى بعضه ولكن لا يطلق على البعض إلا إن كان البعض له أو أكثر .

وقيل : ثلاثا أو أكثر وأما أقل فلا إلا مجازا .

وقيل : الوحي هنا بمعنى البيان ، أي زال البيان أي لا تعجل بتبليغ القرآن ما كان مجملا من قبل ولا بقراءته حتى يأتيك بيانه .

ومعنى يقضى يوصل . وقرئ حتى نقضى إليك وحيه ، بالنون ونصب الوحي .

وزعم بعضهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله » .

وروى أنها نزلت بسبب امرأة جاءت إلى النبي ﷺ تشكو إليه زوجها أنه ضربها فقال له النبي ﷺ : القصاص . فنزل : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه » .

(وَقُلْ رَبِّ) يا رب (زِدْنِي عِلْمًا) ونزل : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله » وكان بعد ذلك يقول ويقول : رب زدني علما وكان ابن مسعود إذا قرأ ذلك قال : اللهم رب زدني علما .

وعنونمضيهم في المعنى، سل ربك زيادة العلم بدل الاستعجال ؛ فإن ما أوحى إليك تناله لا محالة.

وفي الآية تواضع بأنه لا علم له إلا ما علمه الله أو يعلمه الله وتعالى، وشكر بأنه معدى علما لطيفا جاءني منك بفضلك فزدني علما إليه، فإنه لك في كل شيء علما وحكمة وفي ذلك استجلاب جزيل وأدب جميل.

ويروى أن الله سبحانه وتعالى ما أمر رسوله بطلب الزيادة إلا في العلم.

وقيل : المعنى زدني ربي زدني علما بالقرآن . فكلما نزل عليه شيء منه زاد به علما.

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ) أى أنبهنا وأوصلنا إليه أن لا يقرب الشجرة ولا يأكل منها، يقال : تقدم السلطان إلى زيد وأوعز إليه وعزم عليه، وعهد إليه إذا أمره وأوصاه والواو للاستئناف واللام في جواب قسم محذوف وحرف القسم يقدر بغير الواو وقيل لئلا يجتمع واوان ، ويجوز تقديرها كما تقول بعد كلام : ووالله.

وقيل : الواو عاطفة على صرفنا فيه من الوعيد ؛ لأن القسم ولو كان إنشاء لكن الغرض جوابه وما هو إلا تأكيد لجوابه ، وجوابه هنا إخبار . وأجاز كثير عطف الإنشاء على الإخبار والعكس.

وقيل : اللام للابتداء.

وقيل : زائدة للتأكيد ، وهكذا في مثل ذلك.

(مِنْ قَبْلُ) من قبل هذا الزمان ، أو من قبل هؤلاء الذين نقضوا عهدى وتركوا الإيمان بى ، وهم المذكورون بقوله : « لعلهم يتقون » أو من قبل أكله من الشجرة.

(فَنَسِيَ) ترك ما عهدنا إليه من أنه لا يأكل منها ، أو لم يعتن بالعهد الاعتناء الصادق حتى زال من حافظته وقال عياض : نسي عداوة إبليس والعهد.

وقيل : لم يقصد المخالفة بل اغتر بحلفه أي إبليس .

وقيل : ناولته من الشجرة حواء ولم يعلم أن ما ناولته من الشجرة المنهي عنها فالضعيف من ترك التحفظ .

وقيل : نسي ترك لأنه توهم أن النهي نهي تنزيه لا نهي تحريم . وفي ذلك إشارة إلى أن أساس بني آدم العصيان وعرقهم راسخ في النسيان كأنه قال : قد أوحدنا إليهم على الأكل منها من قبل أن توعدهم على المعاصي والشرك فخالف إلى ما نهي عنه بالترك أو بالخطأ .

وقرئ فنسّي بالبناء للمفعول وتشديد السين أي حمله الشيطان على الخطأ أو الترك .

(وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) من الوجود الذي هو ضد العدم فله مفعول واحد وهو عزما . وأما قوله فمتعلق به ، أو حال من عزما ولو نكرة لتقدم له عليه ولتقدم النفي أو من الوجود الذي بمعنى العلم فله مفعول ثان وعزما مفعول أول .

والعزم : الثبات على الأمر والتصلب فيه ولو كان في ذلك الوقت إثبات وتصلب لم يزله الشيطان وبعد ما جرب الأمور وذاق حلوها ومرها تصلب وثبت كما قال ﷺ : لو وزنت أحلام بني آدم بحلم آدم لرجح حلمه

وفي رواية : وقد قال سبحانه وتعالى : « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » وعليها فالحديث في وجهة الخليقة ، أي أن الإنسان بالغاً ما بلغ قد يطفئ الشيطان نور عقله ويغيره إلا الموفق عزماً على معصية ولكنه أخطأ .

(وَإِذْ) مفعول لمحذوف أي اذكر .

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا) [illegible] إبليس [illegible]
[illegible]

ونسب بعض أصحابنا من قال ذلك للشرك وليس بشيء ، لأنه تأويل ولأنه
[illegible]
لأنه مع الملائكة [illegible]

[illegible]

(لِآدَمَ) أي لخالق آدم ، أو السجود لآدم اعتراف بفضله ، أو سجود
إلى جهة آدم كالكعبة .

وقيل : المعنى اذكر حاله في ذلك الوقت ليتبين لك أنه نسي ولم يثبت
ويصلب .

(فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) التحقيق أن الاستثناء متصل ؛ لأن إبليس ولو
كان جنياً [illegible] فقد جعل من الملائكة تماماً ، وهو أبو الجان . وإنما صح أن
يقال له : جني ، ومن الجن ؛ لأن أبا القبيلة منهم . وذلك أنهم يعبرون بالأب
جملة . فيقال للأب : هو من قبيلة [illegible] إليها [illegible] أن
يقبل إلى المجلس عظيم [illegible] من الجالس من الأطراف [illegible] وكان منهم رجل
[illegible] فإنه [illegible] ويقال له : [illegible] فلان من أنه
[illegible] بأنه ليس من أهل الفضل ولو كان من أهله
لعرف لآدم فضله إنما يعرف أهل الفضل ذووه .

(أَبَى) كره أن يسجد ثم يسجد ، أو امتنع من السجود . ويدل على هذا
المعنى وذلك المفعول [illegible] اسجدوا وقوله فسجدوا إلا إبليس والجملة حالية
من [illegible] لأن استثناءه من الساجدين يكفي في أنه لم يسجد .

وقيل : الجملة مستأنفة لبيان المانع من السجود وهو الاستكبار وأنه لا يفتقر .

مفعول ولا متعلق، أو أن المعنى أظهر الإباء عن المطاوعة. وقيل: وجه دلالة أبى على المنع أن الإباء عن المطاوعة غالبا يكون عن تكبر أو أن أبى متضمن معنى قوله: أنا خير منه.

(فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك) حواء. فلذا كان حسدكما لما رأى من النعمة عليكما فاحذرا مكره، وإنه لا يألو لكما مكرا إلا به.

(فلا يخرجنكما من الجنة) أى لا تغفلا عن مكره حتى يخرجكما، أى احذرا أن يؤثر فيكما وسوسة بالعصيان فتعصيانى فتخرجا منها بسببه. ولكونه سببا أسند الإخراج إليه.

(فتشقى) بالحرث والحصد والزرع والطحن والخبز وغير ذلك فلا تأكل أو تلبس إلا بكد يمينك وعرق جبينك.

روى أنه أهبط إليه من الجنة ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه.

وروى أنه جاءه رغيف من الجنة قبل أن يقضى من حرثه، فدعاه للأكل فطار إلى الجبل ليجىء في المشى إليه، وأسند الشقاء إليه دون زوجه لأنه إذا شقى الرجل أهمه فشقى أهله في المعيشة ضاق أمر عياله، ولأنه القائم عليهم، أو لأن الشقاء بمعنى التعب في طلب المعيشة إنما هو على الرجل لا على زوجه ويزيد هذا ما بعد.

وقد يقال: ليس تشقى خطابا لآدم لكنه هو ضمير غيبة لحواء، أى تشقى في المعيشة على زوجك وفى ضمن هذا ضمها عليه فذلك في المكفاية عن ذكر الرجل قد عريت زوجه وجاعت، أو خاطب آدم وحده رعاية للفاصلة، لأنه لو قيل فتشقيا لكان ألف الاثنين آخر الفاصلة وألف الفعل أولى.

١١٨ – (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا) في الجنة (وَلَا تَعْرَى ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا) لا تعطش

(وَلَا تَضْحَى) لا تبرز للشمس فتؤذيك حرها إذ لا شمس في الجنة فتلك على الأكثر وهو الشمس في الضحى من الأثر من البروز لها ويطلق الضحى على الاحتراق بها أيضاً

ذكره الله امتنان ما يدور عليه الكفاية وهو الشبع والري وعدم شمس تؤذيه فيعرق منها . وذلك في الجنة مستغنيا فيها عن السعي في تحصيل ذلك .

وإنما ذكره إياها ليتجنب ما يخرج من الجنة فيزول عنه ذلك ولا يجد ما يجد منه بعد خروجه إلا بسعي .

والتحقيق أن قوله : « وأنك لا تظمأ » معطوف على قوله : « إن لك أن لا تجوع » وزعم القاضي أنه معطوف على أن لا تجوع ويرده أنه لو كان كذلك لفتحت الهمزة : وقد يجاب بأنه بنى تفسيره على قراءة غير نافع وأبي بكر بفتح همزة أنك لا تظمأ . فقوله حق .

وإن قلت : إذا عطف أنك لا تظمأ على أن لا تجوع في قراءة الفتح كان بمنزلة دخول إن بكسر الهمزة على أن بفتحها و بينهما مشددة وذلك ممتنع .

ووجه الدخول أن المعطوف على اسم إن بمنزلة ما هو اسمها تالى لها والواو قائمة مقام إن فكأن الداخل على أنك لا تظمأ هو إن . قلت : اغتفر في التابع ما لم يغتفر في المتبوع والواو لم توضع نائبة عن أن أبداً بل تنوب عنها وعن غيرها من العوامل . ولما لم تكن حرفاً موضوعاً لمعنى كهذ مثل إن لم يمتنع اجتماعهما .

قال الأشموني وشارح الجامع: لا يجوز دخول إن ونحوها بعد إن إلا مفصولة بالخبر نحو «إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها» ولا يجوز دخول الحرف المصدري وصلته بعد لا غير المكررة. انتهى.

(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ) أي أنهى إليه وسوسة، وهي كلام خفي فسره بقوله: (قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ) أي على شجرة من يأكل منها خُلِّد ولم يمت أصلاً، [illegible]، وذلك في زعمه الباطل؛ لأن هذه الشجرة ليست كذلك، بل كل من أكل منها فرض الخروج من الجنة، ولأسباب الموت؛ فإن طعامها كطعام الدنيا، وطعام الدنيا كثيراً ما يكون سبباً للموت.

قيل: هذه الشجرة يسير الراكب فيها مائة عام ولا يقطعها. ذكره الشيخ عود.

قال الصبان: قال أهل المعاني: جملة قال: يا آدم الخ عطف بيان لجملة وسوس إليه الشيطان اهـ.

والأولى أن يقال: إنها مستأنفة للبيان، فليست بياناً نحوياً عند التحقيق.

(وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) لا يضعف ولا يفنى وهذا دليل لقراءة الحسن وابن عباس إلا أن تكونا مَلِكين.

(فَأَكَلَا) آدم وزوجه (مِنْهَا فَبَدَتْ) ظهرت (لَهُمَا سَوْآتُهُمَا) عورتهما، ظهر لكل واحد قبله وقبل الآخر ودبره.

وسمي القبل والدبر سوأتين لأن انكشافه يسوء صاحبه، وكانا قبل ذلك قد لبسا حُلل الجنة.

وقيل : كان لباسهما الظفر، فلما أصابا الخطيئة سلخ عنهما إلا ما على الأصابع .

وعن الحسن عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ : كان آدم رجلا طوالا كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع في الخطيئة بدت له سوءته وكان لا يراها قبل ذلك ، فانطلق هاربا في الجنة فأخذت شجرة من شجر الجنة برأسه من الشعر فقال لها : أرسليني فقالت : لست بمرسلتك . فناداه ربه : يا آدم أمني تفر ؟ فقال : يا رب استحييت منك .

(وَطَفِقَا) طفق واحد ، أي شرعا (يَخْصِفَانِ) خبره أي يلصقان

وقرئ بضم الياء والتشديد للمبالغة (عَلَيْهِمَا) الحق جواز عمل العامل مطلقا في ضميري مسمى واحد إذا عمل في أحدهما بواسطة حرف جر فلا حاجة إلى تقدير يخصفان على جسدهما .

(مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ) ورق التين يستران به جسديهما .

وعن بعض : كان ورقا مدورا كالكف . وقيل : سوآتهما فقط .

وعن بعض : يرقعان بعضا إلى بعض كهيئة الثوب .

(وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ) بالأكل من الشجرة ، وخص آدم لأنه أكمل عقلا فعصيانه أشد . وقيل : لأن المراد عصى باتباعه حواء في إرادة الأكل .

(فَغَوَى) زل عن المطلوب وخاب حيث طلب الخلد بالأكل منها أو عن المأمور به أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدو .

ومعصيته هذه قيل : صغيرة وهو ظاهر كلام الشيخ هود رحمه الله .

وقيل : ليست ذنبا أصلا وإنما أكل منها نسيانا للنهي فعنفه الله وعاتبه على عدم تحفظه المؤدي له إلى النسيان باسم المعصية والغواية مع أن ما فعل ليس لأنها

زلبثرا يلبغسا الولادة من الصغائر والكبائر وهو قول ابن الفرزي من علماء الأندلس .

ومن قال : إن الأنبياء تصدر منهم الكبائر أشرك . ذكره أصحابنا وغيرهم .

والحق أنه لا يشرك ؛ فإن من العلماء من جوز عليهم الكبائر وجوز أكثر المعتزلة الصغائر دون الكبائر .

وقيل : لا تصدر منهم صغيرة ولا كبيرة وما نسب إليهم من ذنب فإنه ما صدر منهم عن ذهول أو مكان الأولى خلافه أعظم درجتهم والله أعلم . وهم معصومون من وقت الولادة عندنا وعند الشيعة .

وقال أكثر المعتزلة : عصموا من وقت بلوغهم .

وقال أكثر الشافعية وأبو على المعتزلى : عصموا وقت النبوة .

قال الفخر : لو صدر منهم الذنب لكانوا أقل درجة من آحاد الأمة لعظم شأنهم ولكانوا أقل حالا من عدول الأمة فى ذلك الوقت .

قال : ولو وجب الاقتداء بهم فيه .

قلت : لأنه لا يجب الاقتداء بنبى فى كل ما فعل إلا ببيانه وإن كان من رآه يفعل يعلم أنه ذنب فلا إشكال .

قال : ولا أقبح ممن رفع الله درجته وائتمنه وقال : إنه بالوحى افعل أو لا تفعل وخالف فيكون داخلا فى « أتأمرون الناس » الآية وقد قال : « يسارعون فى الخيرات » على العموم ومن الخيرات ترك الذنب ، ووصفهم بالاصطفاء وهو ينافى الذنب وذكر وجوها غير ذلك قال : واتفقوا على أنهم معصومون من اعتقاد الكفر ومن الكذب والكتمان فى التبليغ وإلا ارتفع الوثوق بهم .

وأجاز بعضهم الصغيرة في ذلك لإمكان الاستغفار منها، وعلى أنهم معصومون من الحلف في الفتيا عمدا، وأجازه بعضهم سهوا. انتهى.

قال ابن قتيبة: يجوز أن يقال: عصى آدم، ولا يجوز أن يقال: آدم عاص، لأنه يقال لمن اعتاد المعصية. وكان هذا مثل [illegible] قيل [illegible] للموحدين أنه يقال: آمن ولا يقال: مؤمن، فإن مؤمنا لمن بالغ في الإيمان حتى إنه يأتي بالفرائض ويجتنب المحرمات.

وبعده: فالحق عندي لجواز تسمية الفاسق مؤمنا [illegible] موحدا، إذ إن العرب تشتق باسم الفاعل من فعل الفعل ولو مرة، مثل أخاط ولو مرة يقال له: خائط، ولا يقال: خياط إلا إن اعتاد، إلا إن كان لأصحابنا دليل نقل فسلم.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: تحاج آدم وموسى، أي تخاصما، قال موسى: يا آدم أنت أبونا آدم أخرجتنا من الجنة.

فقال له: أنت يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده، أي بقدرته، أو بأمره للملائكة، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة، أي أظهره الله في الوجود، مثل أن يكتبه في اللوح، أو يظهره للملائكة، أو خلق مقدماته، وإلا فعلم الله لا أول له.

قال ﷺ: فحج آدم موسى، أي غلبه. وكان موسى لامه على مجرد ذلك، فكان آدم غالبا، ولو لامه على اهتمامه وإرادته وكسبه لم يكن غالبا، لأن العبد يلام على ذلك.

وفسر بعضهم غوى بَشِمَ أي بشم وتخم من كثرة الأكل.

قال جار الله: وهو تفسير خبيث، وأصله على هذا غَوِيَ بكسر الواو بعده

ياء مفتوحة كما قرأه بعضهم كبشرى، فقلبت المكسورة فتحة والياء ألفا على لغة طيئ. يقولون في بَقِيَ ورَضِيَ ونحوهما بوزن عَلِمَ: بَقَى ورَضَى، بوزن سَعَى.

(ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ) قربه واصطفاه بالحمل على التوبة بالحمل عليها، وأصله الجمع من جبى كذا فجبيته، أي جمع إليه الطاعات، جمعه وضمه إلى نفسه.

(فَتَابَ عَلَيْهِ) بقبول توبته (وَهَدَى) أرشده إلى الثبات على التوبة إلى الموت.

(قَالَ) الله: (اهْبِطَا) يا آدم وحواء (مِنْهَا) من الجنة (جَمِيعًا) حال (بَعْضُكُمْ) مبتدأ (لِبَعْضٍ) حال من عدو، أو اللام للتقوية، واجبة لعدوه، بعضكم معاد لبعض.

(عَدُوٌّ) خبر، والجملة حال ثانية مقدرة، أو حال من ضمير جميعا مقدرة.

وإنما خاطبهما بصيغة خطاب الجماعة لأنهما أصل الذرية، بل كأنه قيل: اهبطا بما اشتملتما عليه من ذريتكما.

ويدل لذلك لفظ العداوة؛ فإنها واقعة بين أولادهما لا بينهما إلا الأمر اليسير مما لا بد أن يقع بين المتباشرين، أو الخطاب بصيغة الجمع لهما ولإبليس، أي اهبطا منها كما قد هبط إبليس وأنتما، وهم متعادون، أو الأصل: اهبطا أنتما وإبليس بناء على أنهم هبطوا معا وهو ضعيف؛ فإنه ـ لعنه الله ـ بعد الإباء لم يدخلها، أو معنى قوله: قال: اهبطا أنتما وإبليس، أمرهم بالهبوط، فيشمل ما لو هبطا في زمان وهبط في آخر، أو ضمير الاثنين لآدم وإبليس، وأما حواء فهبوطها تابع لهبوط آدم، وضمير الجمع للثلاثة، أو لآدم وإبليس باعتبار أنهما أصلان لذريتهما، والعداوة بين آدم وحواء وذريتهما، وبين إبليس وذريته، وفيما بين ذرية آدم، وفيما بين ذرية إبليس، بأمر الفتن وأمر الله بها.

ويدل على أن الخطاب لهما وحدهما قوله : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى) الخ كذا قيل .

وفيه بحث بأن الهدى يأتي أولادهما وأولاد إبليس ، والاتباع والإعراض يكونان من الكل .

والأصل : فإن يأتكم ، فزيدت ما ، وأبدلت نون إن الشرطية ميما وأدغمت في ميم ما ، وأكد الفعل بالنون ... والمراد بالهدى : الكتاب والرسول .

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ) وقرأ أبو مجلز والجحدري وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر هُدَيَّ بقلب الألف ياء وإدغامها في الياء ، وهي لغة هذيل ، وحكاها عيسى بن عمر عن قريش ، وحكاها الواحدي في البسيط عن طيء ، ورويت عن النبي ﷺ قال الشيخ ...

(فَلَا يَضِلُّ) في الدنيا عن الدين .

(وَلَا يَشْقَىٰ) في الآخرة .

وقيل : الخطاب في يأتينكم لأمة محمد ﷺ خاصة ، والهدى القرآن .

قال ابن عباس : من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ووقاه يوم القيامة سوء الحساب ، ثم تلا تعالى : (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) ويحتمل الضلال والشقاء بالآية هذا القول الأخير ويحتمل الأول ، واستدل بها على ذلك عمومها .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي) بأن لم يؤمن به .

(فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) مصدر بمعنى الضيق ، ولذا وصف به المؤنث وهو مذكر ، وذلك مبالغة ، أو يقدر مضاف ، أو يؤول بالوصف .

وقرئ «ضنكى» بألف التأنيث وصفا كسكرى.

وهذه المعيشة فى الدنيا.

وقيل: فى الآخرة.

وقيل: فى البرزخ. ويحتمل الجميع.

ووجه الأول أن الكافر ولو وسع ماله لكن همته الدنيا وازدياده أبدى الخلف، لا خوف له من انتقاصها، فهو فى ضيق من ذلك، بخلاف المؤمن، فإنه فى مهولة لتوكله مع أن الرزق قد يضيق بشؤم الكفر. وكذا يسلط الله الذل به نحو «ضُربت عليهم الذلة والمسكنة» الخ «ولو أنهم أقاموا التوراة» الخ «ولو أن أهل الكتاب آمنوا» الخ «استغفروا ربكم» الخ «وأن لو استقاموا» الخ.

وقال الحسن: المعيشة الضنك: الضريع والزقوم والغسلين فى النار.

وقال ابن مسعود وأبو هريرة وأبو سعيد الخدرى: إنه عذاب القبر، يضغطه القبر حتى تختلف أضلاعه، فلا يزال يعذب حتى يبعث.

قال ﷺ: المعيشة الضنك: عذاب الكافر فى القبر يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا، لكل تنين تسعة رءوس تلسعه وتخدشه.

وروى: إنه إذا وضع المؤمن فى قبره وانصرف عنه الناس، أتاه الملك من اليمين فتقول له الزكاة: لا تفزعه من قِبَلى، وجاءه من رأسه فيقول القرآن الذى يقرؤه كذلك، ثم من رجليه، فتقول الصلاة كذلك، فيوقظه يلين فيقول: مَن ربك؟

فيقول: الله لا شريك له.

ومَن نبيك؟

فيقول : محمد ﷺ .

وما دينك ؟

فيقول : الإسلام .

فيقول للملك : وعلى ذلك أحييت ، وعليه مُتّ .

فيقول : نعم .

فيقول : وعلى ذلك تُبعث ؟

فيقول : نعم .

فيقول : صدقت .

فيُفتح جنب قبره إلى منزله فى الجنة ، فيبشر وجهه ويقول له : نم نوم العروس .

وأما الكافر فلا يحاول عنه شيء ، ويسأله ويقول له : مَن ربك ؟

فيقول : أنت .

ومَن نبيك ؟

فيقول : أنت .

وما دينك ؟

فيقول : أنت ! لو كان لك إله تعبده لاهتديت له .

فيُفتح له جنبَ قبره إلى منزله فى النار ، ويضرب ضربة يزول بها كل عظم عن موضعه ، يسمع صياحَه غيرُ الثقلين ، ثم يقذف فى مقلاة ، ينفسخ له نانخن ، لا يميل إلى هذا إلا ردّه هذا ، حتى ينفخ فى الصـــور ، فتتخمد عنه النار إلى أن يُبعث .

وقيل : المعيشة الضنك : الحرام .

وعن ابن عباس : الشقاء . وعنه : المال الحرام ، وعلى الضنك في عزم .

وقيل : سلب القناعة حتى لا يشبع .

وعن بعض الصوفية : لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته .

(وَنَحْشُرُهُ) وقرئ بسكون الهاء إجراء للوصل مجرى الوقف .

وقرئ بالجزم عطفا على محل « فإن له معيشة ضنكا » فإنه الفعل جزم جواب من . وأما جواب إن فمجموع من وشرطها وجوابها .

(يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ) قال ابن عباس : أعمى البصر .

وقيل : معناه لا حجة له .

وقيل : أعمى القلب .

ويؤيد الأول قوله : (قَالَ رَبِّ) يا رب (لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا) في الدنيا ، وعند البعث ؟ فإن قلبه قد عمى أيضا في الدنيا ، ولا حجة له فيها على كفره .

وقد يقال : إنه كان في الدنيا يحتج بأشياء ، وإذا حشر أزالها الله عن قلبه ، مع أنها لو حضرته لم تنفعه فيقول : يا رب قد كان لي شيء أتمسك به فزال عني ، أو قوله ذلك كناية عن اضمحلال ما قد كان في الدنيا يحسبه حجة وبصيرة . ولما ظهر له أنه لا ينفع قال : يا رب هذه ملك نعمة لم لم تحشرني عليها كما كنت في الدنيا ؟

(قَالَ كَذَٰلِكَ) خبر لمحذوف ، أي الأمر كذلك ، أي أنت أهل لأن يفعل بك مثل ذلك . وبين سبب فعله ذلك بقوله :

(أَتَتْكَ آيَاتُنَا) واضحة نيرة (فَنَسِيتَهَا) تركتها غير ناظر فيها ، أو التقى فعلت فعلا مثل ذلك الذي فعلنا بك ، من حشرك أعمى .

وفسر ما قبل بقوله : « أتتك آياتنا فنسيتها » ، والكاف اسم مفعول لمحذوف أو حذف المنعوت ، أو حرف ، أى نسيانًا كذلك .

﴿ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ تترك في العذاب كما تركت آياتنا .

.. واستدل بعض العلماء بالآية على أن من حفظ القرآن ونسيه فهو كافر كفر نفاق لا يخرج عن الملة .

وقيل : لا يكفر ما دام يفرزه من الشعر ، وهو قول غير واضح ، فإنه مميز عن الشعر ولو نسيه أشد نسيانه .

والأول أن يقال : ما دام يفرزه من غيره ، أو المراد ما دام يفرز منه ما على وزن الشعر من الشعر .

وقيل : لا يكفر بنسيانه بل بترك العمل به .

وإن قلت : كيف يصح الاستدلال والنسيان بمعنى الترك فى الآية والكلام على زوال القرآن من الحافظة ؟

قلت : نعم ، لكن إذا ترك درسه زال حفظه .

وقد فسره بعضهم بالإعراض عن الذكر بترك درسه ، والنسيان بزوال الحفظ عنه .

وأمال حمزة والكسائى أعمى فى الموضعين ؛ لأن ألفهما عن ياء .

وأمال أبو عمرو الأول فقط ؛ لأنه رأس آية ؛ ومحل وقف ، فهو جدير بالتغيير .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ فى المعاصى . ﴿ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ بل كذب بها .

وقيل : أسرف : أشرك ، والأول أولى ؛ لأن الشرك بعده عبارة : « ولم يؤمن » الخ . والتأسيس أولى من التأكيد .

(وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ) وهو الحشر على العمى

(أَشَدُّ) من المعيشة الضنك فى الدنيا

(وَأَبْقَى) أشد بقاء لأنه لا يزول ، أو عذاب الآخرة : وهو التعذيب بالنار ، أشد وأبقى من المعيشة الضنك ومن حشره أعمى ، أو منهما ومن العذاب عذاب القبر والإعماء أو عذاب الآخرة ، وهو جميع ما بعد الموت أشد وأبقى من المعيشة الضنك .

قيل : ولعله إذا دخل النار زال عماه ليرى محله وحاله .

وقيل : أو عذاب الآخرة أشد من ترك الإيمان والآيات .

(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ) أفلم يبين الله لكفار مكة أو الرسول ﷺ القرآن أو الإهلاك المدلول عليه بقوله :

(كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ) وكم للتكثير مفعول لأهلكنا ، وقبلهم متعلق بأهلكنا ، أى قبل وجودهم ، ومن القرون متعلق به أيضا ، ومن للابتداء .

فانهم

ومن أجاز نعت كم الخبرية أجاز كون « من القرون » نعتا لكم . فمن للتبعيض

ويجوز أن تكون للبيان . وعلمه فاعل لتهد ، والجملة مفعول ليهد معلقا بكم الخبرية ؛ لإنها من المعلقات .

ومعنى التعليق تسويغ كون المفعول جملة وذلك أن يهدى بمعنى الإخبار والتبيين . والإخبار يجوز تعليقه .

وأصل يهدى يوصل ويبلغ ، والتوصيل والتبليغ فى الكلام إخبار . ويجوز تفسيره بهذا الأصل .

ويجوز أن يكون الجملة فاعلا ليهد بمضمونها، فهو لازم، والإسناد إنما هو لمضمون الجملة، وهو الإهلاك. وقيل: فاعله ...

ويدل على كون الفاعل غير الجملة قراءة بعضهم نهد بالنون.

(يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ) إذا سافروا. وذلك أن قريشا يسافرون إلى الشام، ويمرون بمساكن عاد وثمود وقرى قوم لوط، ويشاهدون آثارهم، أهلكهم الله بسبب تكذيب الرسل.

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ) العقول الناهية عن الغفلة والعصيان.

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ) لولا عدة سبقت (مِنْ رَبِّكَ) بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الآخرة.

(لَكَانَ) الإهلاك المعلوم من السياق المماثل لإهلاك القرون.

(لِزَامًا) إما مصدر لازم بفتح الزاى، أخبر به عن الإهلاك مبالغة، أو يقدر بذى لزام، أو بملازم.

وإما فعال من لزم بمعنى اسم الآلة كحزام ومحزم، جعل العذاب والإهلاك لفرط اللزوم كأنهما آلة.

وأجاز أبو البقاء كونه جمع لازم. والمراد على كل حال اللزوم فى الدنيا باستئصال وعجلة. وسبقت: نعت كلمة لا خبر على الصحيح، والخبر محذوف وجوبا. وفى ذلك بحث فى النحو.

(وَأَجَلٌ) معطوف على كلمة أو على ضمير سبقت للفاصل.

(مُسَمًّى) والأجل المسمى: يوم القيامة.

وقيل: موت كل واحد منهم.

وقيل: يوم بدر.

فإن قلت: إذا كان العطف على لزاما أو على ضمير ثبت فهلا قيل: ولولا كلمة سبقت وأجل مسمى، بالعطف على كلمة، أو ولولا كلمة سبقت لكان لزاما وأجل، بالعطف على المستتر.

قلت: أخر عن اللزام ليشعر به أن الأجل المسمى مانع من اللزام كما أنه منه الكلمة، وهذا باعتبار كون الكلمة مجرد التأخير بقطع النظر عن غاية التأخير فافهم.

ويجوز العطف على ضمير كان، وأفرد الخبر لأنه مصدر.

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) من أنك كاذب، أو كاهن، أو ساحر، أو شاعر، أو مجنون، أو يعلمه بشر. زعموا أنها منسوخة بآية السيف، والحق الصبر المأمور به في كل حال فلا نسخ.

(وَسَبِّحْ) نزه ربك عن النقائص، أو صل.

(بِحَمْدِ) متعلق بمحذوف حال، والباء للمصاحبة، أي ثابتا مع الحمد له على هدايته، ومعترفا بأنه المولى المنعم.

(رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ) قيل يعني صلاة الفجر

(وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) يعني الظهر والعصر لأنهما في النصف الأخير، أو العصر وحده، وأما الظهر ففي آية أخرى، مثل: «أقم الصلاة لدلوك الشمس».

(وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ) من ساعاته جمع إِنًى كرِضًى، أو أَناء كسماء، أو أَنَى كمتى، أو إِنْي بكسر وإسكان، أو إِنْو كذلك، متعلق بقوله: فسبح. ومن بمعنى في، أي في بعض ساعاته. والمراد: المغرب والعشاء، أو من للتبعيض، متعلقة بمحذوف نعت لمجرور محذوف، متعلق بسبح، أي في زمان ثابت من آناء الليل، والفاء زائدة.

(وَأَطْرَافَ النَّهَارِ) معطوف على محل الجار والمجرور ويجوز أن يكون معطوفاً على محل آناء، وهو النصب، وإنما عطف على المحل لجواز ظهوره في الفصيح، إذ لو أسقطت «من» لانتصب أطراف.

قيل: المراد الصبح والمغرب، كرر للاختصاص، والجمع بمعنى التثنية ولا لبس، أو باعتبار أن النهار للجنس.

ويدل للأول: «أقم الصلاة طرفي النهار» أو المراد صلاة الظهر؛ فإنها بعد الطرف الأول من النهار وبداية الطرف الآخر فذلك طرفان، معبر عنهما بالجمع لما مر قبل، أو المراد التطوع في أجزاء النهار.

والأطراف: الأجزاء. قاله الحسن، أو أطراف النهار: ما بعد طلوع الشمس، وما قبل أن نصلي العصر.

وقيل: أطراف النهار: الظهر والمغرب.

قال ابن العربي: الصحيح أن المغرب من طرف الليل.

وقيل: المراد بالآية النفل والسنة، ويرد عليه «قبل غروبها» فإنه لا نفل ولا سنة قبله، إلا إن أريد قبله. وقيل: العصر وهو بعيد.

ويحتمل أن المراد بها: قل سبحان الله وبحمده.

وقدم الليل لسبقه خلقا، ولأن العبادة فيه أفضل لخصوصيتها مع جمع القلب.

(لَعَلَّكَ تَرْضَى) ترجيه عاقبة التسبيح. أي سبح في تلك الأوقات، طمعا أن تنال عند الله ما ترضى به، وعبر بالمسبب عن السبب عبر بالرضى عن الثواب.

وقيل: لعلك ترضى بما تعطى من الثواب على عملك.

وقرأ الكسائي عن عاصم، وأبو بكر بالبناء للمفعول، أي يرضيك ربك بما تحب، كالشفاعة، من الإرضاء.

وقيل: يرضاك ربك، أي يقبلك من الرضى.

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) نظر عينيك (إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ) استحسانا له ، وتمنيا أن يكون لك مثله، أو لا تنظرن إليه بالمد مطلقا ؛ لأن النظر إليه يورث الاغتباط به .

ولذلك كره بعض العلماء النظر إلى الأملاك الحسنة ؛ لئلا يشتغل بها القلب فيدعو إلى كسب مثلها .

(أَزْوَاجًا) أصنافا من المشركين (مِنْهُمْ) أزواجا مفعول متعنا ، ومنهم نعت أزواجا .

ويجوز أن يكون أزواجا حالا من هاء به ، فإنه متعهم بأصناف من الخيرات ومنهم مفعول متعنا ، أى متعنا بعضا ناشئا منهم ، أو متعنا بعضهم .

(زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) مفعول لمحذوف دل عليه متعنا ، أى أعطيناهم زهرة الحياة الدنيا ، أو أعنى الزهرة ، أو مفعول ثان لمتعنا ، متضمنا معنى أعطينا ، أو بدل من محل الجار والمجرور ، أو بدل من أزواجا ، على تقدير مضاف ، أى ذوى زهرة ، أو بدون تقديره مبالغة ، جعلوا نفس الزهرة مبالغة ، أو على أنه أزواجا واقع على ما وقع به التمتيع ، أو مفعول لأذم محذوفا .

مسألة : قال ابن هشام :

« إنما تقضى هذه الحياةَ الدنيا . ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرةَ الحياة الدنيا » علامَ انتصب هذه الحياةَ ، وزهرةَ الحياة ؟

الجواب : أما هذه الحياة فهذه ظرف زمان على معنى فى ، والحياة صفة ، أو عطف بيان . وأما زهرة الحياة الدنيا فبدل من الهاء فى به ، على الموضع ، أو مفعول لمضمر دل عليه متعنا ؛ لأنه بمنزلة جعلنا ، فكأنه قيل : جعلنا لهم زهرة الحياة الدنيا ، ولا يكون حالا لتعريفه .

وممن قال في «زهرة» بالتسكين : إنها حال ، جار الله العلامة ، [illegible]

وزعم بعضهم أن «زهرة» مفعول ثانٍ لـ«متعنا» على تضمينه معنى أعطينا ، و«الحياة الدنيا» [illegible] فيكون من باب صبغ الله ، [illegible]

ويشكل عليه قول الغريب : زعم أنه أحسن من غيره ، وهو أن يكون الأصل زهرة بالتنوين ، ولكنه حذف لالتقاء الساكنين ، وخفض الحياة على البدل من ما ، أي ولا تمدن عينيك إلى الحياة الدنيا حال كونها زهرة . انتهى .

ولا يكون بدلاً من «ما» ؛ لأن المقدم متعلق بـ«متعنا» فهو داخل في الصلة ، ولا يبدل من الموصول قبل تمام صلته . انتهى كلام ابن هشام في المسائل السفرية .

وقال في المغني في الأمور التي ذكروا أنها تحتاج إلى الأمر البعيد الثاني عشر قول مكي وغيره في قوله تعالى : «ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا» إن زهرة حال من الهاء ، أو من «ما» ، وإن التنوين حذف للساكنين مثل قوله : ولا ذاكراً الله إلا قليلا . وإن جر الحياة الدنيا على أنه بدل من «ما» ، والصواب أن «زهرة» مفعول بتقدير جعلنا لهم ، أو آتيناهم . ودليل ذلك ذكر التمتيع ، أو بتقدير أذم ؛ لأن المقام يقتضيه أو بتقدير أعني بيانا لما أو لضمير ، أو بدل من أزواجا ، إما بتقدير ذوي زهرة ، أو أنهم جعلوا نفس الزهرة مجازاً للمبالغة .

وقال الفراء : هو تمييز لـ«ما» أو للهاء ، وهذا على مذهب الكوفيين في تعريف التمييز .

وقيل : بدل مما ورد بأن المقدم من صلة ما ، فيلزم الفصل بين أبعاض الصلة بأجنبي ، وبأن الموصول لا يتبع قبل كمال صلته ، وبأنه لا يقال : مررت بزيد أخاك على البدل ، لأن العامل في المبدل منه لا يتوجه إليه بنفسه .

(١) [illegible] البيان [illegible] / ١٤٣

وقيل : من الهاء وفيه ما ذكر وزيادة الإبدال من العائد وبعضهم يمنعه بناء على أن المبدل منه في نية الطرح ، فيبقى الموصول بلا عائد في التقدير . قال : ولو لزم إعطاء منوى الطرح حكم المطروح لزم إعطاء منوى التأخير حكم المؤخر فمنع ضربَ زيداً غلامُه . ويرد ذلك : « وإذا ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات » والإجماع . انتهى .

والزهرة : الزينة والبهجة .

وقرأ يعقوب بفتح الهاء لغة كالجهرة . والجهرة بإسكان الهاء وفتحها ، أو جمع زاهر ، ككامل وكملة ، وصفٌ لهم بأنهم زاهرو الدنيا ؛ لتنعُّمهم ، بخلاف ما عليه المؤمنون الزهّاد ، من شحوب الألوان والتقشف في الثياب .

قال جار الله : لما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز في الطباع ، وإن من أبصر منها شيئا أحب أن يمد إليه نظره ، ويملأُ منه عينيه قيل « ولا تمدنّ عينيك » .

ولقد شدد العلماء من أهل التقوى في وجوب غض البصر عن آنية الظلمة وعدد الفسقة في اللباس والمراكب وغير ذلك ؛ لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة . فالناظر إليه محصل لغرضهم وكالمغرى لهم على اتخاذها اهـ .

عن عبد الله بن بسيط عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ : نزل برسول الله ﷺ ضيف فبعثني إلى يهودى فقال : قل له : إن رسول الله ﷺ قال : بع لى كذا وكذا من الدقيق، أو أسلفني إلى رجب . فأتيته فقلت له. فقال : والله لا أبيع له، ولا أسلفه إلا برهن . فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته . فقال : والله لئن باع لى ، أو أسلفني لقضيته وإنى لأمين في السماء ، وأمين في الأرض . اذهب إليه بدرعى وهو من حديد فنزلت الآية .

وقالوا : مَن كتبها إلى التقوى وعلّمها عليه تزوج إن كان عازبا ، وحفظ إن كان ينسى ، وشُفى إن كان مريضا ، واستغنى إن كان فقيرا .

(لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) لنبلوهم فيه بأن يطغوا ، أو لنؤاخذهم فى الآخرة بسببه .

(وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ) فى الجنة مما متعناهم به فى الدنيا .

(وَأَبْقَىٰ) أشد بقاء ؛ لأنه لا ينقطع .

وعن أبىّ بن كعب : من لم يعتز بعزاء الله تقطعت نفسه حسرات ، ومن يُتْبِع بصره ما فى أيدى الناس طال حزنه ، ومَن ظن أن نعمة الله فى مطعمه ومشربه وملبسه فقد قلّ علمه ، وحضر عذابه .

وعنه ﷺ : خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابرا شاكرا ، ومَن لم تكونا فيه لم يكتب صابرا ولا شاكرا : مَن نظر إلى مَن فوقه فى الدِّين ومَن دونه فى الدنيا، فاقتدى بهما كتبه الله صابرا شاكرا ، ومَن نظر إلى مَن فوقه فى الدنيا ، ومَن دونه فى الدِّين ، فاقتدى بهما لم يكتب صابرا ولا شاكرا

وعن الحسن عنه ﷺ : خير الرزق الكفاف . اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا .

وقيل : رزق ربك خير من الدنيا وأبقى .

وقيل : رزق ربك : المراد : ما رزقه الله من الهدى والنبوة .

(وَأْمُرْ) الواو للاستئناف ، أو للعطف على أحد الإنشاءات قبل ، أعنى الطلب . والألف هى ألف يأمر وهى الهمزة فى الماضى .

والأصل : وأْمر بهمزة وصل مضموم فواو ساكن . أصله همزة ساكنة ، وهى المفتوحة فى الماضى ، حذفت همزة الوصل ، لتقدم متحرك عليها ، فقلبت الواو ألفا . فلتنظر شرحى على اللامية .

(أَهْلَكَ) من في عيارتك ...

وقيل: أمتك ...

وقيل: المراد كل من اتبعه من أهله ...

(بِالصَّلَاةِ) أمره بأن يأمرهم بها بعد ما أمره بها، استعانة على خصاصتهم، ولئلا يهتموا بأمر المعاش، ولا يلتفتوا لأرباب الثروة.

(وَاصْطَبِرْ) صبر صبرا عظيما عليها، أو اعمل لمراقبة الجرد.

وقيل: داوم (عَلَيْهَا) فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، والوعظ بلسان الفعل أبلغ منه بلسان القول.

(لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا) لا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك.

وقيل: لا نسألك على ما أعطيناك من النبوة رزقا.

(نَحْنُ نَرْزُقُكَ) فتفرغ للعبادة، فإنه من كان في عمل الله كفى الله له عمله.

وكان عروة بن الزبير إذا رأى شيئا مما عند السلاطين، أو سمع به، بادر إلى منزله ودخله، وهو يقرأ: «ولا تمدن» - إلى - «أبقى»، ثم ينادي: الصلاة الصلاة يرحمكم الله، ويصلي.

وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يوقظ أهل داره لصلاة الليل ويصلي، ويتمثل بالآية.

وكذا بكر بن عبد الله المزني، كان إذا أصاب أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا، بهذا أمر الله ورسوله، ثم يتلو الآية.

وكان ﷺ إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة، وتلا الآية. رواه عبد الله بن سلام.

قال ابن عطاء الله: اعلم أن هذه الآية علمت أهل الفهم عن الله سبحانه

فكيف يطلبون [illegible] بالتوكل [illegible] أنكروا لمن خدمة الله ، وقرعوا باب الرزق بمعاملة الرزاق . [illegible]

[illegible] قال [illegible] رفع

[illegible] عن الخلق [illegible]

الذى أعز الله به المؤمن رفع همته إلى مولاه وثقته به دون من سواه [illegible]

من الله بعد أن كان [illegible] الإيمان [illegible] أن [illegible] عليك

[illegible] والشيطان [illegible] حتى [illegible] إلى الإخوان [illegible] من غيره وحوله إحسان .

ثم قال : رفع الهمة عن الخلق هو ميزان ذوى الكمال ، [illegible] الرجال

وكما توزن الذوات توزن الأحوال والصفات [illegible]

وعن ابن عمر : أتى رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله حدثنى حديثا موجزا فقال له النبى ﷺ : صل صلاة مودع كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك . واليأس مما فى أيدى الناس تعش غنيا ، وإياك وما يعتذر منه . روى مثله أبو أيوب .

(وَالْعَاقِبَةُ) الجنة (لِلتَّقْوَىٰ) لذوى التقوى .

(وَقَالُوا) أى المشركون : (لَوْلَا) أى هلا (يَأْتِينَا) محمد

(بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ) تدل على صدقه فى ادعاء النبوة ، أو بآية غير ما جاء به .

لم يعتدوا بما جاء به تعنتا وعنادا فأجابهم بقوله :

(أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ) التوراة والإنجيل وغيرهما ؟

بل جاءهم القرآن مشتملا على زبدة ما فى الكتب من العقائد والأحكام الكلية

مبينا الحكم على [illegible] الكتب [illegible] فالقرآن آية بينة معجزة برهان

على نبوته وعلى صحة ما فى الكتب فهو دليل لها وهى محتاجة إليه .

وقرأ غير نافع وحفص وأبي عمرو بأتيهم بالتحتية؛ لأن الفاعل وهو بينة مؤنث مجازاً ظاهر ولأن البينة برهان .

وقرئ بإسكان الهاء والقرآن أم المعجزات لأنه علم النبي ﷺ والمعجزة اختصاص مدعي النبوة بنوع علم أو عمل على وجه خارق العادة . والعلم أصل العمل وأبقى منه أثرا .

وقيل : المراد بالبينة البشارة في الكتب بنبوته ﷺ .

(وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ) أي ولو ثبت إهلاكنا إياهم . وفيه أوجه ذكرتها في غير هذا المحل .

(بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ) من قبل محمد ﷺ أو من قبل البينة وعليه فاعتبر تأويل البينة بالبرهان بالدليل أو بالقرآن أو من قبل إتيان البينة .

(لَقَالُوا) يوم القيامة : (لَوْلَا) هلا (أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ) بالنصب في جواب التحضيض (آيَاتِكَ) المرسل هو بها

(مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ) في القيامة (وَنَخْزَى) بالعذاب والافتضاح ، مضارع خزى كرضى خزيا بالكسر وخزي وقع في بلية وشهر فذل بذلك قاله في القاموس وهو غير متعد . وإنما يتعدى بالهمز .

وقيل : المراد الذل والخزي بالقتل والسبي .

وقرئ ببنائهما للمفعول من أذله وأخزاه .

ذكر بعض المالكية عن أبي سعيد عنه ﷺ أنه يحتج يوم القيامة على الله ثلاثة : الصبي ، والمجنون ، وصاحب الفترة . فيقول الأولان : لو جعلت لنا عقلا لأطعناك ، والفتري : لو أرسلت رسولا إلي لكنت أطوع خلقك فتجعل لهم نار ويقال: ردوها فيردها من كان في علم الله سعيداً ويقع الشقي فيقول: إياي عصيت فكيف رسولي ؟!

قلت : لم يصح هذا الحديث عنه ﷺ لأني عرضته على القرآن فنافاه؛ إذ لا حجة على الله تعالى بعد الرسل ، فمجيء إرسال الرسل يقطع عذر الآخرى وكيف يختبر فى الآخرة مع أنه ليس للإنسان إلا ما سعى فى الدنيا، والآخرة إنما هى دار جزاء

وأما الصبي والمجنون فقد رفع القلم عنهما فلهما الجنة فضلا. وقيل : بالوقوف فى أطفال المشركين والمعاتيه وهو المشهور ، والتحقيق الأول،فإنه بعد ما توقف فى أطفال هؤلاء قال : سألت ربى اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم وأعطانيهم واللاهون : الأطفال.

(قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ) كل منا ومنكم متربص، فأنتم تتربصون بموتى ونزول الحوادث ، وإنّا متربصون بكم الخزى والهوان .

(فَتَرَبَّصُوا) قيل : منسوخ بآية السيف والحق خلافه .

(فَسَتَعْلَمُونَ) يوم القيامة .

(مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ) المعتدل الموصل إلى الجنة (وَمَنِ اهْتَدَى) والضلالة نحن أم أنتم

وقرئ السواء بمعنى الوسط والجيد . وقرئ السوء أى القبيح وهم أصحابه .

وقرئ السُّوَىّ بضم السين وفتح الواو وتشديد الياء تصغير السوء أبدلت همزته ياء وأدغمت فيها ياء التصغير .

وقرئ فتمتعوا فسوف تعلمون ، لا فتمتعوا فستعلمون ، كما هو المتبادر من بعضهم ، ومن مبتدأ استفهامية وأصحاب خبره وبالعكس ، والجملة فى محل نصب قامت مقام مفعولى تعلم .

وإن جعل بمعنى المعرفة فمقام مفعول وذلك تعليق بالاستفهام ومن مبتدأ

استفهامية وجملة اهتدى خبر والمجموع معطوف على مَن أصحاب فيجوز كون
الثانية موصولة وجملة اهتدى صلة ومَن معطوفة على أصحاب أو على الصراط
على أن المراد به النبي ﷺ ويجوز عطفها على محل الجملة كقوله :

وما كنت أدرى قبل عَزّةَ ما البُكا ... ولا مُوجِعاتِ القلبِ حتى تولّتِ

ولا يشترط لهذا كون العلم بمعنى المعرفة كما قال بعضهم وقد بسطت المسألة
في النحو.

اللهم ببركة سيدنا محمد ﷺ وببركة السورة اخذل النصارى وأعوانهم واكسر
شوكتهم ، وغلّب المسلمين والموحدين عليهم . وصلى الله على سيدنا محمد وآله
وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنبياء عليهم السلام

مكية قيل: إلا «أفلا يرون أنا نأتي الأرض» الآية، فمدنية. وآيها مائة واثنتا عشرة آية.

وقيل: مائة وإحدى عشرة آية.

وكلمها ألف ومائة وثمان وستون.

وحروفها أربعة آلاف وثماني مائة وتسعون حرفا.

قال ﷺ: مَن قرأ: «اقترب للناس حسابهم» حوسب حساباً يسيراً وصافحه وسلّم عليه كل نبي ذُكر في القرآن.

وروى أبو موسى: مَن قرأ سورة الأنبياء حاسبه الله حسابا يسيرا وسلم عليه كل من ذُكر اسمه فيها.

بسم الله الرحمن الرحيم

(اقْتَرَبَ) بمعنى قرب فهو موافق للمجرد، والزيادة للتأكيد (لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ).

وإن قلت: كيف وصف بالاقتراب ومنذ ألف ومائتان والدن وسبعون عاما منذ نزلت الآية أو أكثر من ذلك؟

قلت: وصف به لأنه عند الله قريب ولو بعُد عند غيره، واليومُ عند الله ألف سنة من سنوات الدنيا؛ ولأن كل آتٍ قريب، وإن طال أجله، وإنما البعيد هو ما مضى، أو لأن الاقتراب نسبي؛ فإن ما بقي من الدنيا ولو طال قصير بالنسبة إلى ما مضى؛ بدليل بعث النبي ﷺ الذي هو خاتم النبيين وعلامة الساعة. وعنه ﷺ: بُعثتُ في نَسَم الساعة ﷺ.

وخطب بعض المتقدمين: وإن الدنيا بحذاء، ولم تبق إلا صُبابة كصُبابة الإناء. واللام متعلق باقترب وهي أصل.

وإن اعتبرنا أن الأصل اقترب حساب الناس ثم اقترب حسابُ الناس بعدم تنوين حساب للإضافة وزيادة اللام في المضاف إليه كقولهم: يا بؤس للحرب ثم تركت الإضافة مقدم الجار والمجرور، فتعلق باقترب. وكان الجار غير زائد، ثم عوض عن التعريف بالإضافة التعريفُ بأل فقيل: اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم، فهي بحسب الأصل زائدة بمعنى التأكيد ولو جعد ذلك

فإنه إذا كان يكون لمن يقال: اقترب حسابه الناس فيدخل اللام ويجر

الناس بأن قول : قترب للناس حسابهم فلا يخفى ما فيه من التقوية ولو لم يقل بزيادتها فى الأصل لذكر الناس مرتين إظهاراً . وفى ذلك نوع إبهام وتبيين .

والناس : المشركون ؛ ... من إطلاق اسم الجنس على بعضه .

... ابن عباس ... مراده مشركو مكة ...

ويحتمل أن يراد كل المكلفين ... على المجموع ... مع أن ... بعضهم ... وتحذيراً ... أن ...

... ذكر ... الحساب ...

وذكرت ... الحساب والبعث ... المشركين فى غير هذه السورة .

وكان رجل من أصحاب النبى ﷺ يبنى جداراً ... به آخر يوم نزول هذه الآية فقال الذى يبنى : ماذا نزل اليوم من القرآن ؟

فقال : نزل « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون » فنفض يده وقال : والله لا بنيت .

قال أبو بكر بن العربى : قال لى شيخى : ارغب فى العبادات لا تذهب بك ... فى مطاولة الأقران ومواصلة الإخوان . ولم أر الخلاص أقرب من طريقين : إما أن يغلق الإنسان بابه على نفسه ، وإما أن يخرج إلى موضع لا يعرف فيه . فإن اضطر إلى مخالطة الناس ... معهم ببدنه ... بلسانه وقلبه وإن لم يستطع فبقلبه . والواو للحال ، وفى غفلة تتعلق بمحذوف خبر ، ومعرضون خبر ثان ، أى هم ثابتون فى غفلة من الحساب ، معرضون عن التفكر فيه ، أو

مصدر محذوف حال من الضمير في معرضون، أي وهم معرضون عنه، وصاحب الحال الذي هو جملة حساب، ويأخذ عصاة الموعدين من تلك الأوصاف بحظهم إلا الحكم بأن القرآن سحر، ونحو هذا، لكن المشرك يسكر والعاصي دونه، ويصلى كالمنكر.

« يا أخي أشعر قلبك مهابة الله تعالى، وتأهب للقدوم، فقد آن ارتحالك. أنت في سكرة لذاتك، وغشية شهواتك، وإلغاء غفلاتك، ومقراض الفناء يعمل في ثوب حياتك، ويفصل أجزاء عمرك جزءاً جزءاً في سطور ساعاتك؛ كل نفس من أنفاسك جزء منفصل من جملة حياتك، وبذهاب الأجزاء تذهب الجمل؛ أنت جملة تؤخذ آحادها أولاً فأولاً إلى أن يستوفي سائرها بحكم الأقضية، والأقدار محدقة بأطوار الأعمار، تهدمها بمعاول الليل والنهار، فلو أضاء مصباح الاعتبار، لم يبق لنا في جميع أوقاتنا سكون ولا قرار.

(مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ) أي ما يأتيهم من ربهم ما ينبههم من نوم الغفلة والجهل، مما أحدث نزوله شيئاً فشيئاً آية بعد أخرى وسورة بعد أخرى إلا استمعوه بمجرى الآذان مستهزئين به لتوغلهم في الغفلة والإعراض عن النظر والتفكر في العواقب.

وفائدة إحداث الذكر شيئاً فشيئاً أن يتكرر التنبيه فيتعظوا، وما زادهم ذلك إلا لعباً ولهواً وغفلة مع اقتضاء عقولهم أنه لابد من جزاء المحسن والمسيء.

والذكر: القرآن.

وقيل: ما قاله النبي ﷺ من السنن والمواعظ غير ما في القرآن. وإنما قال: « من ربهم » لأنه ﷺ لا يقول إلا حقاً موافقاً للقرآن، فكأنه من الله بل قال الله تعالى: « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ».

قيل : لما نزلت : « اقترب للناس » الخ قال بعضهم : زعم صاحبكم أن القيامة قربت فانتهوا قليلا عما أنتم عليه ، ثم عادوا . ولما نزل : « أتى أمر الله » الخ ، قالوا كذلك ، أو قال غير ذلك البعض ، ثم رجعوا ونزل : « ولئن أخرنا عنهم العذاب » الخ

ومن ربهم متعلق بيأتى ، أو بمحذوف صفة لذكر ، أو حال منه ، لتقدم النفى ولوصفه بمحدث ، أو متعلق بمحدث ، أو بمحذوف حال من ضميره .

وذكر فاعل مجرور بمن الزائدة للتأكيد ، مقدر الرفع كما يدل له قراءة ابن أبى عبلة بها بالتقدير . وجملة وهم يلعبون حال من الواو ، وكذا قوله :

(لَاهِيَةً) فهما حالان مترادفان ، أى جامعين بين اللعب واللهو ، أو لاهية حال من ضمير يلعبون ، فهما حالان متداخلان .

وإذا قلنا : إن اللعب واللهو بمعنى واحد فالحال الثانية مؤكدة للأولى وقد فرقت بينهما فى غير هذا الموضع .

(قُلُوبُهُمْ) فاعل لاهية . وقرئ برفع لاهية ، فالظاهر أنه خبر ، وقلوب مبتدأ ، والجملة حال كذلك .

ويجوز كونه خبراً لمحذوف ، أى هم لاهية ، والجملة حال .

وقلوب فاعل ويجوز كونه خبراً آخر لقوله : هم ، والأول يلعبون ، وقلوب فاعل . فسماعهم من حيث قرنه باللعب واللهو كلا استماع .

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَى) زادوا الكلام الخفى إخفاء ، فانظر ما مر فى طه .

وعن أبى عبيدة : أسروا : أجهروا .

(الَّذِينَ ظَلَمُوا) بدل من واو أسروا المحذوف نطقاً للساكن . وفائدته

التنبيه عليهم بأنهم ظالمون فى إسرارهم ما أسروا به من النجوى ، أو فاصل ، والواو حرف علامة الجماعة وهى لغة أكلونى البراغيث .

روى أن سيبويه قال بالأول ، وأنه قال : ليس فى القرآن لغة من قال : أكلونى البراغيث ، أو مبتدأ والجملة قبله خبره ، وإنما قدم الخبر الفعلى هنا لعدم الالتباس ، بخلافه فى نحو زيد قام . والأصل : وهم أسروا النجوى ، وهؤلاء أسروا النجوى ، وعبر بالموصول تشنيعا بصلته ، أو مفعول لأذم محذوف وجوبا ، أو خبر لمحذوف ، أى هم الذين ، أو مبتدأ خبره قول مقدر ناصب الجملة بعده ، أو فاعل لقول محذوف ناصب لها ، أو بدل من واو استمعوه ، أو مفعول لأعنى ، أو بدل من هاء يأتيهم ، أو هاء حسابهم ، أو هاء قلوبهم ، أو من الناس قاله ابن هشام .

(هَلْ هَٰذَا) ما هذا (إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ) توبيخ (وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ) المجموع بدل من النجوى ، أو مفعول لقول كما مر .

والإشارة إلى سيدنا محمد ﷺ : اعتقدوا أن الرسول لا يكون إلا ملكا فكذبوا سيدنا محمدا ﷺ ، لأنه بشر ، فنسبوا ما جاء به من الخوارق كالقرآن إلى السحر ، فقال بعض لبعض : كيف نحضره ونحن نعلم ونعاين أنه سحر .

وإنما أسروا الشورى تعاونا على استنباطها . ومنه قول الناس : استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، وقد روى ذلك عنه ﷺ مرفوعا . أو اعتقدوا أن الرسول ولو كان بشرا لا يكون مماثلا للبشر ، بل يخالفهم بشىء خارق مثل غلظ وطول مفرطين ، ومثل أن يكون لا يأكل .

(قُلْ) يا محمد ، وقرأ حمزة والكسائى وحفص قال ، إخبارا عن رسول الله ﷺ

((رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ)) أى القول كان سرا أو جهرا ، فهو أبلغ من قوله « قل أنزله الذى يعلم السر » ولو كان يلزم من علم السر علم الجهر ، وذلك أخفى منها ، وليطابق قوله : « وأسروا النجوى » أى أسروا السر . وذلك لأن القول يشمل الجهر والسر وسر السر نصا ومبادرة بخلاف يعلم السر . ولا ضرر فى اشتمال القرآن على فاضل وأفضل تفننا ، وكل منهما معجز . بل الظاهر أن كل آية غاية فى البلاغة فى مقامها وكل ما نزلت لأجله وسياقها .

والأصل : قل لهؤلاء . قيل : قال فى آية الفرقان كذلك ؛ لأن المراد وصف ذاته بأنه عالم الغيب لا يعزب عنه شىء . وقيل : قل لهم وللناس

(فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) أراد بهما الجنس ، أو أراد هذه السماء وهذه الأرض فهو تمثيل لسائر الأماكن ، والجار والمجرور متعلق بالقول ، أو بمحذوف حال منه أو من ضمير يعلم .

(وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) بكل شىء ، فيجازيهم على الإحسان والإساءة .

ويجوز أن يكونوا أسروا النجوى وقالوا للرسول ﷺ والمؤمنين : إن كان ما قلتم حقا فأخبرونا بما أسررنا ، فقال الله تعالى بعد ما فسر له بجوابهم : « قل ربى » الخ .

(بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) بل للإضراب الانتقالى فى المواضع الثلاثة وأضغاث خبر لمحذوف ، أى القرآن أضغاث والمفرد ضغث ، بكسر فسكون ، بمعنى مضغوث ، أى مخلوط .

والأحلام جمع حلم بضمتين أو بضم الحاء وإسكان اللام وهو الرؤيا . انتقل عن قولهم : القرآن سحر إلى قولهم : إنه أخلاط رآها فى النوم لا تصلح للتأويل

(بَلِ افْتَرَاهُ) اختلقه من قبل نفسه وليس من الله عز وجل. وهذا انتقال منهم من قولهم: إنه أضغاث أحلام، إلى قولهم: إنه مفترى.

(بَلْ هُوَ) أي محمد (شَاعِرٌ) والقرآن شعر، انتقال منهم من قولهم: إنه مفترى، إلى قولهم: إنه شعر يخرف الباطل، وهكذا ... على التي قبلها، وكلها ... على أن ... أحلام ... من قولهم.

وبل الأولى من كلام الله سبحانه، ويجوز أن تكون الثانية والثالثة من كلامه جل وعلا، ولم يسلط عليهم القول، بل يقدر بعده أي:

بل قالوا: افتراه، بل قالوا: هو شاعر؛ فهذه كلها إشارة إلى تخبط أقوالهم فترقى من ... الفاسد إلى أفسد؛ فإن قولهم: إنه مفترى أفسد من قولهم: إنه أحلام؛ لاشتماله على مغيبات كثيرة طابقت الواقع، والمفتري لا يكون كذلك، بخلاف الأحلام فقد تكون كذلك، ولأنهم ما جربوا عليه كذبا قط، ويسمونه قبل الأربعين الأمين.

وقولهم: أضغاث أحلام أفسد من قولهم: إنه سحر؛ لأنه يجانسه، من حيث إن كلا منهما خارق، لكن بينهما ما بين العرش وتحت أسفل الأرضين.

وقولهم: إنه شعر أفسد من قولهم: إنه مفترى؛ لأنه مشحون بالحقائق والحكم، وليس فيه ما يناسب قول الشعراء.

(فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ) كاليد البيضاء وإبراء الأكمه، وإحياء الموتى والناقة، إن كان صادقا.

(كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) إن قلت: كيف شبهوا الإتيان بالآية بإرسال الأولين؟

قلت: صح ذلك؛ لأن الإرسال يتضمن الإتيان بالآية؛ فإن قولك: أتى سيدنا محمد بالمعجزة، مثل قولك: أرسل سيدنا محمد ﷺ؛ فإن الإتيان بها من فروع الإرسال ولوازمه، أو لأن التقدير: كما أرسل الأولون بها.

ولا مانع من حذف هذا الضمير المجرور، ولو تعلق بما تعلق به بآية؛ لأن ما موصول حرفي، بل ولو جعل اسميا، أي: كالإرسال الذي أرسله الأولون به؛ لأن الإرسال والإتيان ما صدقهما واحد.

ويجوز أن يكون التقدير: فليأتنا مرسلا بآية كما أرسل الأولون آتين بها؛ فحذف في كل من طرفي التشبيه ما ذكر في الآخر.

وبعضهم يسمي الحذف من الأول مع ذكر المحذوف في الثاني، ومع الحذف من الثاني مع ذكر مثل المحذوف في الأول احتباكا. والكاف نعت لآية، أو نعت لمصدر محذوف، أو هي حرف، ويقدر الاستقرار نعتا.

(مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ) من زائدة في الفاعل، على حذف مضاف، أي: ما آمن أهل قرية.

(أَهْلَكْنَاهَا) صفة لقرية برسم ذلك المضاف.

وإنما أهلكنا قرية، طلبت آية فجاءتها ولم تؤمن. ولولا اقتضاء الحكمة أن لا نهلك هذه الأمة لأرسلنا إليهم آية يطلبونها فلا يؤمنون فنهلكهم.

(أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) إن جئتهم بها. وفيه إيماء إلى الوعيد، كأنه قال: فإن وراء عدم إيمانهم بها إهلاكا كإهلاك من تقدمهم. كذا ظهر لي.

وقيل: المعنى: أفهم يؤمنون مع أنهم أعتى ممن سبقهم.

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) ومثله: فلا تستبعدوا كون الرسول بشرا.

(فاسألوا أهل الذكر) [illegible] يأكلون ويشربون.

(إن كنتم لا تعلمون) فذلك جواب لقولهم: هل هذا إلا بشر مثلكم. وأهل الذكر: أهل الكتاب. والذكر: التوراة والإنجيل [illegible]

وقيل: [illegible] أهل الكتاب [illegible]

ولأن إخبار الجم الغفير يوجب العلم، وإذا أخبروهم أوجب لهم العلم [illegible]

[illegible]

[illegible]

وإنما سموا أهل الذكر [illegible] القرآن

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وقرأ حفص نوحي بالنون وكسر الحاء.

(وما جعلناهم) أي الرسل أو الرجال الموحى إليهم [illegible]

(جسداً) مفرد مراد به الجنس، كأنه قيل: أجساداً، أو في الإفراد والتنكير إيماء إلى نوع، كما يظهر بتقدير مضاف، أي ذوي نوع من الأجساد، أو أفرد لأنه في الأصل مصدر، أو الحكم على كل، أي ما جعلنا آدم جسداً لا يأكل، وما جعلنا إدريس جسداً لا يأكل. وهكذا، فاستغنى بقوله: ما جعلناهم جسداً.

والجسد : جسم ذو لون ، ولذلك لا يقال للماء والهواء جسد لأنهما ولو كانا جسمين لكن لا لون لهما . وإنما يتلون الماء بكون ظرفه أو مقابله ، وما يرى في البحر إنما هو تراب أو نحوه .

وقال الفخر : بل للماء لون يرى لا يحجب ما وراءه .

وقيل : الجسد جسم ذو تركيب ، لأن أصله جمع الشيء واشتداده .

(لا يأكلون الطعام) نعت جسدا على المعنى ، أو مفعول ثان بعد مفعول ثان متعدد .

إن أريد بالجسد ما لا يتغذى فهو نفي كالجملة بعده المؤكدة ، وإن أريد ما يتغذى فهو مثبت . والنفي متسلط على الجملة بعده . وذلك من تمام الجواب السابق .

وقيل هو جواب لقولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام .

(وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) تأكيد لما قبله ، فإن من يأكل الطعام لا بد له من الموت . والطعام نفسه من أسباب الموت . وذلك إما لاعتقادهم أن الملائكة لا يموتون ، أو علموا أنهم يموتون ، لكن سموا طول حياتهم خلودا .

(ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ) مفعول ثان مقيد بمعنى حرف الجر ، أي في الوعد ، أي لم نخنهم في الوعد ، أو مفعول ثان غير مقيد بل مصرح على تضمين صدق معنى ما يتعدى لاثنين .

ومن أجاز قياس النصب على نزع الخافض أجاز تخريج ذلك عليه ، والضمير للرجال المرسلين . والوعد وعده تعالى بإهلاك مكذبيهم ، والعطف على نوحي إليهم وأجاز بعضهم مجيء ثم للاستئناف .

(فَأَنْجَيْنَاهُمْ) المرسلين (وَمَنْ نَشَاءُ) المؤمنين وغيرهم أي ممن في بقائه مصلحة ، كمن سيؤمن هو أو من أحد من ذريته .

قال القاضي : ولأهلى شنشنة أعرفها من أخزم . (كذا)

قلت : ومن بقى من خير الموفقين ، دون الموفقين بالإسراف فى قوله : (وأهلكنا المسرفين) فى الشرك والمعاصى .

وقيل : المراد من نشاء المؤمنون .

(لقد أنزلنا إليكم) يا قريش (كتابا) القرآن والذكر الحكيم .

(فيه ذكركم) بذكركم به قومكم ، لأنه بلغتكم ، أو المراد شرفكم ، أو ثناء عليكم ، أو مكارمكم التى تطلبون بها حسن الذكر ، كحسن الجوار ، والوفاء بالعهد ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والسخاء .

وقيل : المراد : تذكيركم .

وقيل : ذكر ما تحتاجون إليه من دينكم .

وقيل : ذكر ما لكم وما عليكم ، ومن شرفه بالشرف وإنما احتاج إلى قيد الإيمان به ، أو إلى أنه مشهور بأنه نزل على نبى عظيم من قريش .

(أفلا تعقلون) فتؤمنون به ، وهذا تحريض .

(وكم قصمنا) أهلكنا (من قرية) ملة الجملة واردة عن غضب شديد ، منادية على سخط عظيم ، لأن القصم كسر تقطع ، وهو الذى يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم بالفاء . واستعير للإهلاك العظيم ، وكم للتكثير .

والمراد بالقرية أهلها تعبيرا بلفظ المحل على الحال ، أو بلفظ أحد المتجاورين عن الآخر ، أو بقدر مضاف ، وذلك بدليل قوله : (كانت ظالمة) أى مشركة ظالمة بالشرك من فيها .

(وأنشأنا) أحدثنا (بعدها) بعد إهلاك أهلها (قوما آخرين) بدلا منهم مكانهم .

(فَلَمَّا أَحَسُّوا) أدركوا (بَأْسَنَا) عذابنا وشدته، إدراك المشاهد المحسوس والواو لأهل القرية، أو لها؛ لأنها قائمة مقامهم، أعني قيام لفظها.

(إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ) يهربون مسرعين راكضين دوابهم، أو شبهوا بمن يركض دابته في الإسراع الشديد، فقال لهم: إنك ومن هناك من المؤمنين، أو لسان الحال، وعلى سبيل الاستهزاء:

(لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ) نعمتم فيه، وترفهتم بلا شكر (وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ) يُطلب فيه من أموالكم، وكانوا أسخياء رياء أو بخلا، أو أسخياء بلا رياء؛ لكن لا ينفعهم؛ فقيل لهم ذلك تهكما؛ أو لعلكم تسألون غدا عما جرى عليكم في أموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، أو ارجعوا أو اجلسوا وتزينوا كما كنتم، فيأتي من يجري عليهم أمركم ماذا نفعل وماذا نترك، أو لعلكم تسألون في النوازل، ويستضاء برأيكم وذلك كله تهكم.

ومن جملة تلك القرى المتصرمة قرية باليمن تهامي: أهلها عرب.

وعن ابن عباس: اسمها حضور وهي وسحول قريتان فيه، تنسب إليهما الثياب. وفي الحديث: كفن رسول الله ﷺ في ثوبين سحوليين. وروي: حضوريين.

وقيل: حضور أرسل الله إليها نبيئا فقتلوه، فأرسل الله عليهم بُخْتَ نَصَّرَ، كما سلطه على أهل بيت المقدس فاستأصلهم.

وقيل: هزموا جيشه مرتين، ونهض في الثالثة بنفسه فهزمهم. ولما أخذ فيهم السيف هربوا مسرعين، وقيل لهم: لا تركضوا إلخ. ونودوا من السماء أيضا: يا لثارات الأنبياء، فندموا واعترفوا، إذ لم ينفعهم الندم والاعتراف.

ومن زعم أن المراد بهذه القرية وحدها فقد أخطأ؛ لأن ذكر القصم

وقيل: قائل لا تركضوا الملائكة بالعذاب بالنار.

وروي أن أهل القرية قتلوا نبياً فسلط عليهم بخت نصر على جهة الخداع والإلزام.

وروي أنهم هربوا، فأمر بخت نصر أن ينادي فيهم: يا لثارات النبي المقتول، فقتلوا بالسيف عن آخرهم.

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا) يا هلاكنا، نداء تفجع بغير «وا» لعدم اللبس، أو استغاثة مجردة عن اللام ونحوها.

(إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) بالكفر والمعاصي وقتل النبي.

(فَمَا زَالَتْ تِلْكَ) الدعوى، أو الكلمة، أو الكلمات (دَعْوَاهُمْ) يرددونها، ويرددونها.

وإنما سماها دعوى؛ لأنهم كالداعي: يا ويل احضر، فهذا وقتك. وتلك اسم زال، ودعوى خبر، أو تلك خبر، ودعوى اسم، والأول أولى لسلامته من التقديم والتأخير، ولأن المراد الإخبار بدوام تلك الدعوى الصادرة منهم، ولأنه لا يظهر الإعراب في واحد منهما فحصل اللبس فتعين كون المقدم هو الاسم، كما أن المقدم هو الفاعل في نحو ضرب موسى عيسى، حيث لا دليل على خلاف ذلك. لكن القياس الثاني زال بتعيينها بغير شاكل؛ لأن كلا منهما هو الآخر، بخلاف المفعول والفاعل.

قال ابن هشام: عن ابن الحاج عن الزجاج: إنه لا خلاف في أنه يجوز كون تلك اسم زال، ودعواهم خبرها، وبالعكس. انتهى.

ولا يقال: كما يمتنع تقديم الخبر على المبتدأ إذا خيف اللبس، فكذلك يمتنع جعل تلك خبراً مقدماً؛ لأنا نقول: محل المنع ما إذا فسد المعنى، وفي الآية صحيح على كل وجه.

(حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا) أى كزرع محصود بالمنجل ، فهو استعارة على أحد القولين ، فى نحو زيد أسد ، مما ذكر فيه المشبه والمشبه به ، بدون أداة التشبيه ، أو الأصل : مثل حصيد ، فهو مجاز بالحذف . وقد علمت أن حصيدا نعت لمحذوف .

ولك أن تجعل حصيدا مصدراً مبالغة ، أو يقدر ذوى حصيد ، أو يؤول باسم مفعول .

ووجه الشبه بالزرع المحصود القطع المستأصل ، وعدم الاجتماع ، شبههم بزرع محصود ، كل قبضة متروكة فى موضعها .

(خَامِدِينَ) ساكنين كسكون النار ، فانطفاؤها كناية عن الموت ، وهو مفعول ثان بعد مفعول ثان .

قيل : هما مثل : جعلته حلوا حامضا ، أى جامعين بين الحصيدية والخمود .

قيل : أو خامدين صفة لحصيدا نظرا للمعنى ، أو حال من ضميره .

وما قيل من أن حصيدا يستوى فيه المفرد وغيره ؛ لأنه فعيل بمعنى مفعول غير صحيح ، وإنما ذلك فى فعول بمعنى فاعل .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) بل دالين على قدرتنا ، ونافعين عبادنا ، وللحساب والعقاب ، والجنة والنار . فمن اعتبر بهما وما فيهما ، وما بينهما من البدائع ، ولم يغتر بالزخارف الدنيوية الزائلة ، فله الجنة الدائمة .

(لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا) ما يلهى به من زوجة وبنين وبنات وغير ذلك (لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا) من عندنا مما يليق لحضرتنا ، أو من جهة قدرتنا ، لا من الأشياء التى مثلها عندكم تعرفونها ، مثل الزوجة من الحور العين ـ حاشاه .

وفى ذلك رد على من يقول : عزير أو عيسى ابن الله ومن يقول : الملائكة بناته .

وقال الحسن : اللهو المرأة بلغة اليمن . وعن ابن عباس : إنه الولد . وروى عنه أيضا : إنه المرأة .

وقيل : من لدنا : من الملائكة ؛ لا من الإنس ، ردًّا لولادة عيسى وعزير عليهما السلام ، ولكن اتخذت الملائكة أن لا تتخذ أمرًا لأنه نقصان .

وفى كتاب لبعض أصحابنا : لا يقال : الله قادر على اتخاذ الولد والزوجة ، ولا غير قادر . وصرح بعض قومنا بجواز ذلك .

(إن كنا فاعلين) لكنا لا نفعل ؛ لأنه لا يليق بنا إرادة فعله . وليس هذا تأكيدا ؛ لأن الإرادة غير الفعل ، وإن شرطية .

وقيل : نافية ، أى ما كنا فاعلين لامتناع إرادته ، وذلك قال القاضى : والجملة كالنتيجة الشرطية ؛ وعلى الأول إن شرطية ، جوابها محذوف ، دل عليه اتخذناه .

(بل نقذف) نرمى . (بالحق) الإيمان والقرآن والرسالة والشرع ، وكل ما هو حق .

وقيل : هو قوله : إنه لا ولد له .

(على الباطل) الشرك وما ليس بحق .

وقيل : قولهم : اتخذ الله ولدا .

(فيدمغه) يذهبه .

وقرئ بضم الميم ، وقرئ بالنصب عطفا لمصدره على الحق ، على حد :

* وَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وتَقَرَّ عينى *

أو على القذف المفهوم ، أى يكون منا القذف بالحق على الباطل فيدمغه . وهذا ضعيف . وعبارة ابن هشام : حدثت أن فى هذه القراءة شذوذا انتهى .

وقيل يقاس حذفها مطلقا فى كل موضع . وقيل : بشرط رفع الفعل فى غير المواضع المشهورة ، مثل ما بعد لام كى .

ووجه الضعف : أنه لم يتقدم نفى أو طلب . والإضراب عن اتخاذ اللهو واللعب ، وتنزيه منه إياه . أى ليس من عادتنا اللهو . بل تغليب الحق على الباطل .

والقذف : الرمى البعيد المستلزم لصلابة المرمى . وذلك حقيقة فى الأجسام ، فاستعير لإيقاع الحق على الباطل ، واشتق منه يقذف بمعنى نوقع الحق عليه .

والدمغ : كسر الدماغ بحيث يخترق غطاءه ، فتزهق الروح ، استعير لإذهاب الباطل ، واشتق منه يدمغ بمعنى يذهب ، أو شبه الحق بنحو حجر ، والباطل بنحو إنسان ، فنسب القذف للحق ، والدمغ والزهوق للباطل ، نسبة إيقاعه ، إلا الزهوق فنسبته وقوعية . كذا ظهر لى . ويحتمل غير ذلك ، كما تعلمه من شرحى على شرح عصام الدين .

(فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) ذاهب الروح ، فهو ترشيح للاستعارة ، إذا جعلنا الباطل مستعملا فى الإنسان ، أى أطلق ، وأريد به الإنسان مجازاً لا الإنسان حقيقة أوْ لا استعارة بيدمغ .

(وَلَكُمُ الْوَيْلُ) العذاب الشديد ، أى واد فى جهنم يا كفار مكة ، أو الخطاب لجميع الكفار .

(مِمَّا تَصِفُونَ) ما مصدرية ، أو موصولة ، وعليهما فالرابط محذوف ، أى مما تذكرونه ، وتقولونه فى الله .

وأما قول بعضهم : إن الأصل مما تصفون الله به فضعيف ؛ لأن هذا الرابط المجرور لم يتعلق بما تعلق به الموصول ولم يجر بما جرّ به ، فإن ما مجرورة بمن ،

متعلقة بما تعلق به لكم من معنى الاستقرار ، أو بمحذوف حال من ضمير الاستقرار ، ومن جوّزه للتعليل أو الابتداء ، على معنى أنه تحصل لكم الويل ، وخرج لكم مما تصفون ، والمراد بجرّ فهاه بالباء متعلقة بتصفون [illegible]

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) خلقا وملكا [illegible] [illegible] خزائن [illegible] بالأولوية [illegible] [illegible] في كل الأرض [illegible] السماء [illegible] . ويصرف معنى من في جانب السموات إلى الملائكة [illegible]

وقيل [illegible] في السموات [illegible] [illegible] بلا [illegible]

(وَمَنْ عِنْدَهُ) هم الملائكة ، ومن العندية قرب المنزلة [illegible] ، أو عبّر بعنده لأنهم [illegible] الأصيل الذي [illegible] السموات ، ومن [illegible] عند الله الذي هو في كل مكان لا عندنا ، ومن مبتدأ خبره (لَا يَسْتَكْبِرُونَ) لا يتعظمون (عَنْ عِبَادَتِهِ) طاعة.

(وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) لا يعيون ولا يعجزون فينقطعوا عنها .

ويقال : حسر الوادي ، أي انكشف أرضه بزوال الماء ، وحسر عن رأسه : كشف ، وحسير : تعب وأعيي [illegible] للمبالغة ، والمبالغة راجعة للنفي ، أي انتفى عنهم الحسور انتفاء بالغا ، على أحد الأوجه في نحو : «وما ربك بظلام» ، أو النفي مع الراجع للمبالغة ، على معنى أن ما هم فيه يوجب غاية الحسور ، لكنهم لم يحسروا غاية الحسور ولا أدناه .

والمراد : أنكم يا كفار لكم الويل على كفركم ، وليس الله بمحتاج إلى عبادتكم ، فإن عنده من يداوم على العبادة ، ولا يعيى عنها ، مع أنه الله غني عنها أيضا .

وقيل : مَن معطوف على مَن عطف خاص على عام لمزية الذين عنده وهم الملائكة ، أو اعتبر أن مَن عنده أعم من جهة أن يراد الملائكة الذين فى السموات والذين فى الأرضين ومخصوص بين السماء والأرض ، وبين السموات وبين الأرضين ، فلا يبقى إلا مَن فى الأرض من غيرهم فلا بعضهم ، أو اعتبر أن مَن عنده نوع من الملائكة ليس فى الأرض ، ولا فى السماء ، بل بين السموات وبين السماء والأرض .

(يُسَبِّحُونَ) أى ينزهون الله (اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ) عن التسبيح حال من واو يسبحون ، أو واو يستحسرون ، والحال مقدرة .

وعن كعب الأحبار : التسبيح لهم كالنفس لبنى آدم كما لا يشغله منهم شىء ، كذلك لا يشغلهم شىء عنه .

قيل : ولا بدّ لهم منه ، كما لا بدّ لنا من طعام وشراب ، فهم . قرن به وعن أبى ذر وابن عباس وعائشة وأنس وعطاء عنه ﷺ : إنى أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون . أطّت السماء ، وحُقّ لها أن تئط ، ليس فيها موضع شبر ، ولا أربع أصابع إلا وعليه ملك قائم ، أو راكع ، أو ساجد .

(أَمِ) بمعنى بل الإضرابية والهمزة الإنكارية وهى منقطعة (اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ) من للابتداء (الأَرْضِ) مثل الحجر والخشب والذهب والفضة ، ومن متعلقة باتخذوا ، أو بمحذوف نعت لآلهة . وعليه فيجوز فيها أن تكون للتبعيض ، ويجوز جعل اتخذ تصيرها والجار والمجرور متعلقاً بمحذوف مفعولا ثانياً . والمراد بذلك تحقير الآلهة المأخوذة من الأرض .

(هُمْ يُنشِرُونَ) أى أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض .

ويجوز كون هذه الجملة هى نعت آلهة ، أو مفعول ثان ، ومن متعلق بينشرون

وإن قلت: زعم بنكرون البعث وإنما. دان أتى به بعضهم فليس ينفيه الاجماعي

قلت: نعم لكن أثبت لها نشر الموتى على ما يقتضيه ادعاؤهم أنها ... وفي ذلك تجهيل لهما وتهكم وتوبيخ إن كانت آلهة، فمن اللازم الألوهية القدرة على جميع الممكنات، فهل تقدر آلهتكم على البعث؟!

قال جار الله: وفائدة قوله: هم، الاختصاص والإشعار بأنهم ... اتخذوا آلهة تختص بالبعث للموتى.

قلت: لم يظهر لي أن فائدة الضمير الحصر، إلا إن كان يستفاد منه في العرف أو بوهمه.

وقرأ الحسن بفتح الياء وضم الشين، يقال: أنشر الله الموتى ونشرها.

ويصح أن يراد بقوله: من الأرض، الإشعار بأنها الآلهة التي في الأرض لا التي من السماء، وهي الله والملائكة، فإن من العرب من يعبدهم.

وسأل ﷺ أمة: أين ربك؟ فأشارت إلى السماء، ففهم منها أن مرادها نفي الآلهة الأرضية وإثبات الله سبحانه، لا إثبات السماء مكانا له، ولا إثبات الألوهية للملائكة، فقال لها: مؤمنة.

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا) في الجنسين، أحدهما السموات والآخر الأرض.

(آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) لوجد فيهما ... الله الرعية وسائر الأملاك ... جديد المالكين فكيف بملك من ... من العذاب والتخالف؟!

قال عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعد الأشدق: كان والله أعز عليّ من دم ناظري، لكن لا يجتمع فحلان في شول. فهذا يريد أن يكون السموات والأرض على صفة كذا، وهذا على صفة كذا، وهذا يريد أنه يطلع

من قبيلها كذلك . ومعنا يريد غير ما أراد ذاك ، وذلك على وقف الماها عند مراد أحدكم .

فلو أراد أحد الآلهة تحريك شيء وأراد الآخر تسكينه ، فإما أن يقع المرادان وهو محال ؛ لأنه جمع بين الضدين ، وإما أن لا يقع واحد ، وهو محال أيضاً ؛ لأن مانع مراد كل هو مراد الآخر ، فلا يمنع مراد واحد إلا عند وجود مراد الآخر .

وإما أن يقع واحد دون الآخر ، وهو محال ؛ لأن كل قادر على ما لا نهاية له فستوى الآلهة في القدرة . فإثبات الألوهية لأحدهما ، وإثبات وقوع مراده ترجيح بلا مرجح ، ولأنه إن وقع مراد أحدهما دون غيره ، فالذي لم يقع مراده عاجز ، فليس بإله .

وإن فرضنا آلهة قادرة على جميع الممكنات غير مختلفة الإرادة ، فالفعل الواحد إنما يصدر من واحد ؛ إذ لا يشترك اثنان في فعل . ومهما تخيل شيء من ذلك ، فقد اختص كل واحد بجزء ، وباشره هو لا غيره . وكل موجود دليل على وجود الله تعالى . أشار إلى ذلك الفخر .

وإيضاحه : أنه لو كان معه إله آخر ، لم يخل إما أن يختلفا في الإرادة على إرادة حكم التضاد ، أو يتفقا . والتالي بقسميه محال ، فالمقدم مثله .

أما الملازمة فدليلها وجوب عموم تعلق إرادة الإله وقدرته وسائر صفاته المتعلقة . فلو كان ثم إلهان لوجب تعلق إرادة كل واحد منهما له وقدرته بكل ممكن . ومتى تعلق بالفعل إرادتان ، لم يخل من الاتفاق عليه أو التباين . أما بطلان التالي فببطلان طرفيه ، وهما الاختلاف والاتفاق .

في إثبات بطلان الطرف الأول [illegible] أن نقول [illegible] لو اختلفا في
فعل ، بأن أراد أحدهما وجود الجسم ، وأراد الآخر [illegible]
[illegible]
[illegible] مستحيل ، لما يؤدي إليه من اجتماع النقيضين [illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible] لزم عجز الإلهين ، لتعذر الفعل من كل واحد منهما [illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
ثبوت المانع ، أو حصول المنع من غير مانع ، إن لم يثبت المانع [illegible]

وإن كانت إرادة [illegible]
[illegible] إرادة الإله وقدرته [illegible] عليه العجز [illegible] فيلزم أيضاً قبل
عجز الذي نفذت إرادته ، لأنهما مثلان . واستحال ذلك أيضاً بلزوم ترجيح أحد
المثلين بلا مرجح [illegible] وإن فرض المرجح فلزم عجز الذي نفذت إرادته كما مر ، ولزم
حدوثهما .

وأما بطلان الطرف الثاني من التالي ، وهو الاتفاق ، فمن أوجه : لأن
الاتفاق إما واجب أو جائز . فإن وجب لزم كون أحدهما مقهوراً ، إن قدر
الآخر على الترك ، وإلا فمقهوران . ولزم من قهر أحدهما قبل قهر الآخر ؛ لأنه
مثله ، ولزم الافتقار إلى المرجح في تخصيص أحد المثلين بما لم يثبت لمثله .

ولزم من الاتفاق الواجب انقلاب الممكن مستحيلاً ؛ لأن كل واحد منهما ،
إن نظرنا إليه منفرداً ، أمكن أن يوجد كلا من الحركة والسكون مثلاً ؛ لأنه

بالفعل لاجزءه. فإذا فرضنا تعلق إرادة أحدهما بخصوص الحركة مثلاً، صار وقوع السكون الممكن من الآخر مستحيلاً، وذلك قلب الحقائق. كذا قيل.

وأيضاً كون المانع له تعلق إرادة الآخر بضده، ويلزم منه إيجاب المانع حكم للمنع للعالم بغير وجه، وذلك كله مستحيل.

ويلزم أيضاً في الإلهية في الواجب عدم وجوب الوجود لكل واحد منهما؛ لأن وجوب الوجود إنما يثبت للإله من حيث توقف وجود الحوادث عليه؛ لئلا يلزم التسلسل أو الدور، بعد تقدير جواز وجوده.

فإذا قدر أن ثم إلهين لم ينفرد أحدهما عن الآخر بشيء، بل هما متفقان أبداً لزم عدم توقف الحوادث على خصوص كل واحد منهما فلا يتحقق وجوب الوجود لكل واحد منهما؛ إذ على تقدير عدمه تستغني الحوادث عنه بصاحبه، والإله متحقق وجوب وجوده.

وإن قلت: يكون وجوب الوجود متحققاً لأحدهما لا بعينه.

قلت: فيثبت جواز الوجود لأحدهما لا بعينه، وتماثلهما يمنع من اختلافهما وجوباً وجوازاً.

وإن قلت: ندعي أن الفعل يستحيل بأحدهما عن الآخر لا يوجد إلا بهما فوجودهما واجب.

قلت: فيلزم أن يكون كل واحد منهما جزءاً للإله لا إلهاً، فيقوم بكل واحد منهما جزء العلم، وجزء القدرة، وجزء الإرادة، إلى غير ذلك، مما لا يقوله به عاقل.

وإذا كان التركيب من جزءين متصلين محالاً فما بالك بتركيبه من جزءين منفصلين.

ولزم أيضاً من أن يوجد أيضاً المركب بكل منهما إذا تمكن فيحتاج لكل واحد منهما ، فيه غنية عن كل واحد منهما ، وهو جمع بين متنافيين .

وإن لم يجب اتفاقهما بل جاز اختلافهما ، لزم قبولهما العجز . وكلما كان الاتفاق جائزاً كان الاختلاف جائزاً ؛ لأن جواز أحد المتقابلين يستلزم جواز الآخر ، والقابل للاختلاف قابل العجز ضرورة . والجواهر والجسم عندنا قابلان القسمة .

وزعم قومنا أن الجواهر جسم دقيق لا نهاية ، وأن العرض لا يقبلها .

ومذهبنا أن الجوهر والجسم واحد ، وأن العرض يقبلها فلو بنينا على زعم قومنا ، لزم أن تنفذ فى ذلك الذى لا يقبل القسم ، إرادة واحدة ، وقدرة واحدة . فمن لم تنفذ إرادته وقدرته فعاجز ، فليس بإله . وإن لم تنفذ إرادتهما وقدرتهما فعاجزان ، والإله لا يوصف بالعجز ؛ لأن العجز إما قديم وهو محال ، لأدائه إلى استحالة اتصاف الإله بالقدرة . وفى اتصافه بها مع العجز ، لزم اجتماع الضدين .

وإن اتصف بها بعد عدم العجز ، لزم عدم ما ثبت قدمه . وإما حادث وهو محال ؛ لأنه إذا كان حادثا فضده وهو القدرة قديمة . فإن اتصف بالعجز مع وجود القدرة ، لزم اجتماع الضدين ، وإلا لزم عدم القديم كما مر آنفا . والعجز فى الحى نقص ، ويلزم على اصطلاح الإلهين عجزهما واحتياجهما أو عجز أحدهما واحتياجه ؛ إذ ليس أحد يطلب الصلح أو يرضى به إلا لجر منفعة ، أو دفع مضرة ، أو لعجزه عن القيام بالكل .

وإن قلت : فليقسم العالم بينهما قسمين ، كل واحد قادر على قسم .

قلت : الإله يجب عموم إرادته وقدرته . فإذا عمت لزم تعلق إرادة كل وقدرته لكل ممكن ، فيلزم التمانع بينهما .

وأيضا أحد النوعين الذى تعلقت به إرادة أحدهما أو قدرته ، إن ماثل النوع الآخر الذى هو مقدور الإله الثانى ومراده ، لزم عموم قدرة كل منهما وإرادته للنوعين ، ضرورة أن القادر على أحد المثلين قادر على مثله . وإن كان أحدهما جسما والآخر عرضا ، فهو محال من وجهين :

أحدهما : أن الجواهر والعرض لما لم يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر ، استحال تصور القدرة على أحدهما بدون الآخر .

ثانيهما : أن التمانع لا ينتفى بذلك على تقدير تسليمه ؛ لأنه من الجائز أن يريد أحدهما وجود الجواهر ، والآخر عدم العرض ، أو بالعكس . ونفوذ الإرادتين مستحيل ، فيلزم عجزهما ، أو عجز أحدهما .

وأيضا اختصاص أحد الإلهين بنوع دون نظيره ، يلزم فيه التخصيص من غير مخصص ؛ إذ ليس اختصاص أحدهما بنوع بأولى من اختصاص الآخر به ، فإن فرض ثم مخصص لهما بما اختصا به لزم حدوثهما . وهذا التخصيص لو كان باختيارهما لأمكن منهما تركه ، بأن يتصرف كل فى مقدور الآخر ومراده . والتالى باطل للزوم التمانع ، فالمقدم وهو كون التخصيص باختيارهما باطل ، فالتخصيص إما من الغير ، وذلك تخصيص بلا مخصص أو منهما ، وكل ذلك محال ولو تعدد الإله ، فإما بتعدد الممكنات وهو محال لما فيه من وجود ما لا نهاية له .

وإن قلت : لا يلزم وجود ما لا نهاية له ؛ لأن المراد بالممكنات ما سبق به قضاء الله لا كل ما يمكن فى العقل .

قلت : يلزم وجود الممكنات التى لا توجد مستقبلة بل الممكنات التى توجد لا نهاية لها ، كنعيم الجنة ، وعذاب النار . وفى التعدد بقدر الممكنات تأخر بعض الآلهة عن بعض ، وإما لا يتعدد الممكنات وهو محال ، لاستلزام الجواز والحدوث ،

لافتقار وجود الآلهة على عدد مما لا حصر له ، ولا تميزه من الأعداد التي ولية عقلا بالنسبة إليها إلى كامل لا حصر له ، وإلا لزم ترجيح أحد المتساويين بلا مرجح .

وإن قلت : يلزم مثل هذا في الوحدة لأن وجوده على هذه دون تعدد يفتقر إلى مخصص .

قلت : قام البرهان على أن الإله واجب الوجود ، ولا يتحقق الوجود دون ذات واحدة . والزائد منها مستغنى عنه . وفي الآية إيراد حجة المطلوب ، ويسمى ذلك المذهب الكلامي .

الإعراب : مجموع إلا الله نعت آلهة . والإعراب على آخر الجزأين والجزء الأول حرف ، وهو إلا . قال الصمد : إجماعا . وأجاز الدماميني أن تكون وحدها نعتا ، وأنها اسم ، نقل إعرابها لما بعدها ، لكونها على صورة الحرف

والمعنى على كل حال : لو كان فيهما آلهة مغايرة لله ، أي انتفى عن كل واحد منهما أن يكون هو الله تعالى . ولذا صح وصف ذلك الجمع المنكر بقوله : إلا الله وليست إلا للاستثناء ؛ لأن المعنى حينئذ : لو كان فيهما آلهة إلا الله لم يكن فيهما لفسدتا .

ومفهوم هذا المعنى أنه لو كان فيهما آلهة فيهم الله لم تفسد ، أو ليس كذلك ؛ فإن الفساد يترتب على تعدد الآلهة مطلقا .

وأيضا آلهة جمع منكر في الإثبات ، فلا عموم له ، فلا يصح الاستثناء منه . ولو قلت : قام رجال إلا زيد لم يصح ، خلافا لبعض الأصوليين ، فإنه أجاز استعماله عاما .

وأجاز المبرد أن يكفي في الاستثناء صحة التناول ، بل لابد من التناول بالفعل . وعليه فيصح المثال .

والتحقيق أنه يعتبر دخول زيد فى الرجال ، وأنه واحد منهم على معنى قام رجال فيهم زيد ، لكن لم يقم . وأما « إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إلا آل لوط » فالاستثناء منقطع ، أو متصل ، على أن المراد بالقوم المجرمين : قوم لوط كما قال : « إنا أرسلنا إلى قوم لوط » ولكن الحكم بالإجرام حكم على المجموع .

وقال المبرد : « إلا » فى الآية للاستثناء وما بعدها بدل ، محتجا بأن لو تدل على الامتناع ، وامتناع الشيء انتفاؤه . وزعم أن التفريغ بعدها جائز ، وأن نحو لو كان معنا أحد إلا زيد أجوز كلام . انتهى .

وقد مر عنه أنه يكتفى بصحة الدخول ، وإن لم يدخل بالفعل ، لكن التحقيق عند الأصوليين أن دلالة الجمع المستغرق على الواحد بالمطابقة ، وأن أفراد الجمع آحاد .

ويرد كلام المبرد فساد مفهومه ـ كما مر ، وأنه لا يقال : لو جاءنى ديار لأكرمته ، بذكر ديار المختص بالنفى بعد لو ، ولو جاءنى من أحد أكرمته ، باستعمال أحد ، وهو مثل ديار بعدها ، وبزيادة من وهى تزاد بعد النفى ونحوه . ولو كان امتناع « لو » قائما مقام النفى لصح أن يقال ذلك ، كذا فهمت من كلام ابن هشام .

ويجاب بأن الاستثناء يوسع فيه . ألا ترى وقوع التفريغ بعد أبى والاستفهام الإنكارى ، نحو : « ويأبى الله إلا أن يتم نوره » « ومن يغفر الذنوب إلا الله » كما أشار إليه فى التوضيح وغيره .

وقال الشلوبين وابن الصائغ : لا يصح المعنى حتى تكون إلا بمعنى غير التى يراد بها الوصف لا البدل .

ومورده أن المفهوم حينئذ أنه لو كان فيهما آلهة ليست بدلا من الله بل هو معها لم تفسدا ، وهو باطل ، إلا إن اعتبر مفهوما آخر، هو أنه لو لم تكن فيهما آلهة بدلا من الله ، بل كان الله وحده لم تفسدا ، وإنما امتنع الاستثناء امتنع الإبدال لتفريعه عليه، واشتراط كونه من غير موجب .

(فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) عما يصف المشركون به من الشركة أو الجحود، ومن الولادة والزوجة .

قيل : العرش : جسم عظيم محيط بجميع الأجسام ، كيف يوصف خالقه ومالكه بتلك النقائص .

وقيل : العرش : الكرسي .

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) من إيجاد وإعدام ، وإعزاز وإذلال ، وإسعاد وإشقاء ، وإضلال وهداية ، وغير ذلك سؤال رد ، وذلك لعظمته وسلطانه وتفرده بالألوهية ، وكل ما فعل فهو على حكمة . وذلك على ظاهره ، أو كناية عن كونه في غاية العظمة والملك والحكمة والإتقان ، وليس في فعله خلل فضلا عن أن يرد عليه .

(وَهُمْ يُسْأَلُونَ) عما يفعلون ؛ لأنهم مملوكون مستعبدون يخطئون ، سؤال توبيخ وسؤال تقريع والضمير للناس كلهم وللمشركين أخوانهم ، أو سؤال توبيخ على ما قرر في غير هذه الآية ، أو للآلهة المعبودة فتقول للملائكة وعيسى وعزير والأصنام : لم ترض عبادتهم ، وإنا نلعنهم . ويجوز سؤال عالم عن شيء على جهة الاعتبار ، لا على جهة التفكر في الخالق ، ونحوها .

روى أن موسى عليه السلام قال : يا رب إنك عظيم ، ولو شئتَ أن تطاع لأُطِعتَ ، ولو شئتَ أن لا تُعْصَى لما عُصيتَ ، وأنت تحب أن تطاع ، وأنت مع ذلك تُعْصَى .

فأوحى إليه : لا أسأل عما أفعل ، وهم يُسألون .هذا مخزون علمي، فلا تسألني عنه . فأعاد السؤال .

فقال له : لا أسأل عما أفعل .

فأعاد فقال له : هل تقدر أن تصر صرة من الشمس ، وتقدر على رد أمس ؟

فقال : لا يارب .

فقال له : فقد نهيتك عن السؤال عن هذه المسألة . فإن عدت إليه ، جعلت عقوبتك محو اسمك من أسماء الأنبياء أو النبوة ، فلا تذكر إذا ذُكروا . فكف عن السؤال عنها .

وسأل عنها عيسى أيضاً ، فأوحى إليه : أن عزيرا سألني عن هذه المسألة ، فكان من أمره كذا وكذا ، فكف عيسى أيضاً – عليهم السلام .

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) مثل الدعوى ، وأعاده استعظاما لكفرهم، وليطلب عليه منهم الحجة بقوله :

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) على ذلك من العقل أو النقل ؛ إذ لا يصح قول بلا دليل . كيف وقد تطابقت الحجج على بطلانه عقلا ونقلا ، أو الأول بمعنى : هل وجدوا آلهة ينشرون الموتى فاتخذوهم آلهة ، لما وجدوا من خواص الألوهية ، وأعقبه بما يدل على فساده عقلا ، وهو قوله : « لو كان » الخ والثانى بمعنى هل وجدوهم آلهة فى الكتب الإلهية فاتخذوهم ، وأعقبه بما يدل على فساده نقلا ، وهو « قل هاتوا » الخ .

(هَـٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ) أمتى وذكرهم القرآن (وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي) من الأمم . وهو التوراة والإنجيل وغيرها ، وهل وجدتم فى واحد منها إلها آخر . والإشارة إلى جميع الكتب ، جعلت كأنها شىء شىء حاضر محسوس ، أو إلى القرآن ؛ فإنه متضمن ما فى غيره ، وما فيه كان فى الكتب السابقة .

وقيل : مَن معى : مسلمو أمتى ، ومَن قبلى : مسلمو الأمم .

وقيل : المراد بذكر مَن قبلى التوراة والإنجيل .

وإنما أضيف الذكر إلى مَن معه ومَن قبله ؛ لأنه عِظتهم أو شرفهم .

وبعث الرسل يمكن عقلا مع التوحيد ، ومع التعدد . وكذا إنزال الكتب فصح الاستدلال بالنقل .

وقرئ بتنوين الذكرين ، فمَن بعدها مفعول به . وذلك من إعمال المصدر المنوّن ، جعله جار الله أصلا لإضافة المصدر لمعموله .

وقرئ بتعريفهما وإسقاط الميم بعدها ، فذلك جرّ لهم . وقيل : من وإدخال من الجارة على مع غريب .

وقرئ بتنوينهما وإسقاط مَن ، والظرفان نعت الذكرين .

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ) هو توحيد الله ، لا يميزونه من الباطل وهو الشرك ، كذا قيل .

والتحقيق أن المراد ماهية ما هو حق ، فينتج منه أنهم لا يعلمون هذا الفرد العزيز الذى هو التوحيد الذى تضمنته الماهية

ويجوز أن يكون الحق مفعولا لمحذوف ، أى أمدح الحق ، وهو التوحيد ، أو مفعولا مطلقا ، أى حق التوحيد الحق الكامل .

وقرئ بالرفع ، أى الممدوح الحق ، وهو التوحيد ، أو التوحيد الحق ، أو الحق التوحيد . وعلى النصب بمحذوف والرفع ، تكون الجملة معترضة لتأكيد بين السبب الذى هو عدم العلم ، والمسبب الذى هو الإعراض المشار إليه بقوله : (فَهُمْ مُعْرِضُونَ) من التوحيد واتباع الرسل والكتب .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحَى إِلَيْهِ) وقرأ حفص وحمزة والكسائى نوحى بالنون وكسر الحاء (أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) وهذا

تكرار لقوله « هـذا ذكر مَن معى وذكر مَن قبلى » تأكيدا . وإن أريد بالذكرين القرآن والتوراة والإنجيل فهو تعميم بعد تخصيص كذا قيل .

والظاهر جواز كونه تكريراً وتأكيداً أيضاً على هذا، نظراً إلى أن الثلاثة متضمنة لسائر الكتب . وكذا إن أريد بالذكرين معاً القرآن والكتب ولو كانت أقل من الرسل ، لكن مَن لم يكن له كتاب منهم يجرى على كتاب مَن قبله أو معه .

والواو للرسل نظراً للمعنى ؛ لأن المعنى : وما أرسلنا قبلك الرسل إلا يوحى إليهم أنه الخ ، أو الواو للكفرة ، أو للناس ، أى إذا قام عندكم دليل التوحيد فاشهدون ، أى أطيعونى ، أو وحّدونى .

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) نزلت فى خزاعة قالوا : إن الملائكة بنات الله .

وقيل فى طائفة من اليهود قالوا : إنه تعالى صاهر الجن ، فكانت منهم الملائكة . وقالت اليهود : عزير ابن الله . وقالت النصارى المسيح ابنه .

(سُبْحَانَهُ) تنزيه عن الولادة ومقدماتها .

(بَلْ عِبَادٌ) أى بل هم عباد . وإنما جمع لأن الولد يطلق على الثلاثة فما كثر كما يطلق على أقل .

(مُكْرَمُونَ) مفضّلون على غيرهم لما فيهم من أحوال وصفات ليست فى غيرهم ، لا لأنهم أولادى وإنما هم خلق خلقتهم بقدرتى للعبودية والخدمة ، والولادة تنافى العبودية .

وقرئ بفتح الكاف وتشديد الراء .

(لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ) لا يقولون شيئاً قبل أن يقوله ، وهم بهذا فى غاية الأدب . والسبق إنما هو القول ، أى لا يسبق قوله ، ولكن أسند إلى الذات

استهجانا له. وإنما أنيب أل عن الضمير اختصارا وتجافيا عن تكرير الضمير، فإنه لو قيل: لا يسبقونه بقولهم ففيه ضميران: الواو والهاء المتصل بها الهم لواحد.

وقرئ بضم الباء دلالة على غاية الفاخر، أى ليس من شأنهم اكتساب السبق ومعاناته. ولك أن تقول: أل للحقيقة.

(وَهُمْ بِأَمْرِهِ) بإذنه لا بغيره، متعلق بقوله: (يَعْمَلُونَ) لا يعملون إلا ما أمرهم به كما لا يقولون إلا بما قال.

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) أى ما قدموا؛ لأن ما وقع كأنه شىء حاضر بين الأيدى أو مضى وانقطع، من الحيث أنه موجود.

(وَمَا خَلْفَهُمْ) ما أخروا، وبفتح العكس، فلإحاطة علمه بهم، راعوا أحوالهم، وحفظوا أوقاتهم، لخوف العقاب، وللإجلال.

قيل: ما قبل خلقهم وما بعده.

(وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) إلا لمن رضى الله أن يشفعوا له مهابة منه، فهو لموافقة المجرد، أو الزيادة للمبالغة. فإذا كان مرضيا عند الله فشفاعتهم إنما هى تعظيم، وزيادة ثواب من الله بواسطتهم، قد سبق به القضاء.

(وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ) مهابته (مُشْفِقُونَ) من للابتداء، أو للتعليل. والخشية: أصلها الخوف مع التعظيم، ولذلك خص بها العلماء، والإشفاق: احتراق القلب من الفزع وشدة توقع المكروه.

وعن بعض: الإشفاق: خوف مع اعتناء، وأنه إن عدى بمن فمعنى الخوف فيه أظهر، أو بعلى فبالعكس. رأى ﷺ ليلة الإسراء جبريل ساقطا كالحلس من خشية الله سبحانه.

(وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ) أى من الملائكة : (إِنِّى) وسكن الياء غير نافع وأبى عمرو (إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ) أى إله غير الله .

(فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ) هذا تفهيم لأمر الشرك ، وتهديد للمشركين ـ وقد سبق فى علمه أنهم لا يشركون ، فإنهم جُعلوا جَبْل من لا يعصى .

وزعم بعضهم أن المراد بمَن يقل إبليس ، وأنه منهم ، أو مِن بينهم ؛ لأنه فيهم قبل إظهار شقائه . ورُدّ بأنه لم يَرِدْ قط أنه ادعى الربوبية .

قلت : بلى ، فإنه كثيرا ما يقول للناس : اسجدوا لى ، كما روى عنه ـ لعنه الله ـ مع امرأة أيوب . وكثيراً ما يدخل فى جوف الصنم ويتكلم ، فيُعبد الصنم على رسمه إلى غير ذلك . وقد قال الشيخ إسماعيل : إنه يدعو إلى عبادة نفسه فافهم

وقيل : المراد من الجملة : الخلق .

(كَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ) من ظلم بالإشراك ، بادعاء الربوبية من غير الملائكة ، أو كذلك نجزى من ظلمه غير ذلك الإشراك الذى هو ادعاء الربوبية ، بل شِرك آخر ، وكبائر أخرى ، من الجملة : الخلق .

قال بعضهم : تقرأ من قوله جل وعلا : « وما أرسلنا من قبلك مِن رسول إلا نوحِى ـ إلى ـ الظالمين » سبع مرات لقصم الجبار ، على تراب مجموع من قبر مسلم ونصرانى ويهودى ومجوسى ومن بيت جبار قديم ومِن دار خراب ودار خراب موقوف وترش التراب فى منزله كل أربعاء مِنْ آخر الشهر حتى تتم السنة أو تكتبها وترش بمائها منزله كذلك .

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أَوَلم يعلموا . وقرأ ابن كثير بإسقاط الواو ـ (أَنَّ السَّمَاوَاتِ) أى هذه الجملة التى هى سموات ، ولذا قال : كانتا ولم يقل : كنَّ .

(وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا) ذاتَى رتقٍ ، أو مرتوقتين ، أو أخبر بالمصدر مبالغة . والرتق : الضم . كانت السموات شيئا واحداً والأرض شيئا واحداً .

(فَفَتَقْنَاهُمَا) سموات وأرضين ؛ أو كانت السموات متصلات ، كورقة على ورقة ، والأرضون كذلك ، فرفعت كل عن الأخرى ؛ أو كانت السموات ملقاة على الأرض ، فرفعت وفتقت ؛ أو كانت السموات والأرضون شيئاً ، ففتق سموات وأرضين ، وهو قول ابن عباس .

وعن كعب : كانتا ملتزقتين ، فخلق ريحاً وسطها ففتقها .

وقيل : معنى كون السموات رتقا لا تمطر ، بناء على أن السموات كلها لها مدخل فى الإمطار ؛ أو المراد السماء الدنيا ، وجمعت باعتبار الآفاق ، ومعنى كون الأرض رتقا لا تنبت ، ففتقهما بالإمطار والإنبات ، وهو قول الكلبى . ولم أبحث من أصحاب الأقوال السابقة .

وعن الزجاج : السموات جمع أريد به الواحد ، ولذا قال : كانتا بناء على قول الكلبى ، وفتقت بعد الرفع قبل ويناسب قول الكلبى : وجعلنا من الماء كل شىء حى .

وقالت فرقة : كانتا رتقا بالظلمة ، ففتقهما بالضوء .

قيل : والرؤية على هذين القولين : قول الكلبى وقول الفرقة : رؤية عين .

قلت : لا تكون بالعين بل بالقلب ، فإنهم لم يكونوا موجودين فى حال كونهما ظلماوين ، ولا فى حال كون السماء لا تمطر ، والأرض لا تنبت .

والمراد : ألم يعلموا أن الأمر قد كان كذلك ؟

وإن قلت : من أين علم الكفرة ذلك حتى قال : « أو لم ير الذين كفروا » ؟

قلت : ما قال ذلك إلا بعد نزول ما يعلمون به ذلك فى القرآن . والقرآن معجزة يوجب العلم ، أو بعد ما علموا ذلك من الكتب السابقة، كالتوراة والإنجيل بواسطة علمائها ، أو قال ذلك لأن لهم نظراً يوصلهم إلى ذلك لو استعملوه ؛ فإن العقل كون السموات والأرض متصلتين ، وكونهما منفصلتين ، فلا بد من كونهما على أحد الشقين ، وهو الانفصال من مختار مخصص .

هذا . ولك أن تجعل الرؤية مطلقا رؤية بصر ، يجعل ذلك كأنه شىء محسوس لقوة الدلالة .

وقرئ رتقا ، بالفتح للراء والتاء معا ، أى شيئا مرتوقا كالرفض بمعنى المرفوض .

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) الجعل بمعنى الخلق ، فله مفعول واحد أى خلقنا من الماء كل شىء حى .

معنى خلقه منه : أنه جعل الماء أعظم ما بنى عليه ؛ فإنه مخلوق من النطفة . والنطفة إنما هى من ماء وطعام ، والطعام إنما هو من الماء ، وبعد خلقه يحتاج إلى ما يتقوت به ، ولا قوت إلا من الماء ويحتاج إلى الماء نفسه للشرب وغيره ، احتياجا شديداً ، ولا يكاد يصبر عنه ، فكأنه مخلوق منه بعينه لذلك ، ولكونه لا يحيى إلا به ، كقوله : « خُلق الإنسان من عجل » ودخل فى الشجر والنبات ، فإنها خلقت بالماء ، وبه تحيى .

وأيضا خُلق أبونا وتراب .

وقيل : والنخل بقية من طينته . فالحيوان كله من الماء ولو اختلفت خلقته منه .

وقيل : الماء : النطفة . فالحى : الحيوان : الإنس والدواب إلا آدم وعيسى . قيل : والجن ، وإبليس ـ أبعده الله .

والحق أن الجان منهم من يُخلق من النطفة ، بل هو غالبهم . والملائكة أحياء لا من ماء ، ولا بماء ، ولا من نطفة . وقرأت بالخروج ما أخرجاه من السموم والضمة .

وعن أبى هريرة : أتيت النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله إذا رأيتك طابت نفسى ، وقرت عينى ، فأنبئنى عن كل شىء .

فقال : كل شىء خُلق من الماء .

فقلت : نبئنى بما إذا أخذتُ به دخلتُ الجنة .

فقال : أفشِ السلامَ ، وأطِبِ الكلام ، وصِلِ الأرحام ، وقم الليل والناس نيام ، تدخل الجنة بسلام .

ويصح كون جَعل تصييرية ، فمن الماء مفعول ثان ، وحىّ نعت كل شىء ، أو كل على كل حال .

وقرئ بنصب حى نعتا لكل ، أو مفعولا ثانيا لجعل التصييرى ، فيكون من الماء متعلقا بجعل .

ويصح أيضا تعليقه بحيًّا إذا جعل مفعولا ثانيا . ويبعد كون حى بالجر نعتا لكل وجر للمجاورة .

وإن قلت : إذا كان حيا مفعولا ثانيا عم الشىءُ الحيوانَ وغيره .

قلت : لا يعم إلا ما هو حى ، فإن ما هو كالحجر لا يتوهم أنه مجعول حيًّا .

قال ابن هشام : أل فى الآية الحقيقية ، لا تخلفها كل ، لا حقيقة ولا مجازا .

وبعضهم يقول فى أل التى للحقيقة : إنها لتعريف العهد ؛ لأن الأجناس أمور معهودة فى الأذهان متميز بعضها عن بعض اهـ .

(أفلا يؤمنون) مع ظهور الآيات ، ماء أبيض ، أو أصفر يكون منه أبيض وأصفر وأسود وغير ذلك ، وماء ينزل من السماء أو يخرج من الأرض شفاف ، ولا لون له تتكون به ألوان وأجسام كثيفة . وفى ذلك توبيخ وإنكار لعدم صلاح أمرهم .

قيل : يكتب « أو لم ير الذين كفروا ـ إلى ـ أفلا يؤمنون » مريم ولدت عيسى سيجعل الله بعد عسر يسرا . اللهم كما فتقت الأرض بالنبات ، والسماء بالمطر ، فكذلك يسر لفلانة بنت فلانة الوضع .

فلينظر الإنسان ـ إلى قوله ـ شقا ، لتسهيل الولادة ، أو تقرأ الآية على بطنها أو أسفل ظهرها . وإن ذلك مجرب صحيح .

(وجعلنا فى الأرض رواسي) جبالا ثابتات ، من رسا بمعنى ثبت .

(أن تميد) مفعول لأجله ، على حذف مضاف ، أى كراهة أن تميد ، أو حذر أن تميد .

ومعنى كره الله : الدفع . والمشهور فى كتب التوحيد أن الله لا يوصف بالحذر ، ولعله بالمعنى الذى فى الخوف ، للإيهام . فافهم ، أو تقدر لا النافية بعد أن ولام التعليل قبلها . أى لئلا تميد بلعدم الإيهام ، كما زيدت لعدم الإيهام فى لئلا يعلم ؛ على أحد وجوه وبه قال ابن هشام : تعسف ، لحذف شيئين . والحق أنه لا تعسف بذلك . أما اللام فحذفها شائع كثير جدا ، وأما لا فحذفها قليل كسائر المحذوفات القليل والأول قول البصريين

قال : وقيل : أن بمعنى اللام ولا وهو خطأ . والميد : التحرك . قيل : إن الأرض بسطت على الماء ، وكانت تتحرك كالسفينة فى الماء ، فأرساها بالجبال .

(بهم) ملو كانت تميد بهم لم يستقروا منها ، ولم يتمكنوا فيها .

(وَجَعَلْنَا فِيهَا) في الأرض ، أو في الرواسي ، أو في الجميع ، إما لأن الرواسي لما جعلت فيها كانت منها ، وإما لذكرها كما ذكرت الأرض .

(فِجَاجًا) مسالك واسعة ، ففيه تعميم الوصف . والمفرد فج ، ولا يختص بالجبل ، خلافاً لبعضهم ، وهو مفعول جعلنا .

(سُبُلًا) بدل منه أي طرقاً نافذة .

وفائدة هذا الإبدال تضمين الدلالة على أنه تعالى جعل فيها المسالك واسعة صالحة ، أعني لمن يمشي في السبيل ، أي لمن يريد المشي في السبيل . وفيه بعض توكيد ، أو فجاجا حال من سبلا ولو كان سبلا نكرة ، لتقدم الحال . وإنما لم يؤخر فتكون صفة . قيل : ليدل التقديم على أنه حين خلقها ، خلقها واسعة ، على صفتها الآن .

(لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) إلى مقاصدهم في الأسفار وغيرها . ولعل للتعليل ، في الأظهر .

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا) عن الوقوع بقدرته ، وعن الفساد والانفطار والانحلال ، وعن استراق السمع .

وقيل : المراد الحفظ عن الوقوع .

وقيل : عن الاستراق . وذلك إلى أجل قد قرب يا أخي ، كأنك بذلك السقف ذاب ووقع .

(وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا) الدالة على وجود الصانع ووحدته ، وكمال قدرته وحكمته ، من شمس وقمر ونجوم ومسائرها ومطالعها ومغاربها ، على حساب قويم وترتيب عجيب .

(مُعْرِضُونَ) لا يستدلون بها على الواحد ولا يعتبرون .

وقرئ عن آيتها بالإفراد والإضافة للاستغراق ، فهو بمنزلة الجمع أو جُعلن كلهن حجة واحدة .

(وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) بعضٌ من تلك الآيات . قدم الليل لسبق الظلمة على النور .

وقدم الشمس لأن نور القمر منها وأقرب الأرض إلى السماء بيت المقدس ، بينهما اثنا عشر ميلا . وأبعد الأرض منها أيلة . والسماء كالقبة ، والشمس والقمر لم يلزقا بسمائهما ، بل كل فى فلك دون سمائه ؛ لقوله : (كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) يمشون بسرعة ، كما يسبح الإنسان فى الماء ، وجوههما إلى السماء ، يضيئان فى السماء ، كما يضيئان فى الأرض ، قيل : الشمس فى الصيف فى الخامسة ، وفى الشتاء فى السابعة . وتكلمت فى غير هذا الموضع .

قال مجاهد : السباحة : الدوران كفلكة المغزل .

وعن بعض : كالطاحونة .

وعن بعض : يجرون .

وعن بعض : يسبحون فى طاحونة .

وعن بعض : إن الفلك : الجسم الدائر دورة اليوم والليلة .

وقيل : موج مكفوف .

وعن بعض : الفلك : هو السماء .

وقيل : جسم مستدير دون السماء . والجدى كحديدة الرحى .

وزعم بعض أن الفلك جرم صلب لا ثقيل ولا خفيف ، لا يقبل الخرق والالتئام والسمو والدنو ، وهو قول باطل . والمراد لكل الشمس والقمر ، وفلك

جملة ، وقوله معلقة بيسبحون . ويسبحون خبر ، أو يعتذرونه خبر . ويسبحون خبر ثان ، أو حال من ضمير الاستقرار .

وإنما عبر عن الشمس والقمر بضمير الجماعة ، باعتبار تعدد طلوعهما ، وكان الضمير واو العقلاء ؛ لأن السباحة من فعلهم ، فكأنه شبههما بالعاقل ، فعبر بالواو والسباحة . وجملة المبتدأ والخبر مستأنفة ، أو حال من الشمس والقمر فقط ، لأنهما السابحان لا الليل والنهار .

(وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ) في الدنيا ولا أنت ولا هم إلا عرضة للموت ، فكيف يتربصون موتك ويتمنونه ؟! نزلت حين قالوا : نتربص به ريب المنون . قال الشاعر :

فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

قال كعب :

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول

وروى أن أبا ركان الأعمى قد انقطع إلى آل برمك ، ولما أمر الرشيد بقتل يحيى بن جعفر ، ودخل عليه القاتل ، فوجد عنده أبا ركان الأعمى ينشده :

فلا تحزن فكل فتى سيأتى ... عليه الموت يطرق أو يغادى

فقال : في هذا ، والله أنعيناك . ثم أمسك بيد جعفر وأقامه ، وضرب عنقه .

فقال أبو ركان : ناشدتك الله إلا ألحقتنى به .

فقال له : ما الذى حملك على هذا ؟

قال : أغنانى عن الناس .

فقال : حتى أستأمر أمير المؤمنين ، وأخبره بخبره

فقال : هذا رجل فيه مطمع اضممه إليك . وانظر ما كان جعفر يجريه عليه فأجره عليه .

(أَفَإِن مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ) الهمزة لإنكار الخلود ، وهى مما بعد الفاء العاطفة .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) ولا يبقى إلا الحى الدائم . والذوق عبارة عن مقدمات الموت ، أى ذائقة مرارة الموت . وفى ذلك موعظة بالغة .

وكان الثورى إذا ذكر الموت لا يُنتفع به أياما . وكثرة ذكره تردُّ عن المعاصى ، وتلين القلب القاسى

قال الحسن : ما رأيت عاقلا قط إلا وجدته حَذِرًا من الموت ، حزينا من أجله وطول الأمل يكسل عن العمل ، ويورث التوانى ، ويُميل إلى الهوى . وهذا مشاهد بالعيان ، لا يحتاج إلى بيان ، يطالَب صاحبه ببرهان .

ولما دنا الموت من معاوية قال : الموت لا مَنْجَىً من الموت . والذى يحاذَر بعد الموت أدهى وأعظم . ثم قال : اللهم أقِل العثرة ، واعف عن الزَّلة وعد على مَن لم يرج غيرك ، ولا يثق إلا بك ، فإنك واسع المغفرة ، وليس لذى خطيئة مهرب منك .

وقيل لأعرابى : إنك تموت .

فقال : إلى أين يُذهب بى ؟

قالوا : إلى الله تعالى .

قال : ما أكره أن أذهب إلى مَن لا أرى الخير إلا منه .

وأوصى علىّ أباذر — رضى الله عنه — : زُر القبور ، وتذكر بها الآخرة ، ولا تزرها بالليل ، واغسل الموتى ، وصلِّ على الجنائز ، لعل ذلك يحزنك ، فإن الحزين فى ظل الله .

ودخل ملَك الموت على داود فقال : مَن أنت ؟

قال : الذى لا يهاب الملوك ولا تمنع منه القصور ولا يقبل الرشا .

قال : فأنت إذًا ملَك الموت ، ولم أستعد بعدُ .

قال : يا داود أين جارك فلان ، وأين فلان قريبك ؟

قال : ماتا .

قال : أما كان فيهما عبرة لتستعد !

وأجمعت الأمة أن الموت ليس له زمان معلوم ولا مرض معلوم . فليكن المرء على أهبة من ذلك .

فبينما حسان جالس وفى حجره صبى يطعمه الزبد بالعسل إذ شرق الصبى بهما فمات فقال :

اعمل وأنت صحيح مطلق فرِح ما دمت ـ ويحك يا مغرور ـ فى مهَل

ترجو حياةَ صحيحٍ ربما كدتْ له المنيـــة بين الزبد والعسل

وسمع أبو الدرداء رجلا يقول فى جنازة : مَن هذا ؟

قال : أنت . فإن كرهت فأنا .

وكان يزيد الرقاشى يقول : أخبرونى مَن كان الموت موعده ، والقبر بيته ، والثرى مسكنه ، والدود أنيسه ، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر ، كيف يكون حاله ! ثم يبكى حتى يغشى عليه .

(وَنَبْلُوكُمْ) نعاملكم معاملة المختبر (بِالشَّرِّ) ما تكرهه النفس ، كالفقر والذل .

(وَالْخَيْرِ) كالغنى والعز ، هل تصبرون وتشكرون أم لا ؟

وقدم الشر لأن العرب كا تقدم الدهر تقدم الشر وذلك من عادتها ، ولأن الشر يتبادر إلى النفس أن الابتلاء به أشد .

(فِتْنَةً) مفعول مطلق ، كقعدت جلوسا .

وقيل : مفعول لأجله . وفيه أن الشيء لا يعلل بنفسه إلا إن أريد بالفتنة الإيقاع في الضر لا الاختبار .

(وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) للجزاء الذي هو المقصود بالابتلاء في هذه الدنيا .

(وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ) ما (يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا) أي ذا هزو يستهزئون به ـ أو مهزوءًا به ـ أو حكم بأنه عين الهزو مبالغة .

قيل : نزلت في أبي جهل مرّ به ﷺ فضحك وقال : هذا نبي بني عبد مناف

(أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ) مفعول لمحذوف ، أي يقولون على جهة الإنكار والهزو ، هذا الذي الخ ، أو مفعول الهزو ؛ فإنه سخرية باللسان .

والمراد بالذكر : الذكر بالعيب ؛ لدلالة الحال أن العدو إنما يذكر عدوه بالسوء . ومثله : « سمعنا فتى يذكرهم » تقول العرب : سمعت فلانا يذكرك . فإن كان صديقا فالذكر بخير ، أو عدوا فبشر . أورد المشركون إليه اسم إشارة القريب تحقيرا له .

(وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ) هم الثاني تأكيد للأول . والذكر : القرآن ، أو التوحيد ، أو إنزال الكتب وإرسال الرسل ، أي منكرون لذلك . وهم أحق بالهزو ، حيث عكفت هممهم ، وقصرت على ذكر آلهتهم بما لا يجوز ذكرها به ، من كونها شافعة ، ويسوؤهم أن يذكرها ذاكر بغير ما يذكرونها ، وكفروا بالرحمن جل وعلا ، بل بذكره .

أو المعنى أنه غاظهم ذكرك آلهتهم بالسوء ، والله قد ذكرهم أنفسهم أعينهم بالسوء لإشراكهم، وهم لا يصدقون بذكره لهم بالسوء غافلون. والجملة حال من واو يتخذونك .

وقيل : أنكروا تسمية الله جل وعلا بالرحمن وقالوا : ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، وهو مسيلمة . فنزل ذلك .

وإن قلت : إذا كان هم الثانى تأكيداً للأول ، فهلا اتصل به ؟

قلت : مجافاة عن تكرير اللفظ فى محل واحد . وكثيرا ما يكون التكرير بالفصل نحو : فيك زيد راغب فيك .

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ) الجنس : آدم ومن دونه .

(مِنْ عَجَلٍ) هو كثير العجلة ، مفرط فيها، حتى كأنه مخلوق منها ، كما تقول فى مبالغة كرم زيد : إنه مخلوق من الكرم ومن عجلته مبادرته إلى الكفر ، واستعجال العذاب .

وقد قيل : إنها نزلت فى النضر بن الحارث ، حين استعجل .

وقيل : الإنسان : آدم : خلق عجولا . وكانت ذريته كذلك

وعن مجاهد : خُلق آخر الساعة من يوم الجمعة ، فلما دخلت الروح عينيه ورأسه ولم تبلغ أسفله ، قال : رب استعجل بخلقى قد غربت الشمس . وكان خلقه بعد سائر الأشياء .

وروى أنه لما دخل الروح عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، ولما دخل جوفه اشتهى الطعام ، وأراد القيام قبل أن تبلغ إلى رجليه عجلا إلى ثمار الجنة فوقع .

وعن ابن عباس : بلغت الروح صدره فأراد القيام .

وقيل : المعنى : أنه خلق بمرة على غير قياس بنيه ، فإنهم نطفة فعلقة فمضغة وهكذا .

وعن بعض : أن فى الآية قلبا ، أى خلق العَجَل من الإنسان، كما قرئ به .

وقيل : العَجَل : الطين بلغة حمير قال الشاعر :

والماء فى الصخرة الصماء منبته والنخل ينبت بين الماء والعَجَل

قلت : الظاهر أن البيت مصنوع ولكن فى القاموس : العجل ـ بالحركة أو بالسكون ـ : الطين أو الحمأ . والعجلة ولو خلق عليها الإنسان لكنه قد أعطى قوة يستطيع بها ترك العجلة ، فليس مكلفا بما لا يطيق .

وقرئ : خَلَقَ الإنسانَ ، بالبناء للفاعل والنصب .

(سَأُرِيكُمْ آيَاتِي) مواعدى بالعذاب ، كوقعة بدر ، ويوم القيامة ، وعذاب النار . وكانوا يقولون : متى هذا العذاب الذى توعدنا به فى الدنيا ؟ متى يوم القيامة وعذابها ؟

(فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ) بالإتيان بها .

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ) خطاب للنبى وللمؤمنين .

(صَادِقِينَ) فيه .

(لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ) ذكر الوجه من قدام ، وهو أعز الأعضاء الظاهرة ، وذكر الظهر من خلف .

والمراد أن النار تعمهم كلهم من خلف وقدام فإذا كانت لا تُمنع عن الوجه فأحرى أن لا تمنع من غيره . وجواب لو محذوف لدلالة المقام والسياق عليه . وحين مفعول يعلم بمعنى يعرف .

والمراد معرفة شدة ذلك الحين ، أى لو يعلمون ذلك الوقت الصعب الذى ينغمسون فيه فى النار غمساً ، لا يقون أنفسهم عنها بشىء .

(وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) بالمنع منها ، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال وجهلهم هو الذى هوّنه عندهم ، أو يعلم على بابه ، والمفعول الثانى محذوف ، أى لو يعلمونه صعبا ، أو لا مفعول له أصلا تنزيلا له منزلة التام ، أى

لو كان عندهم علم . وعليه فالوقف على كفروا وحين متعلق بمحذوف ، أى ينتفى عنهم هذا الجهل ، ويعلمون أنهم على الباطل ، حين لايكفّون . وأقام الظاهر وهو الموصول مقام الضمير إيذاناً بصلته بأن كفرهم هو الموجب لذلك الخزى . وإنما فصل بالنار بين الظهر والوجه ، ليكون ذكرها متصلة بالوجه أدعى إلى ترك الكفر .

وقيل : الأصل : لايكفّون عن وجوههم النار ، ولا عن ظهورهم السياط .

(بَلْ تَأْتِيهِمْ) أى القيامة والساعة ، لدلالة السوق أو النار ، لتقدم ذكرها .

(بَغْتَةً) فجأة (فَتَبْهَتُهُمْ) تغلبهم وتحيّرهم .

وقرأ الأعمش يأتيهم ويبهتهم ، بالمثناة التحتية ، والضمير للوعد أو الحين . ويجوز عوده إلى أحدهما فى القراءة الأولى ؛ لأن الوعد بمعنى العِدَة . والحين بمعنى الساعة . وقرئ أيضا بفتح الغين .

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا) زعم بعضهم أنه يجوز عود ضميرى التأنيث بعد بغتة إلى بغتة . وفيه رجوع الضمير إلى الحال وهو ضعيف . ومعنى بغتة : ذات بغتة ، أو باغتة ، أو لايؤول مبالغة .

ويجوز كونه مفعولا مطلقا لتأتيهم بمعنى تبغتهم ، أو لبغتت محذوفا .

(وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ) يمهلون بتوبة أو معذرة . فيه تذكير وإيماء إلى أنهم فى الدنيا فى إمهال ، لو انتفعوا به .

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ) كما استهزئ بك ، فاصبر كصبرهم .

(فَحَاقَ) فنزل وأحاط (بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) وهو العذاب .

ويجوز وقوع « بما » على الأقوال التي يستهزئون بها على الأنبياء المرسلين ، على حذف مضاف أي جزاء ما كانوا إلخ فسيحيق يا محمد بقومك المستهزئين ما حاق بهؤلاء .

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ) يحفظكم (بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ) أى من عذابه . والاستفهام إنكارى ، أى لا أحد يكلؤكم من عذابه لو نزل . والمخاطبون لم يخافوا العذاب أصلا لإنكارهم له . ولفظ الرحمن للدلالة على أن تأخير العذاب من رحمته العامة ، ومَن متعلق بيكلؤكم .

ويجوز أن يكون النفى على التقرير ، أى مَن هؤلاء الذين هم من الرحمن يحفظونكم مما لم يقدر عليكم ؟

الجواب : إنهم ملائكة . والكفرة ولو لم يكن عندهم علم بذلك أمكن من شأنهم أن يعلموه ويصدقوا به ، لكثرة الإخبار به .

وعن مجاهد : ما من آدمى إلا ومعه مَلَك يحفظانه فى ليله ونهاره ، ونومه ويقظته ؛ من الجن والإنس والدواب والسباع والهوام والطير ، كلما أراده بشىء قالا : إليك حتى يأتى القدر .

(بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ) وذكره : أمره ونهيه ، وثوابه وعقابه فى القرآن والسنة ، لا يخطر ذلك ببالهم ، فضلا عن أن يخافوا عقابه .

(أَمْ) للإنكار (لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم) من العذاب (مِّن دُونِنَا) أى غيرنا (لَا يَسْتَطِيعُونَ) الآلهة . وعبّر عنها بالواو ؛ لأنها عندهم بمنزلة العاقل .

قال ابن هشام : وقد تستعمل الواو لغير العقلاء ، إذا نزلوا منزلتهم ، نحو : « يا أيها النمل ادخلوا » .

(نَصْرَ أَنفُسِهِمْ) فكيف ينصرونكم .

(وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ) قال ابن عباس : لا يمنعون منا ؛ لأن المنع من لوازم الصحبة ومسبباتها .

وقيل : لا ينصرون منا ، وعُدِّيَ على هذا بمن ؛ لأن النصر معه منع .

وقيل : لا يصحبون منا بخير .

وقيل : لا يصحبهم أحد منا ، أى لا يرسل إليهم شافعا من ملك أو نبى ، فإنها تلقى معهم فى النار تعذيبا لهم بها لا لها .

وقيل : الضمير الأول للآلهة ، والثانى لعابديها .

وقيل : كلاهما لعابديها ، فلا يستطيعون نصر أنفسهم بآلهتهم ولا بغيرها ، ولا يصحبون منا .

(بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ) الكفرة ، استدراجا بالصحة ، وطول العمر ، والمال ، والنعم .

(وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) أى طيب لهم طوله ، فاغتروا بذلك ، وظنوا أن لا يزول عنهم .

وقيل : المراد طال عليهم العمر بلا مجىء رسول إلى أن جاءهم محمد . و«بل» فى «بل تأتيهم» للانتقال إلى ما هو أعظم من عدم كفهم النار عن أنفسهم ، وهو كون وقت ذلك يأتى بغتة ، أو للإضراب عما يتوهم من بعده ، أو امتناع الوقوع .

والإضراب فى قوله : «بل هم عن ذكر» الخ ، والإضراب فى قوله : «أم لهم» إلى آخره ، هما عن الأمر بالسؤال على الترتيب ، فإنه عن المعرض الغافل عن الشىء بعيد . وإنما يسأل عن الشىء المقبل إلى ذلك الشىء العالم بحاله ، وعن المعتقد لنقيضه أبعد .

والإضراب فى «بل متعنا» هو عما توهموا ، أضرب عنه ببيان ما هو الداعى إلى حفظهم ، وهو الاستدراج ، أو أضرب عن الدلالة على بطلانه ، ببيان

ما أوهمهم ذلك ، وهو أنه تعالى متعهم بذلك ، فتوهموا أنه بسبب ما هم عليه ، وهو أمل كاذب كما قال : (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) بتسليط المسلمين على أهلها الكفار ، يفتحها الله للنبي ﷺ وللمؤمنين ، ويزيل حكمهم منها ويطوى نشرهم .

والإتيان : الإرادة هنا والقصد ، كأنه قيل: نريدها بالنقصان . وننقص حال مقدرة . ولو قال : أفلا يرون أننا ننقص الأرض من أطرافها لصح ، لكن عبر بالإتيان تصويراً لما يجرى الله على أيدى المسلمين ، من أنهم يأتون أرض المشركين ، ويغزونهم ويغلبونهم ، أو كما يقول السلطان : قتلنا في موضع كذا وكذا غالبين وإنما قتلت جنوده .

أو الأصل : يأتيها جنودنا ، فحذف المضاف فناب المضاف إليه ، فجىء بننقص موافقاً له ، والأصل : ينقصونها .

(أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ) لا بل الغالبون هم النبي ﷺ والمؤمنون بالقهر وموت رؤوس المشركين المستعجلين ، أفلا يصدقون بمحمد ؟!

وعن ابن عباس : نقصها من أطرافها : إماتة فقهائها وعلمائها .

قيل : موت عالم أحب إلى إبليس من موت ألف عابد .

ومراد ابن عباس : الفقهاء والعلماء من الأمم السابقة يميتهم الله ، ويبقى الناس بلا دين ، ويطيل أعمارهم فى المعاصى ، وذلك استدراج شديد ، وهم المفرطون فى أخذ الدين ، حتى مات أهله . وليس ذلك ليكونوا غالبين ، بل ليموتوا كفرة على يد غالبهم ، وهو النبي ﷺ . والأول قول الحسن .

وروى عنه أن الله جل وعلا يبعث قبل القيامة ناراً تطرد الناس من أطراف الأرض إلى الشام ، تنزل إذا نزلوا ، وترحل إذا رحلوا ، وتقوم القيامة عليهم فى الشام ، وإن ذلك هو قوله : ننقصها من أطرافها . أيظن المشركون أنهم

يعلمون هذا الأمر ، ويعتصمون منه كأنه قال : أفلا يعلمون ذلك ، وإن لم يعلموا فليعلموا .

(قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ) بما أوحى الله إلىّ ، لا من قِبَل نفسى .

(وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ) جمع أصم ، كحُمْر جمع أحمر .

(الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ) شبه عدم العمل بما يسمعون بعدم السمع ، فاستعار له اسم عدم السمع ، وهو لفظ الصمم ، فاشتق منه الصم . واستعير لهؤلاء الذين لا يعلمون ، ووجه الشبه عدم الانتفاع .

وقرئ بالبناء للمفعول من أسمع ، والصم مفعول أول نائب عن الفاعل .

وقرئ بضم الياء وكسر الميم ونصب الصم ، والفاعل ضمير الرسول ، أى إنما أنا رسول أنذركم بالوحى ، وليس على الرسول إسماع الصم الدعاء . وذلك من جملة المأمور بأن يقوله ، على القراءات الثلاث . ويحتمل أن يكون من كلام الله .

وقرأ ابن عامر بتاء مضمومة خطابا من الله جل وعلا لرسوله ﷺ وكسر الميم .

والمراد بالصم ، الكفار المذكورون ، فهو موضوع موضع الضمير ، للدلالة على أن الصمم سجية لهم يداومون عليها ؛ لأنه يعرض لأحد عدم السمع ، لنحو غفلة ، ثم يرجع بسمع ، والهمزة الثانية مسهلة إلى الياء ، ومنهم من يحققها كالتى قبلها .

(وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ) أى وقعة خفيفة .

(مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا) للتنبيه أو النداء ، والمنادى محذوف والويل : الهلاك .

(إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) بالإشراك وتكذيب النبي ﷺ . فإذا كانوا بهذا الضعف وعدم النصرة ، بحيث يصرخون هذا الصريخ ، بعذاب قليل، فلمَ يجسرون على ما يوجب العذاب الشديد ؟!

وقد بالغ في تقليل ذلك العذاب الذي يصرخون به ، بثلاثة أشياء : بالمس ، وبالنفح ، فإنه في معنى القلة بفحته الدابة : رمحته يسيرا ، وبصيغة المرة

وعن ابن عباس النفحة : الطرَف .

وقيل : المراد بها هذا النفحة التي يهلك الناس بها . وفيه أنهم إذا سمعوها لم يلبثوا القدر ما يقول ذلك ، إلا أن يقولوه بعد الموت ، أو يخطر في قلوبهم ، في ذلك الوقت الضيق .

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) القسط : مصدر نعت به مبالغة ولذا أفرد كأنها لشدة قسطها نفس القسط ، أي العدل ، أو يقدر مضاف ، أي ذوات القسط ، أو يؤول بقاسطة ، بمعنى عادلة .

والحق عندنا ــ معشر الأباضية ــ أن وضع الموازين كناية عن إثبات الحساب في المكلفين ، وجزائهم على أعمالهم ، أي يبالغ في الحساب مبالغة شديدة كما قال :

(فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) أي ظلما ، أو مفعول ثان لتظلم ، بمعنى تُنقَص ، أو تمييز محول عن النائب على هذا المعنى ، أي لا يُنقص شيءُ نفسٍ ، أي عملها ، أي لا يُنقص من حسناتها ، ولا من سيئاتها ، واللام ظرفية ، أي في يوم القيامة قاله أبو حيان وابن هشام . وعن بعض بأنها بمعنى عند .

وقيل : للتعليل ، على حذف مضاف ، أي لأهل يوم القيامة

وقال الشعراني : أو الجزاء يوم القيامة .

(وإن كانَ) تامة بمعنى حصل (مِثْقالَ) زنة (حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ) ما يرى في الشمس من الهباء ، أو بذر النبت ونحوه .

وقرأ غير نافع بنصب مثقال على نقصان كان ، واسمها ضمير العمل ، وقيل : أو ما عمل الظلم ، وهو ضعيف ، إن لم يكن باطلا .

(أتينا بها) الباء للتعدية ، أي أحضرناها ، والضمير للمؤنث المثقال ، وإنما أنث لتأويله بالزنة ، أو لإضافته للمؤنث ، مع صحة الاستغناء عنه ، فإنه لو قيل : وإن كانت حبة من خردل ، لظهر المراد .

وقرأ ابن عباس ومجاهد آتينا بالمد ، أي أعطينا صاحبها ثوابها أو عقابها وعُدِّيَ بالباء ، لتضمنه معنى المجازاة ، أو هو بمعنى المؤاتاة ، فإنهم أتوا بالعمل ، وأتاهم بالجزاء .

وقرأ حميد أثبنا بها ، من الثواب . وقرأ أُبَيّ جئنا بها .

(وَكَفَىٰ بِنَا) الباء صلة ، ونا فاعل به .

(حَاسِبِينَ) حال لا تمييز ، لضعف كون التمييز وصفا . والمعنى : إنا محاسبا كاف فوق كل حساب ؛ لكمال علمنا وحفظنا . وفي ذلك ترغيب في الحسنات وبُعد عن السيئات قال ﷺ : لا تغتروا بالله ، فإنه لو كان مُغْفِلاً شيئا لأغفل الذرة والبعوضة والخردلة .

(فصـــل)

مذهبنا ـ معشر الأباضية ـ كما مر ـ أن الميزان عبارة عن إثبات الحساب والجزاء ، وإظهار أن عملك أيها المكلف كذا وكذا ، قد أوجب لك من الخير أو الشر كذا وكذا أصح . وإن شرك مغفور ، وخيرك مقبول .

وإن خيرك غير مقبول ، وشرك مؤاخذ به ، وذلك مذهب أكثر المعتزلة .

وقالت الأشعرية وغيرهم : إن الميزان ميزان عمود وكفتين ولسان ، وإن طول الدنيا وسعة كفتيه سعة السموات والأرض .

وروى أن داود ـ عليه السلام ـ سأل ربه أن يريه الميزان ، فأراه كل كفة ما بين المشرق والمغرب . فلما رآه غُشى عليه ، ثم أفاق وقال : إلهى من الذى يقدر أن يملأ كفته حسنات ؟

قال : يا داود إنى إذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة .

وذكر أحمد بن حنبل وابن حبان والحاكم ومسلم والترمذى وابن ماجه واللفظ للترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : إن الله عز وجل سيستخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعون سجلا ، كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمك شيئا كتبتى الحافظون ؟

فيقول : لا يارب .

فيقول : ألك عذر ؟

فيقول : لا يارب .

فيقول الله تبارك وتعالى : بل لك عندنا حسنة ؟ فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

فيقول : احضر وزنك .

فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ !

فيقول : فإنك لا تظلم فتوضع السجلات فى كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شىء .

والسجل : الكتاب الكبير . والبطاقة : الصغير . والطيش : الخفة . وأجر

الشهادة كما ذكروا وأكثر ، ولكن المراد أن ذلك لمن مات تائباً ، فيظهر الله له أن ذنوبه مثل تلك السجلات ، وأنه لما تاب قبلت توبته ، فغلبت عليها شهادته .

ونسبوا كونه ميزانا فى كفتين وعمود ولسان إلى الحسن ، وذكروا أن الكفة اليمنى كفة نور توضع فيها الحسنات ، واليسرى توضع فيها السيئات ، وهى كفة ظلمة . فبعض يقول : ليس علينا البحث عن كيفية الوزن ، بل نؤمن به ونفوّض كيفيته إلى الله تعالى .

وقيل : توزن صحائف الأعمال .

قلنا : إذاً تكون الزيادة فى الموزونات من الأعمال .

وبعض يقول : تجعل الحسنات أجساما نورانية بيضاء حسنة ، والسيئات أجساماً ظلمانية قبيحة ، جواباً عما يقال : إن الأعمال أعراض لا توزن ، وأنها قد عدمت ، فلا توجد . سلّمنا أن الله قادر على قلب الأعراض أجساماً ، بل وعلى إيجاد الأعراض المعدومة وعلى وزنها ، لكن لا فائدة فى الوزن ، مع أن الله عالم بمقاديرها ووزنها غيب .

وإن قالوا : فائدته امتحان العباد بالإيمان بالغيب فى الدنيا ، وجعل ذلك علامة لأهل السعادة والشقاوة .

قلنا : هذا موجود فى تفسيرنا الميزان ، بتعريف العباد ، ما لهم من الجزاء على الخير والشر ، وإحضار ذلك الجزاء .

وبعض يقول : يخلق الله أجساما على عدد تلك الأعمال من غير قلبها . وفيه ما فى الذى قبله . وإذا أدحضت حججهم قالوا : إن لوزنها حكمة أبهمها الله ، كما صرح به بعض ، وأن ذات الميزان لا تعرف من أى شىء هى ؟ وما ورد فى ذلك من الأخبار فمعناه معنى الآية الذى أوضحناه .

لكن ذلك ما روى عنه ﷺ أنه توزن الصحف . فمنى وزنها الجزاء بما فيها وترجيح خيرها على شرها ، أو شرها على خيرها .

وزعم بعضهم أن الراجح في ذلك الميزان يرتفع والمرجوح يتسفل . ولا توزن أعمال المشركين لقوله : « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » عند بعضهم .

والراجح عندهم وزنها ؛ لقوله عز وعلا : « ومن خفت - إلى - تكذبون » .

وأجيب عن الآية الأولى ، أن المنفى احتقارهم ، وأنهم لا قدر لهم فى الآخرة أو أنه لا يقام لهم وزن نافع .

وقالوا : إنه توزن سيئات من لا حسنة له إعلانا بفضيحته ، وحسنات من لا سيئة له ، إعلانا بشرفه .

وقيل : بعض الكفار يعجل بهم إلى النار بلا وزن ، وبعضهم يوزن له ويلقى فى النار

وقال الغزالى : من الأمة سبعون ألفا يدخلون الجنة بلا حساب ، لا يرفع لهم ميزان ، ولا يأخذون صحفا ، يكتب لكل واحد صحيفة ، فيها براءة فلان ابن فلان . ولا توزن أعمال الأنبياء ، ولا أعمال الملائكة .

قال أبو الحسن القابسى : والصحيح أن الحوض قبل الميزان . وما ذهب إليه أبو طالب المكى وغيره أن الحوض بعد الصراط غلط منه .

وأجيب عن قوله ﷺ لأنس : إن لم تلقنى عند الصراط فاطلبنى عند الميزان ، فإن لم تلقنى فعند الحوض ، بأن الذكر فيه بحسب الأهمية .

وصحح القرطبى أن للنبى ﷺ حوضين ، كلاهما يسمى كوثرا ، وأن الحوض الذى يذاد عنه من بدّل أو غيّر ، يكون فى الموقف قبل الصراط .

وإن قلت : إذا كان الميزان بمعنى ما ذهبت إليه ، أو بمعنى ما ذهب إليه القوم فكيف جمع ؟

قلت : جمع إما للتعظيم ، وإما نظراً لتعدد الموزون ، وإما لأن لكل صنف من الأعمال ميزانا ، وإما لأن لكل مكلف ميزانا . أقوال .

والجمهور على أن الميزان واحد .

قيل : إن الموازين جمع موزن .

واختلفوا : هل تجعل حسنات العباد كلها فى كفة النور ، وسيئاتهم فى كفة الظلمة ، ويخلق الله علما ضروريا لكل إنسان ، يعلم به خفة أعماله ، أو ثقلها ؟ أو يقوم عمود من نور من كفة النور ، فيغطى كفة الظلمة ، فيظهر للسعيد ، وبالعكس للشقى ، أو يوزن عمل كل أحد على حِدَة ، كما رزقهم مع كثرة عددهم ؟ قولان .

قالوا : وصحف الأعمال التى توزن كلها تحت العرش . وهل الحوض مختص بنبينا ﷺ ؟ أو لكل نبى حوض يتباهون أيهم أكثر وِرْدُه حوضه ، كما روى فى حديث غريب لا تقوم به حجة ؟ قولان .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ الْفُرْقَانَ) التوراة المكثرة : المفرق بين الحق والباطل .

(وَضِيَاءً) هو التوراة أيضاً ؛ لأنه يستضاء بها فى ظلمات الجهل .

(وَذِكْرًا) هو هى ؛ لأنها عظة . (لِلْمُتَّقِينَ) وأما غيرهم ممن سبق فى علم الله أنه لا يكون مستقيما ، فلا يتعظ بها .

ويحتمل أن يكون مصدرين ، أى وضياء بها ، وذكرا بها . فعلى الأول

يكون ذلك كعطف صفة على أخرى ، كقولك : جاء الرجل الكريم والعالم والورع ، وأنت تريد بالكل واحداً ، أن فى إتيانهما كتابا جامعاً بين تمييز الحق والضوء والوعد .

وقرأ ابن كثير وضيئاء بهمزة قبل الألف وبعدها ، ومر بيانها فى سورة يونس — عليه السلام .

وقرأ ابن عباس ضياء ، بدون واو ، على الإبدال ، أو الحالية من الفرقان .

وعنه : الفرقان : الفتح والنصر ، كقوله عز وعلا : « يوم الفرقان » .

وعن الضحاك : فلق البحر .

وعن محمد بن كعب : المخرج من الشبهات .

وقيل فى الذكر : إنه ذكر ما يحتاجون إليه فى دينهم ومصالحهم ، أو الشرف .

(الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) نعت ، أو يقطع إلى النصب أو الرفع مدحاً .

(بِالْغَيْبِ) حال من الواو ، أى يخشونه ، وهم لا يرونه ، أو يخشونه وهم غائبون عن أعين الناس ، على ما يأتى فى مثل هذا الموضع ، أو متعلق بيخشون ، أى يخشونه فى الخلوة عن الناس كما يخشونه فى حضرتهم .

(وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ) وأهوالها

(مُشْفِقُونَ) خائفون . ولو قال : الذين يخشون ربهم ومن الساعة يشفقون أو مشفقون من الساعة لصح . لكن صدّر الجملة بالضمير، وبنى الحكم عليه مبالغة وتعويضاً بأن الكفار غير مشفقين منها لإنكارهم إياها .

(وَهٰذَا) أى القرآن . (ذِكْرٌ) لك يا محمد ، كما أن التوراة ذكر لموسى وهارون

(مُبَارَكٌ) كثير الخير .

(أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ) الاستفهام توبيخ .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ) الاهتداء لوجوه الصلاح، من الهدى والنبوة وغير ذلك ، كتوفيقه إلى الجواب السديد .

وإن قلت : إذا كان له رشد موجود فقوله : آتيناه إياه تحصيل الحاصل .

قلت : لا بل المعنى : آتيناه ما له عندنا من الرشد في قضائنا ، أو المراد : آتيناه رشداً يليق بمثله ، وهو رشد له شأن .

(مِن قَبْلُ) قبل موسى وهارون ومحمد .

وقيل : قبل استنبائه .

وقيل : قبل بلوغه ، وهو وقت خروجه من السّرب وقوله : إني وجهت .

وعن مجاهد : الرشد : الهدى .

وعن الحسن : النبوة .

وقرئ بفتح الراء والشين .

(وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ) أي عالمين بأحواله البديعة وأسراره العجيبة ، وصفاته المرضية المحمودة ، المثبتة لأن يكون أهلا لذلك . وفي ذلك ثناء جسيم ، وإشارة إلى أن فعله ـ عز وجل ـ باختيار وحكمة ، وأنه عالم بالجزئيات .

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ) إذ متعلق بعالمين ، أي هو في حال القول ، قد علمناه كما علمناه في سائر الأوقات ، فلم يغلبوه عند القول ؛ لأنا عالمون بحاله ، ونصرناه ، أو متعلق بآتينا ، أو برشده ، أو مفعول به لمحذوف ، أي اذكر من أوقاته وقت قوله لأبيه وقومه .

(مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها ؟!

وعبّر بالتماثيل تحقيراً لها ؛ فإن التماثيل صورة لا روح فيها ، أي ما هذه الصور التي على صورة الإنسان ، غير أنها خالية من كل نفع .

وأيضاً استفهامه من تجاهل العارف، تجاهل لهم ليحقرها ،أو ليصغرها مع علمه بتعظيمهم لها ، واللام للاختصاص ، أي بوجود العكوف لها .

ويجوز أن تكون اللام بمعنى على ، أي عاكفون عليها بالعبادة ، أو عاكفون على عبادتها . وعكف تعدى بعلى . وعلى الوجه الأول لم يعتبر جانب معنى تعديته بعلى .

ويجوز كون قوله: «عاكفون» مضمناً لمعنى عابدين، فتكون اللام للتعدية.

(قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ) حال من آباء ، على أن الوجود وجود لقاء ، أو مفعول ثان ، على أنه وجود علم ، أي علمنا أو شاهدنا آباءنا يعبدونها ، واقتدينا بهم والقاء على حاله يستلزم العلم بها ، وذلك جواب عما تضمنه السؤال فإن قوله : « ما هذه التماثيل » بمنزلة ما اقتضى عبادتها ؟ أو ما حملكم على عبادتها ؟

أجابوا بأنه التقليد . وما أقبح التقليد ! وما أعظم كيد الشيطان به ، حين استدرجهم إلى أن قلدوا آباءهم في عبادة الأصنام ، وعفروا لها جباههم، معتقدين أنهم على شيء ، ومجادلين لأهل الحق عن الباطل وكفى أهل الدنيا سُبَّة أن عبدة الأصنام منهم والتقليد ــ إن جاز ــ فإنما يجوز لمن علم في الجملة أنه على الحق .

(قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ) توكيد ، وبه صح العطف في قوله : (وَآبَاؤُكُمْ)

فإنه ولو كان الضمير التاء وحدها ، لكن هي والميم بمنزلة شيء واحد ، فلا بد من فاصل غير الميم .

وقد يقال : تكفي فاصلا لا على قول من قال : الضمير مجموع التاء والميم

(فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) منتظمين في سلك ضلال واضح ، لا يخفى على عاقل ، لعدم استناد الآباء والأبناء إلى دليل . والتقليد ليس دليلا نافعاً .

(قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ) لشدة تمسكهم بما هم عليه ، واستبعادهم ضلال آبائهم تردداً منهم بين أن يكون إبراهيم مازحاً في تضليل آبائهم وأن يكون صادقا ، أو ذلك جزم منهم بأنه مازح ، كما تقول لزيد ، وأنت عالم بأنه يقظان : أنائم أنت أم يقظان ؟

(قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ) أى الذى خلق السموات والأرض ، على غير مثال ، فهو المستحق للعبادة ، وذلك إضراب عن ادعاء أنه لاعب ، وإبطال له بإقامة البرهان على ضلالتهم وضلالة آبائهم ، أو الضمير للتماثيل . وهذا الوجه أدخل في تضليلهم ، وأثبت للاحتجاج عليهم .

وقد يقال : إن الأول أولى ، فإن الأرض شاملة في إرادته ـ والله أعلم ـ لما يخرج منها ، والتماثيل معمولة مما هو من الأرض فهو أبلغ .

ويجوز رجوعه للسموات والأرض والتماثيل .

(وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ) الذى قلت لكم (مِنَ الشَّاهِدِينَ) المحققين والمبرهنين عليه بما ذكرت ، وفيه تعريض بأنه ليس مثلهم ، في أنهم ادعوا شيئا عجزوا عن بيانه سوى أن قالوا : وجدنا آباءنا .

(وَتَاللَّهِ) وقرأ معاذ بن جبل بالوحدة ، وهى أصل حروف القسم . والتاء بدل من الواو ، والواو بدل من الباء

والفاء فيها زيادة معنى، وهو التعجب ، تعجب من تسهيل الكيد على يديه ، لأنه أمر صعب ، متعذر فى كل زمان ، خصوصا فى زمان نمرود ، مع عتوه واستكباره ، وقوة سلطانه ، وتهالكه على نصرة دينه . ولكن إذا قضى الله شيئاً تيسر ، ولذلك الصعوبة عبّر بالكيد المتضمن لنوع من الحيل .

(لَأَكِيدَنَّ) أسدها بالمكر . (أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا) تدبروا عنها إلى مجتمع عيدكم .

وقرئ بفتح التاء واللام أى تتولوا . ويدل لهذا القراءة : « فتولوا عنه مدبرين » .

(مُدْبِرِينَ) حال مؤكدة لعاملها .

(فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا) وقرأ الكسائى بكسر الجيم ، وهو مصدر على وزن فُعال ، بضم الفاء وكسرها ، بمعنى مجذوذة ، أى مقطوعة ، أو يقدر مضاف ، أى ذوى قطع ، أى مقطوعين ، وهم بمنزلة الفلاء . وأخبر أنهم نفس القطع . والضم والكسر لغتان ، والأفظان جمعًا جذيذ .

وقرئ بالفتح مصدرا ، أو جمع جذيذ .

وقرئ جذذ ، بضم الجيم وفتح الذال وإسقاط الألف ، جمع جذيذ .

وقرئ بضمهما ، جمع جذيذ ، أو جذة بضم الجيم .

(إِلَّا كَبِيرًا) صنما كبيرا ، تركه بلا كسر ، وعلق الفأس التى كسر الأصنام بها فى عنقه .

قيل : علقه بيده اليمنى . (لَهُمْ) أو هو نعت كبير ، أو نعت ثان ، من محذوف . وفائدته على النعتية الإشعار بأن كبره إنما يثبت لهم لا لنا ، فإنه عندنا

أهون شيئا ، وكلما عظمت جثته وهيكله ، زاد بغضا وإهانة عندنا . وكان عندهم عظيم الجثة والمنزلة ، صاغوه من ذهب ، وجعلوا فى عينيه جوهرتين ، مضيئتين ليلا ونهاراً ، وكللوا سائره بالجواهر ، وسائر الأصنام بعضها من ذهب ، وبعضها من فضة ، وبعض من حديد ، وبعض من نحاس ، وبعض من رصاص ، وبعض من حجر ، وبعض من خشب .

(لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ) إلى مكسوره . (يَرْجِعُونَ) كما يرجع الى من عظم شأنه فى الأمور المعضلة ، فيقولون له : ما لهؤلاء مكسورةً ومالَكَ صحيحاً ، والفأس فى عنقك أو يدك ، فإنه - عليه السلام - قد علم أنهم يعظمون آلهتهم ، ولا سيما هذا ويعتقدون لها أباطيل .

وفائدة رجوعهم إليه : أن يتبين أنه لا يضر ولا ينفع ، وأنهم فى عبادته على جهل عظيم . وقال ذلك وهو عالم بأنهم لا يرجعون إليه استهزاءً بهم ، واستجهالا ؛ فإن قياس من سجد له ، أن يرجع إليه فى إزالة الأمور المعضلة . والضمير لإبراهيم ؛ لأنه غلب على ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه ؛ لتفرده بعداوة آلهتهم واشتهاره بعداوتها .

وفائدة رجوعهم إليه أن يفحمهم بقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » والأول عندى أظهر ، والثانى عند الثعالبى أظهر .

ويجوز عود الضمير إلى الله عز وجل ، أى لعلهم يرجعون إلى توحيد الله ودينه إذا رأوا أن الأصنام لا تنفع ولا تضر ، ولا تدفع عن نفسها .

(قَالُوا) بعد رجوعهم من العيد : (مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا) استفهام توبيخى ، أعنى أنه يتضمن توبيخ الفاعل وتهـديده ، وإلا فهو حقيقى ، لجهلهم بالفاعل .

ويحتمل أن تكون موصولة . فعلى الأول جملة : (إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) مستأنفة ، وعلى الثانى خبر .

(قَالُوا) سمعه جماعة ممن كان فى آخر القوم ، أو سمعه واحد ، فأسند القول إليهم ، لأنه منهم ، أو لما سمعه أنشاه لغيره .

ولا مانع من قولك : سمعنا زيداً يذكر كذا ، مع أن بعضاً سمع من زيد وبعضاً سمع من غير زيد عن زيد ، أو كلكم سمع من غيره عنه ، أو يقدر مضاف ، أى قال بعضهم ، وهو واحد :

(سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ) أى يعيبهم ويعيبهم ، فأطلقوا الذكر ، وأرادوا به الذكر بالقبيح ؛ لأن الكلام فى الإضرار بها ، والجملة مفعول ثان لسمع ، والمفعول الأول لسمع أبداً مما يسمع . ويجوز كونها نعت فتى بتسلط السمع على النعت كما يتسلط على المفعول الثانى ، فلا يقدر له مفعول ثان ، ذكره الشيخ فى كجار الله . وهذا الوجه الثانى أبلغ فى نسبة الذكر إليه .

فإن قلت : كيف كان سمعنا يذكرهم الخ جواباً لقولهم : « من فعل هذا بآلهتنا » ؟

قلت : وجهه أنه إذا كان هو الذكر لها بسوء فهو الفاعل بها دلالة الكسب

(يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) اللام للتخصيص لا للتعدية ، وإبراهيم خبر لمحذوف ، أى هو إبراهيم ، والجملة نائب ، أو للتعدية ، أو للتخصيص ، وإبراهيم نائب ، يسمى بهذا الاسم ، ويدعى به ، أو منادى لمحذوف ، وهو حرف النداء نائب ، والجملة نعت فتى ، أو حال منه إن وصف بيذكر ، أو من ضمير يذكر .

(قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ) قائل ذلك نمروذ وأشرافهم ، أو القوم حكاية عنه . وذلك أمر بالإتيان به ظاهراً ، بحيث تتمكن صورته فى أعينهم تمكن الراكب على المركوب .

(لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) أنه الفاعل ، أو القائل ، أو يشهدون عقوبتها ، كأنهم على الوجهين الأولين كرهوا أخذه بغير بينة ، وعلى متعلق بالفعل قبله أو بمحذوف حال من الهاء .

قال الثعلبي في عرائس القرآن : أراد إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يرى قومه الأوثان التي كانوا يعبدونها من دون الله وعجزها ، إلزاماً للحجة ، وإثبانا لها عليهم ، فجعل يتحين لذلك فرصة ، يحتال فيه إلى أن حضر عيدهم .

قال السدي : كان لهم في كل سنة عيد، يجتمعون فيه ، ويخرجون إليه . وكانوا إذا رجعوا من عيدهم ، دخلوا على الأصنام ، فسجدوا لها ، ثم عادوا إلى منازلهم . فلما كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم : يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا

ويروى : أعجبك عيدنا ، بإسقاط لفظ ديننا فخرج معهم ، فألقى نفسه في الطريق . فقال : إني سقيم ، اشتكى رجلي ، فنظروا رجله ، وهو صريع ، فلم يروا شيئاً . فلما مضوا عائدين في آخرهم ، وقد بقي ضعفاء الناس قال : « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » فسمعوها منه .

وقال مجاهد وقتادة : إنما قال إبراهيم هذا في سر من قومه ، لم يسمع ذلك إلا رجل منهم وأفشاه ، فرجع من الطريق إلى بيت الآلهة . فإذا هي في بهو عظيم ، يستقبل باب البهو صنم عظيم ، إلى جنبه صنم آخر أصغر منه . وكل صنم أكبر من الذي يليه إلى باب البهو مصطفة .

قلت : هي اثنان وسبعون صنما ، فإذا هو بطعام مجموع بين أيديهم . يقولون : إذا رجعنا أكلنا ، وقد تداولت الآلهة منه ، فنتبرك به فقال لهم : ألا تأكلون . ما لكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين . فأقبلوا إليه يزفون . قال قتادة والسدي والضحاك : قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون عقابه .

وقيل : لما خرجوا للعيد وهو معهم ، بدأوا بالأصنام ، فدخلوا عليها ، فسجدوا إلا إبراهيم لها ، ووضعوا طعاما ، وخرجوا به ثم رجع .

وقيل : بقي معها . وقال : إني سقيم .

وقيل : إنها سبعون ، وكسرها كسرا عظيما ، مع أنها ـ مما علمت ـ من ذهب وغيره ، مما هو قوى بعون الله .

وروى أنه قطع أيديها وأرجلها ، وفقأ أعينها وكسّر وجوهها إلا كبيرها . فلما رجعوا من عيدهم ، رأوا هذا الكسر الشديد ، فحسبوه من الظلم ، لجراءة فاعله على الآلهة الحقيقة عندهم بالتوقير ، لإفراطه في كسرها والاستهانة بها .

(قَالُوا أأَنْتَ) بتحقيق الهمزتين ، وإبدال الثانية ألفا وتسهيلها وإدخال ألف بين المسهلة والأخرى وتركه . وأنت مبتدأ خبره مابعده ، أو فاعل لمحذوف مدلول عليه بما بعده ، وهو عندهم أولى .

والأصل : أفعلت . ولما حذف الفعل انفصل الضمير .

(فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ) : لا .

(بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا) غضباً أن تعبد معه هذه الأصنام التي دونه وليس ـ عليه السلام ـ مريدا حقيقة هذا الكلام ، ولكنه أراد أنه ما فعل ذلك إلا أن يبكتهم تعريضا لا تصريحا ، وهو أبلغ ، كما لو فعلت فعلا حسنا ، وقد اشتهرت بحسن ذلك الفعل ، وقال لك من لا يفعل مثله أصلا ، أو يفعله ولا يحسنه : أأنت فعلت هذا ؟ فتقول له : بل فعلته أنت ، فإنّ قصدك بهذا الجواب تقرير الفعل لنفسك ، ونفيه عنه ، مع الاستهزاء به . وهذا قصد إبراهيم ، مع قصد النجاة من ضررهم ، بأن يحملوا كلامه على ظاهره ، من أن الفاعل هو كبيرهم ، وإن فطنوا به فقد فطنوا بالحجة عليهم ، والله منجيه ، أو أسند الفعل إلى كبيرهم ؟

لأنه هو السبب لفعل إبراهيم ذلك . وذلك أنه غاظته تلك الأصنام ، إذ رآها مصطفة وكان غيظ كبيرها أشد بما رآه من شدة تعظيمهم له ؛ أو أراد أن النهاش - على زعمكم - أن يكون الفاعل هو الكبير . ومن شأن من يعبد أن يفعل هذا وأشد منه .

ويحتمل أن يريد بل فعله إبراهيم والفتى ، وهو هو . ويدل له وقف بعض على « فعله » ويكون كبيرهم هذا مبتدأ أو خبرا . وعبّر بالشبهة ، مع أن مقتضى الظاهر أن يقول : بل فعلته ، ليتوهموا أن الفعل مسند إلى كبيرهم ، وأن هذا بدل ، أو بيان ، كما في الأوجه السابقة وعلى هذا فبل إضراب عن الشك الواقع في الاستفهام .

وقال الفراء : الأصل : فلعله ، حذفت اللام الأولى من لعل ، وخففت الثانية ، وهو تكلف ، لكن تطابقه قراءة محمد بن السميفع فعلّه كبيرهم ، بالتشديد للام .

وفي حديث الشفاعة : إنهم يأتون إبراهيم فيقولون له : قم اشفع في أهل الموقف . فيقول : لستُ بأهلها ؛ لثلاث كذبات : قولي : « إني سقيم » وقولي : « بل فعله كبيرهم هذا » وقولي في سارة لمّا تعرض لها سلطان : إنها أختي ، مع أنها زوجتي . أو قال لها : إن سألوكِ فقولي : إنه أخي

وقال رسول الله ﷺ : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات . قلنا : ليس حمل ذلك على ظاهره من قول المسلمين ، ولكن سميت المعاريض كذبا لأنها على صورته . وقد قال ﷺ : إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب . فالمراد أنه لم يتكلم بما على صورة الكذب ، لكراهته صورتها ، إلا بهذه الثلاثة وأشفق منها

أما قوله : « بل فعله كبيرهم » فقد مر بيانه .

وأما قوله في سارة أخته ، فالمراد به أنها أخته في الدين ، أو أنها بنت آدم ، وهو ابن آدم .

وأما قوله : « إني سقيم » فمعناه إني سقيم لضلالتكم

وأما قوله : « بل فعله كبيرهم » فيحتمل التعليق بقوله : « إن كانوا ينطقون » وما بينهما اعتراض .

وزعم بعض أن ذلك كذب حقيقة ، أذن الله له فيه ، لمصلحة الدين

قال الفخر : فليهجر هذا فيما أخبر به الأنبياء . وذلك يبطل الوثوق بالشرائع ، ويطرق التهمة إليها . وإنما قال إبراهيم هذا لأنهم أتوا به إلى بيت الأصنام

(فَاسْأَلُوهُمْ) عن فاعله . (إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) جواب إن محذوف ، يدل عليه اسألوهم ، أو فعله كبيرهم . وفي ذلك تعريض ، بأن من لا يفعل شيئا أو لا يتكلم لا يكون إلها . وقياس الخط أن تكتب صورة ألف بعد الفاء ، ولم تكتب في مصاحف المغرب .

(فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ) بالتفكر والتأنى .

(فَقَالُوا) أي قال بعضهم لبعض : ما نرى الأمر إلا كما قال ، من أن الفاعل هو الكبير ، أو من أن الطريق أن نسألهم ، أو من ضلالة مَن يعبد التماثيل :

(إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ) على الحقيقة بقولكم : أأنت فعلت هذا ، بل اسألوا آلهتكم ، أو بقولكم : « من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين » أو بعبادة من لا يتكلم ، أو بعبادة الصغار مع الكبير .

(ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ) رُدُّوا إلى حالهم الصعبة بعد ملامتهم بقولهم : « إنكم أنتم الظالمون » فإنهم بعد ما قالوا : « إنكم أنتم الظالمون » في سؤاله ، بل اسألوا آلهتكم قالوا له : « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » فكيف

نسألة . والجملة مفعول لقول محذوف ، كما رأيت أو مفعول لانكسوا ؛ لتضمنه معنى جعلوا قائلين . وهذا القول نفس الانتكاس ، شبه التصعب بعد التلين ، بجعل أسفل الشيء أعلاه ، وهو النكس .

وهذه الجملة تدل على التوجيه الأول ، والثانى فى قوله : « إنكم أنتم الظالمون »

وأما على باقى التوجيهات ، فالنكس : الرجوع إلى الكفر بعد الإقرار ، ببطلان تلك العبادة إلا التوجيه الأخير ، فالنكس عليه : الرجوع إلى عبادة الكل ، بعد الاقتصار على الكبير .

وعن بعضهم : الجملة مفعول لقول محذوف ، يقدر حالا ، أى قائلين : لقد ع .

ويصح أن يكون المعنى انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم ، المجادلين عنه ، حين نفوا عنها القدرة على النطق ، أو قلبوا على رءوسهم حقيقة ، لفرط إطراقهم خجلا وانكسارا ، مما بهتهم به إبراهيم ، وما وجدوا إلا ما هو حجة عليهم .

وقرىء بتشديد الكاف . وقرأ رضوان بن عبد المعبود نكسوا بالبناء للفاعل مع التخفيف ، أى نكسوا أنفسهم على رءوسهم .

(قَالَ) لما اتضحت له الحجة بقولهم : إن هؤلاء لا ينطقون :

(أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً) أى نفعا ، فهو مفعول مطلق ، أو معناه : لا ينفعكم شيئا من رزق أو غيره ، على أنه مفعول ثان لينفع ، مضمنا معنى يعطى .

(وَلَا يَضُرُّكُمْ) إن تركتم عبادته. أنكر عليهم عبادة جماد لاينطق، فضلا عن أن ينفع أو يضر.

(أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أى نتنا وقبحا لكم. والأصل مثلا قبحتم أنتم وما تعبدون قبحا، فحذف قبحتم وما تعبدون، فجىء بما هو عوض من ضميره، مجرورا باللام بيانا، وبما مجرورا باللام أيضا. فأف مفعول مطلقا، كذا قيل. والصواب أنه اسم فعل.

قال بعضهم: أف صوتٌ إذا صوت به، عُلم أن صاحبه متضجر، أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتهم، بعد وضوح الحق.

وقرئ أف بكسر الهمزة، وأفًّا بفتح الفاء.

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أن هذه الأصنام ليست أهلا للعبادة.

(قَالُوا حَرِّقُوهُ) أى إبراهيم لما غلبهم الحجة أرادوا إحراقه. وهكذا المبطل، إذا أدحضت شبهته بالحجة وافتضح، لم يكن أحد أبغض إليه من المحق، ولم يبق له مفزع إلا معاداته، كما فعلت قريش برسول الله ﷺ، حين أعجزهم.

وقائل ذلك هو نمرود

وقال ابن عمر: رجل من الأكراد، من فارس، من باديتهم، وهو عجمى.

قال شعيب الجبائى: اسمه هرز وهو قول ابن عباس.

وقيل: نمرود بن لوش

وقيل: هينون، وخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة

ونسب القول إليهم، إما حكما على المجموع، وإما لرضاهم بقول القائل وأتباعه، أو لقولهم تبعا لقوله، فالكل قال، لكن بعض قال أصالة، وبعض تبعا،

واختاروا العقاب بالنار لأنها أهول ما يعاقب به وأفظعه ولذلك لا يعذب بالنار إلا خالقها كما قال.

(وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) أى ناصرين لها نصراً مؤزراً ، وإلا كنتم مقصرين فى حقها .

قال الثعلبى فى عرائس القرآن : لما عزم نمرود وقومه على إحراق إبراهيم ، حبسوه فى بيت ، وبنوا له بنياناً كالحظيرة ، فى قرية تسمى « كوثى » بناء مثلثة ، من العراق ويقال لها : سرة السواد ، وبها ولد ، ثم جمعوا له الحطب من أصناف الخشب ، حتى إن المرأة تمرض وتقول : لئن عوفيت لأجمعن حطباً لإبراهيم .

وكانت المرأة تنذر إن أدركت ما تطلب لتجمعن له حطباً ، وكذلك الرجل ويفعلون ذلك احتساباً ، وتغزل المرأة ، وتشترى الحطب بغزلها .

وكانوا يوصون بشراء الحطب ، حتى إن الشيخ الكبير الفانى الذى لم يخرج زماناً يجىء بالحطب ، ويلقيه تقرباً إلى آلهتهم .

قال ابن إسحاق : كانوا يجمعون الحطب شهراً ، وجمعاً كثيراً ، فأشعلوا النار فى كل ناحية ، فاشتد التهابها ، حتى إن الطائر يمر بالهواء فيحترق .

قيل : أوقدت سبعة أيام ، ثم أرادوا إلقاءه فيها ، ولم يتمكنوا منه لشدة الحريق ، فجاء إبليس فى صورة شيخ فقال : أنا أدلكم على صنعة آلة يلقى بها ، فعلمهم صنعة المنجنيق ، وهو أول ما صنع ، فوضعوه مقيداً مغلولاً فى المنجنيق .

وقيل : رفع إلى رأس البنيان وقيد ، وصنع المنجنيق ، وأمسكوا المنجنيق ، فقبضت الملائكة على أستاره . فقال لهم إبليس : إيتوا بالنساء منكشفات و ينكشفن للرجال ، ففعلوا ، وصاحت السموات والأرض ، من الملائكة والدواب إلا الإنس والجن صيحة واحدة : يا ربنا إبراهيم خليلك ليس فى الأرض أحد يعبدك غيره ، يحرق فيك . فائذن لنا فى نصرته .

فقال لهم تبارك وتعالى : إن استغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره ، فقد أذنت له ، وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به ، وأنا وليه . فخلوا بيني وبينه .

فلما أرادوا إلقاءه ، أتاه ملك المياه فقال : إن أردت أخمدت النار ، فإن خزائن المياه والأمطار بيدي . وأتى خازن الريح فقال له : إن شئت طيرت النار في الهواء ؟ فإن خزائن الريح بيدي . فقال لهم إبراهيم : لا حاجة لي إليكم ثم رفع رأسه إلى السماء فقال : اللهم أنت الواحد في الأرض ، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري .

وقيل : قال لهم : لا حاجة لي إليكم ، حسبي الله ونعم الوكيل .

وعن المعتمر عن أبي بن كعب عن أرقم : قال إبراهيم — حين أوثقوه ليلقوه في النار — : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك ، لا شريك لك . قالوا : ثم رموا به في النار من موضع بعيد . فقال له جبريل في الهواء : يا إبراهيم ألك حاجة ؟

قال : أما إليك فلا .

قال له جبريل : فاسأل ربك .

قال له إبراهيم : حسبي من سؤالي علمه بحالي ، حسبي الله ونعم الوكيل .

وفي الخبر أنه نجى بقوله : حسبي من سؤالي الخ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال إبراهيم : حسبي الله ونعم الوكيل حين ألقي في النار . وقالها سيدنا محمد ﷺ ، حين قيل له : إن الناس قد جمعوا لكم .

وجعل كل شيء يطفىء النار بالماء إلا الوزغة ، فإنها كانت تنفخ في النار . ولذلك أمر ﷺ بقتلها ، وفي قتلها أجر عظيم ، وهي سام أبرص بتشديد الميم ، وسم أبرص ، بإسقاط الألف .

وفى القاموس : ابن سام أبرص ، وسم أبرص : الوزغة الكبيرة الجسم .
وأكثر اجتهاداً فى إطفاء النار الضفادع ، كانت تحوم حولها ما لا يحوم غيرها .

قال الشيخ إسماعيل ـ رحمه الله ـ عن النبى ﷺ : لا تقتلوا الضفادع ، فإن الذى تسمعون منها تسبيح وتقديس ، « إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما ألقى فى النار استأذنت دواب البر والطير أن تطفىء عن إبراهيم النار ، فأذن الله الضفادع ، فتراكبت على النار ، أى رمت بنفسها عليها ، فذهب ثلثاها ، أى ثلثا كل ضفدع ، وبقى الثلث ، فأبدل الله لها حرارة النار برد الماء . وظاهره ما أذن فى الإطفاء إلا الضفادع وذكر بعضهم خلاف ذلك .

وروى أن الدواب التى يحمل عليها امتنعت من حمل الحطب إلا البغل والبهلة ، فأعقمها الله . وناداها جبريل : « يا نار كونى بردا وسلاما » وهو المراد بقوله :

(قُلْنَا) أمرنا بالقول فإن القائل جبريل ، أو من قول الشىء ، بمعنى إيجاده .
(يَا نَارُ) نكرة مقصودة .
(كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ) أمرها أن تكون نفس البرد والسلامة مبالغة ، أو يقدر مضاف ، أى ذات برد وسلامة ، أو يؤولان بالوصف ، أى باردة وسالمة ، من أن تضره ، أو مصدران لخبر محذوف ، أى كونى باردة برداً وسالمة سلاماً ، والواو عاطفة لمحذوف على قلنا ، أى وسلمنا سلاماً عليه .

وفى الكلام مبالغة ، بجعل النار مسخرة بقدرته ، مأمورة مطيعة ، وإقامة كونى بردا مقام أبردى ، و مرها بأن تكون نفس البرد ، على ما مر . والمراد بردا عظيما لكنه غير ضار .

وعن ابن عباس وعلى : لو لم يقل : وسلاما ، لضره البرد فيموت .

قيل : لو لم يقل : على إبراهيم ، لبقيت بردا أبدا ، نزع الله طبعها الذى هو الإحراق .

ويجوز أن يكون باقيا فيها ، لكن دفعه الله عن جسم إبراهيم ، وأذاقه عكسه ، كما دفعه عن الخزنة ـ عليهم السلام ، وكما يرى فى السمندل ، وهو طائر ، يرمى نفسه فى النار ولا تؤذيه .

قال عمرو بن واصل : كنت عند سهل ليلا ، فأخرجت فتيلة السراج ، فنالت من أصبعى شيئا يسيرا ، تألمت منه . فنظر إلىّ ، ووضع أصبعه على النار ، نحو ساعتين ، لا يجد ألما ، ولا أثرا بأصبعه ، وهو يقول : أعوذ بالله من النار .

ويدل لهذا قوله : « على إبراهيم » وما روى أنهم قالوا : هذه النار مسحورة لا تحرق ، فرموا فيها شيخا منهم فاحترق ، ولم تحرق من إبراهيم إلا ما ربطوه به ، ولم يبق يومئذ نار إلا طفئت .

وعن كعب وقتادة والزهرى : ما انتفع يومئذ أحد بنار فى الدنيا .

ولما كان فى الهواء أخذت الملائكة بضبعيه ، فأقعدوه على الأرض فإذا عين ماء عذب ، وورد أحمر ، ونرجس أصفر ، وطعام من الجنة وفراش منها .

وروى أن العيدان أثمرت له ثمارها هناك ، وأقام فيها سبعة أيام .

قال المنهال بن عمر : قال إبراهيم الخليل : ما كنت قط أياما أنعم عيشا من الأيام التى كنت فيها فى النار .

قال ابن إسحاق : بعث الله له ملك الظل فى صورة إبراهيم ، فقعد إلى جنبه يؤانسه ويحدثه . وأتاه جبريل بقميص من الجنة فقال : يا إبراهيم إن الله تعالى يقول لك : أما علمت أن النار لا تضر أحبابى . وألبسه القميص

ويروى أن جبريل أتاه بقميص من حرير الجنة وطنفسة منها، فألبسه القميص، وأقعده على الطنفسة، وأشرف عليه نمروذ من علية له، وهو يظن أنه قد احترق ومات،

فرآه جالسا على تلك الحال المذكورة كلها، والحطب يشتعل حوله،

فناداه : يا إبراهيم إن إلهك الذى بلغت قدرته إلى أن حال بينك وبين النار، وبين ما هنالك ضررها الكبير. يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها ؟

قال : نعم.

ثم قال : تخشى إن قمت فيها أن تضرك.

قال : لا.

قال : فقم فاخرج منها

فقام فخرج منها.

فقال له : يا إبراهيم مَن الرجلُ الذى رأيتُ بجنبك فى مثل صورتك قاعدا؟

قال : ذلك مَلَكُ الظل، أرسله ربى إلىَّ ليؤنسنى.

قال نمروذ : يا إبراهيم إنى مقرب إلى إلهك قربانا، لما رأيتُ من قدرته بما صنع لك، حتى أبيتَ إلا عبادته وتوحيده.

قال إبراهيم : هو الله قادر.

قال نمروذ : إنى أريد أن أذبح له أربعة آلاف بقرة.

قال له إبراهيم : إذن لا يقبل الله منك ما كنتَ على دينك حتى تفارقه وترجع إلى دينى.

قال : يا إبراهيم لا أستطيع ترك ملكى، ولكن سوف أذبحها له، فذبحها له نمروذ، وصرف الله ضره عنه من يومئذ. وقال له : نعم الرب ربك يا إبراهيم.

قال شعيب الجبائى : ألقى فى النار وهو ابن ست عشرة سنة، وذبح إسحاق،

وهو ابن تسع سنين، وولدت سارة له، وهي بنت تسعين سنة، وسرعة يومين، وماتت في اليوم الثالث، وآمن به ثلاث رجال من قومه، على خوف من نمروذ.

وقيل: كان ذلك في كوثى الشام لا كوثى العراق، وهو باطل.

(وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا) إهلاكا ظلما وهو التحريق.

(فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) الكاملين الخسران في سعيهم، اجتهدوا في الحطب والهذيان، وإنفاق المال، فضاع سعيهم، ولم تحرقه النار.

قال أحمد بن حنبل: يعلق على المحموم: بسم الله الرحمن الرحيم. يا الله. يا الله محمد رسول الله ﷺ. يا نار كوني بردا وسلاما - إلى - الأخسرين. اللهم رب جبريل وميكائيل، اشف حامل هذا بحولك وقوتك، يا أرحم الراحمين.

(وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا) وهو ابن أخيه هاران، من العراق، على الصحيح، ووالد هاران تارخ، ولهما أخ ثالث يقال له ناخور بن تارخ.

قال الثعلبي في عرائس القرآن: فهاران أبو لوط، وناخور أبو توبيل بن لابان بن ناخور، ورفقاء بنت توبيل امرأة إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب. وليا وراحيل زوجتا يعقوب هما ابنتا لابان، وآمنت به سارة بنت عمه، وهي سارة بنت هاران الأكبر، عم إبراهيم. وكانت سارة بنت ملك حران، طعنت في دين قومها، فتزوجها إبراهيم.

قال ابن إسحاق: خرج إبراهيم من كوثى، وهي قرية في العراق، ونزل لوط المؤتفكة وهي من العراق. ونزل إبراهيم بحران، فمكث ما شاء الله، ثم قدم مصر، ثم الشام فنزل السبع من أرض فلسطين.

(إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) وهي الشام. نزل إبراهيم السبع

وقوّة الوقفة ، وبينهما نحو يوم وليلة ؛ وذلك قول الجمهور ، وبركة الشام : الخصب ، وكثرة الشجر والثمار والأنهار .

قال أبي : ما من ماء عذب إلا ينبع من تحت صخرة بيت المقدس .

وقيل : إن أكثر الأنبياء منها

وقال عمر بن الخطاب لكعب - رضي الله عنهما - : ألا تتحول إلى المدينة؟ فيها مهاجَر رسول الله ﷺ ، وقبره .

فقال كعب : إني وجدت في كتاب الله المنزل أن الشام كنز الله في أرضه .

وعنه ﷺ : ستكون هجرة بعد هجرة . فخيار أهل الأرض ، ألزمهم مهاجَر إبراهيم . أراد الهجرة إلى الشام ، ورغب في المقام فيها . وقال : طوبى لأهل الشام ؛ لأن الملائكة باسطة أجنحتها عليها

وأمر أويس هرم بن سنان أن يكون بالشام .

وقال رجل لرسول الله ﷺ : أين تأمرني ؟

فقال : ها هنا ، وأشار إلى الشام بيده الكريمة ، وهي أرض المحشر ، وبها ينزل عيسى - عليه السلام ، ويقتل الدجال .

قول لسفيان - وقد رحل إليها - : إلى أين ؟

فقال : إلى بلد يملأ فيه الجراب بدرهم .

وقيل : المراد بالأرض : مكة .

وروي أن نمرود - لعنه الله - قال له : أين جنود ربك الذي تزعم ؟

فقال له : سيريك مِن أضعف جنده .

فبعث الله إليه سبحانه بعوض، فأكلت جنده ودوابهم وما لهم، حتى إن العظام بقيت بيضا، ودخلت بعوضة فى رأسه. وكان يضرب بالعمود ثم هلك.

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً) قيل: بمعنى عطية، فهو حال مؤكدة لعاملها، وكلاهما عطية.

وقيل: بمعنى زيادة على التنجية، فهو حال غير مؤكدة، والإفراد لتضمن معنى المصدر.

وقيل: النافلة: ولد الولد، فهو حال من يعقوب؛ فإنه ابن إسحاق بن إبراهيم وهو قول ابن عباس.

وروى أنه سأل ولدا فأعطيه، وأعطى ولد الولد، زيادة وتفضلا، من غير سؤال.

(وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ) بالتوفيق للصلاح: إبراهيم ولوطا وإسحاق ويعقوب.

وقيل: المراد: هو ولداه.

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً) يقتدى بهم فى الخير، بهمزة مفتوحة محققة، فهمزة مكسورة مسهلة، وبعض يحققهما، وبعض يبدل الثانية ياء.

(يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) أى يهدون الناس إلى الحق بأمرنا لهم: أن يهدوهم وبإرسالنا.

وفى الآية إشارة إلى أن من صلح أن يكون قدوة فى دين الله، فالهداية محتومة عليه، ليس له أن يتثاقل عنها. وإلى أنه يجب أن يتقدم على هداية غيره، باهتدائه فى نفسه. فإن الانتفاع بهداه أعم، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل. وبذلك يكون كاملا.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ) العمل بالشرائع .

قيل : الأصل : أن يفعل الخيرات ، بالفعل وحرف المصدر ، ثم فعلا الخيرات بالمصدر المنون العامل ، ثم قيل : فعل الخيرات ، بترك التنوين ، وبالإضافة .

(وَإِقَامَ الصَّلَاةِ) الأصل : إقوام ، نقلت فتحة الواو للقاف ، فقلبت ألفا ، فحذفت إحدى الألفين ، لالتقاء الساكنين ، أو لما نقلت الفتحة ، حذفت الواو الثالث ، ولم يعوض التاء عن المحذوف ، على خلاف القياس .

وقيل : عدم التعويض مع الإضافة مقيس لقيام الإضافة مقام التاء ، والأول مذهب ابن هشام .

قال في المغنى : وأما « وإقام الصلاة » فما يوقف عنده . انتهى . وأطلت في شرح اللامية .

(وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ) في إقام الصلاة ، وفي إيتاء الزكاة ونحوهما ، من للصادر المضافة لمعمولها ما مر في قوله : « فعل الخيرات » وعطف إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة على فعل الخيرات ، عطف خاص على عام للمزية ؛ فإن الصلاة أفضل العبادات البدنية ، وشرعت لذكر الله والخشوع . والزكاة أفضل العبادات المالية ، وشرعت الشفقة على خلق الله .

(وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) مطيعين أو موحدين بإخلاص كما يفيده تقديم لنا .

(وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا) فصلا بين الخصوم ، أو حكمة ، أو نبوة (وَعِلْمًا) يليق بالنبي .

(وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ) وهي سدوم ، أي يعمل أهلها الخبائث ، وهي اللواط ، والرمي بالبندق ، واللعب بالطيور ، والضرط في مجالسهم .

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ) دليل على تقدير المضاف في قوله : «نعمل» قبل هذا كالتعليل للإخراج . والسوء مصدر ساءه يسوءه سوءه . والفسق : الشرك . قاله الشيخ هود .

(وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا) النبوة ، أو الثواب وهو الجنة ؛ أو الرحمة العامة لذلك والإنجاء له من قومه ، أقوال . وقدر بعض : في أهل رحمتنا .

(إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) من الأنبياء أو أهل الجنة ، قولان . (وَنُوحًا) مفعول لمحذوف ، أى اذكر نوحا .

(إِذْ) بدل اشتمال من نوح ، والرابط ضمير الجملة المضاف إليها إذ ، وهى قوله : (نَادَىٰ مِن قَبْلُ) من قبل هؤلاء المذكورين . وقيل : من قبل إبراهيم ولوط . ونداؤه هو دعاؤه : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » الخ

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ) دعاءه (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ) قيل : كان معه فى السفينة ثلاثة بنين ونساؤهم وامرأته ، ولعلها امرأة غير الكافرة .

(مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) الكرب : الغم . وقيل : الشدة . والمراد : الغرق وتكذيب قومه له . وروى أنه ـ عليه السلام ـ كان أطول الأنبياء عمراً وأشدهم بلاء .

(وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) قال ابن هشام : من بمعنى على .

وقيل : من على بابها لتضمين النصر معنى المنع . والأول قول أبى عبيدة .

ويجوز أن يكون المعنى جعلناه منتصراً منهم . قال جار الله : سمعت هذليا يدعو على سارق : اللهم انصرهم منه ، أى اجعلهم منتصرين منه .

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) لأمرين ما اجتمعا فى قوم إلا هلكوا : التكذيب ، والانهماك فى الشر

(وَدَاوُودَ) مفعول لمحذوف مستأنف ، أى واذكر ، أو معطوف على نوحا وقد مر أن نوحا مفعول لمحذوف .

ويجوز عطف نوحا وداود على لوطا ، أى وآتينا لوطا ونوحا وداود . وهذه الأوجه أيضاً فى قوله : « وأيوب » وقوله : « وإسماعيل » . وقوله : « وذا النون وزكريا ومريم » وإذ فى الهيكل بدل اشتمال مما قبله ، والرابط الضمير من الجملة بعده .

(وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ) قال ابن عباس والجمهور : كان الحرث كرْما قد نزلت عناقيده .

وقيل : كان زرعاً مثل الحنطة والجزر والبر والشعير (إِذْ نَفَشَتْ) رعت (فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ) ليلا بلا راع ، بأن انفلتت .

قال بعضهم : النفش : الرعى ليلا .

وقيل : الانتشار فيه ولو من النهار .

(وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ) الضمير لسليمان وداود الحاكمين ، ولمن حكما له ، ومن حكما عليه .

وقيل : لداود وسليمان ، والاثنان جمع مجازا . وقيل : حقيقة . ويدل لرجوع الضمير لهما قراءة بعضهم : وكنا لحكمهما

(شَاهِدِينَ) حاضرين عالمين .

(فَفَهَّمْنَاهَا) أى الحكومة ، أو القضية المفهومة من الكلام . وقرئ فأفهمناه (سُلَيْمَانَ) أى ألهمناه إياها ، مفعول ثان متقدم ، وسليمان مفعول أول .

(وَكُلًّا) داود وسليمان (آتَيْنَا حُكْمًا) نبوة (وَعِلْمًا) بأمور الدين ، على وجه الاجتهاد .

وقيل : على طريق الوحي . فضل الله حكم سليمان ، ونسخ به حكم داود . وفى ذلك دليل أن الاعتبار بالحق لا بالتقدم والأبوة ونحوها . فقيل : حكما بالوحي ، ونسخ وحيُ سليمان وحيَ داود .

وقيل بالاجتهاد بناء على جوازه للأنبياء . والاجتهاد لا ينسخ الوحي ، فيحتمل أن الله قد عرفهما أن حكم سليمان هو الحق .

ويحتمل أنه لم يعرفهما ، وأخبر الله به هذا النبي الكريم .

والحاكم المجتهد إذا أخطأ فله أجر واحد ولا إثم إلا فى الخطأ فى الأصول . وإذا أصاب فله أجران .

وإذا اختلف المجتهدون ، فالحق مع واحد فقط عند الله ، لا معهم ، على الصحيح . ويمكن خطؤهم . وفى مضمونه « وكلا آتينا حكما وعلما » دليل على إصابتهما لكن أحدهما أولى .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب حبوب ، والآخر صاحب غنم . قلت : ظاهر هذه الرواية أن الحرث فى الآية الزرع .

قال : فقال صاحب الزرع : إن غنم هذا أكلت زرعى ليلا وأفسدته ، ولم يبق شىء .

قلت : هذا نص أن الحرث : الزرع . وإنما كتبت ما كتبت من الاستظهار ، قبل اطلاعى على هذا .

فأعطاه داود رقاب الغنم ، فخرجا فمرا على سليمان فقال : كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه .

فقال سليمان : لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا .

وقيل : قال : غير هذا أرفق بهما . فأخبر بذلك داود فدعاه وقال : كيف تقضى ؟

وروى أنه قال : بحق النبوة والأبوة إلا ما أخبرتنى بالذى هو أرفق .

قال : صاحب الغنم يدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بدرّها ونسلها وصوفها ومنافعها ، ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه ، ويقوم به حتى يصير كهيئته ، فيدفعه إلى صاحبه ويرد غنمه .

فقال داود : القضاء ما قضيتَ . حكم بذلك .

وفى ذلك بيان أن الغنم هنا : الضأن لقوله : وصوفها . وسليمان إذ ذاك ابن إحدى عشرة سنة . ووجه حكومة داود أن الضرر وقع بالغنم فسلم بجنايته إلى المجنى عليه ، كما أن العبد إذا جنى مثل قيمته أو أكثر بلا أمر صاحبه ، فالجنى عليه يأخذ العبد له ، عند بعض أصحابنا . وبه قال أبو حنيفة ، وزاد : أو يفديه صاحبه .

وقال الشافعى : يبيعه فى ذلك أو يفديه .

وقال بعض أصحابنا : الخيار له يدفعه أو قيمته ، وإن أمره لزمه كل ما فعل .

قال جار الله : ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان فى الحرث .

ووجه حكم سليمان أنه جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات من الانتفاع بالحرث ، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث حتى يرجع كما كان ، بناء على أنه بقيت أصوله ، أو يجدد حرثا يربيه ، حتى يصير كذلك ، وصاحب الحرث لم يأخذ زيادة ؛ فإنه ولو كان قد رجع حرثه ، واستنفع بالغنم ، لكنه قد يفنى بالغنم ، كما أن من غصب عبدا ، وأبق من يده ، يرد قيمته إلى صاحبه ينتفع بها ، فإذا رجع ترَادّا ، عندنا وعند الشافعى .

وعن الشيخ هود ـ رحمه الله ـ عن الكلبي : أن ثمن الحرث قريب من ثمن الغنم . ونص الشيخ هود ـ رحمه الله ـ أن داود للذوها سليمان، ودخل عليه وأسمعه قال: قد عدل النبي وأحسن، وغيره كان أرفق. وذكر له ما ليس ولا يخفى ما فيه من لطف وأدب .

وروى عن الكلبي : الحرث كان نبتاً .

وقال ابن مسعود وشريح : إن راعياً نزل ذات ليلة قريباً من كرم ، فدخلت الأغنام الكرم ولا يشعر ، فأكلت العضبان ، وأفسدت الكرم كله في عرائس القرآن ، وذكر فيه أن ابن عباس وقتادة قالا : كان الحرث زرعا ، وجعل تلك القصة منه . وكذا غالب القصص أنقلها منه ، ومؤلفه الثعلبي ، وهو غير ثعلب ، وغير الثعالبي . وهو مجموع عظيم في القصص فقط

وإن قلت : فما الحكم في مثل ذلك إن وقع بالإسلام ؟

قلت : مذهبنا ـ معشر الأباضية ـ أن ما أفسد الحيوان قل أو كثر ، في مال ، أو نفس ، يضمنه صاحب الحيوان إلا إن عقر حيوانا آدميا أو غيره ، ولم يعرف أنه يعقر ، فلا ضمان إلا أن يعود ، وإن عرف أنه يعقر في صنف ، فعقر في غيره ضمن .

وقيل : لاحق يعود .

وإن هربت دابة فأفسدت في هروبها فلا ضمان إن لم يصح عليها .

وقيل : وإن صاح وإن ... نبا برط فيه عقلها فقطعته لم يضمن .

وقيل : ما أفسده الحيوان ليلا ضمن صاحبه ، ولا ضمان عليه فيما أفسدت نهـــارا .

وروى أن ناقة البراء بن عازب وقعت في حائط رجل من الأنصار أفسدت ،

فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : لا أجد الحكم إلا قضاء سليمان بن داود ،
وقضى على أهل المواشي بحفظها ليلاً ، وعلى أهل الحوائط بحفظ حوائطهم نهاراً ؛
وبذلك الحكم أرجع ، وهو مذهب الشافعي وشيخه مالك ، وجمهور الأمة .

ووجهه أن النهار وقت رعيها .

وقال ابن سحنون من علماء الأندلس : ذلك في أمثال المدينة التي هي حيطان ، وأما البلاد التي هي غير محوطة ، فعلى أصحاب الغنم فيها الضمان ليلاً ونهاراً .

وعن مالك أن الدواب المعتادة أن تأكل الزرع والثمار تباع في بلد لا زرع فيه . قال ابن حبيب : وإن كره أصحابها . وأما ما يستطاع الاحتراز منه ، فلا يؤمر صاحبه بإخراجه من ملكه .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا ضمان بالدابة إلا أن يكون معها سائق أو قائد .

وعن أبي رحمة من أصحابنا ـ رحمهم الله ـ في من أفسد غرسة : إن تم لها سنة فعليه دينار ، أو سنتان فديناران ، أو ثلاث فثلاثة ، أو أربع فأربعة أو خمس فخمسة . وما زاد فقيمته .

وفي زرع دخلته ماشية قوم بين غنم وجمال وبقر ودواب فوطئته بأرجلهن إن عشر شياه بدرهم ، ولكل جمل أربعة دراهم ، ولكل ثور درهم ، ولكل ذي حافر درهم ونصف

وقيل : في الفرس ثلاثة دراهم .

ومن أحكام داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ ما روى أن النبي ﷺ قال : « بينما امرأتان معهما ابنان لهما ، إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحاكمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى . فخرجتا فدعاهما سليمان . فقال : هاتوا السكين أشقه

بينكما . فقالت الصغرى : رحمك الله ، هو ابنها . لا تشقه . فقضى به للصغرى ، أى استدلالا بشفقتها . والله أعلم .

(وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ) حال من الجبال ، أو مستأنف . أقدرها الله على التسبيح : يقلن : سبحان الله . هذا قول الأكثرين .

وروى أنه كان يمر بالجبل يسبح ، فيجاوبه الجبل بالتسبيح . وفى ذلك تنشيط له .

وقال منذر بن سعيد : تسبيح الصلاة .

وقيل : تسبيح الجبال وإذا مر سمع تسبيحها فينشط .

وقيل : إن الجبال تسير معه ، فمن رآها تسير معه سبح تعظيما لقدرة الله ، فلما كانت حاملة على التسبيح وسببا له ، جعلت مسبحة .

وقيل : التسبيح : السير من السباحة ، شبه سيرها ؛ لأنه ليس كالسير فى الماء .

وقيل : يسبحن بلسان الحال ، أو بصوت من غيرها يتمثل له . ومع متعلق بيسبحن أو سخرنا .

(وَالطَّيْرَ) مفعول معه ، أو معطوف على الجبال .

وقرئ بالرفع على الابتداء ، أو عطفا على الضمير المرفوع المتصل ، وهو نون يسبحن بلا فاصل ، وعلى الابتداء يقدر الخبر هكذا : أى والطير كذلك ، أو تسبح .

(وَكُنَّا فَاعِلِينَ) فعلك وأمثاله . وليس ببدع فى قدرتنا وإن كان عجيبا عندكم .

وقيل : وكنا فاعلين مثل ذلك للأنبياء .

(وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ) واللبوس: الدرع، لأنها تلبس لهو كقولك: حلة وركوب. وهو أول من صنعها، وكانت قبل ذلك صفائح، فخلقها وسردها.

ويحتمل أن يكون اللبوس بمعنى مطلق اللباس، ولو كان المراد الدرع فلا يكون كحلة وركوب، بل كحمل وركوب. وكان الحديد فى يده كالطين، يصنع منه الدرع فى الحرب بلا نار. وفى صنعها جمع الخفة والتحصن.

(لَكُمْ) فى جملة اللباس، متعلق بعلمناه، أو بمحذوف نعت للبوس.

(لِيُحْصِنَكُمْ) أى ليحصنكم داود، أو ذلك اللباس الملبوس، على طريق حمل وركوب، أو ليحصنكم الدرع الملبوس. وذكرت لتأويلها باللباس.

وقرأ ابن عامر وحفص بالتاء، أى لتحصنكم الدرع الملبوس أو اللباس، لتأويله بالدرع، أو لتحصنكم الصنعة.

وقرأ أبو بكر وورش بالنون.

وقرئ بتشديد الصاد وفتح الحاء، قبلها مثناة تحتية.

والحصن والتحصين: المنع لكن فى الثانى مبالغة. وليحصنكم بدل من لكم بدل اشتمال.

(مِنْ بَأْسِكُمْ) حرب عدوكم أو وقع السلاح فيكم.

قال بعضهم: وقيل: ليحصنكم الله، يعنى على طريق الالتفات.

(فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) والخطاب فى ذلك كله لهذه الأمة، أو لجملة الناس بعد داود وأهل بيته.

وظاهر اللفظ استفهام. والمراد: الأمر بالشكر، وفى ذلك مبالغة وتقريع.

(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ) عطف على معمولى عامل، أى وسخرنا لسليمان الريح.

وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر.

وقرئ الرياح بالنصب والرفع .

قال القاضي : لغة اللام فيه دون الأولى ؛ لأن الخارق فيه عائد إلى سليمان نافع

له . وفي الأولى أمر يظهر في الجبال والطير مع داود بالإضافة إليه . انتهى .

قوله : الريح جسم لطيف ، يمتنع لطفه من القبض عليه ، يظهر للحس بحركته .

(عَاصِفَةً) حال من الريح ، في قراءة النصب ، ومن ضميرها في قوله : لسليمان ،

في قراءة الرفع ، أي شديدة الهبوب . وإذا أراد لانت كما قال : رخاءً .

وقيل : تحمل بساطه ومن معه فيه من الأرض ، وهي عاصفة وتسير

بهم لينة .

ويصح أن يقال : عاصفة ، من حيث عملها ، إذ كان غدوها شهراً ، ورواحها

شهراً ، ورخية : طيبة في نفسها .

قول : ويحتمل أن يكون العصوف في الرجوع ، على عادة الدواب في الإسراع

إذا رجعت ، واللين في الذهاب ، فإنه وقته تأنٍّ وتدبر ما يصلح .

(تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) هي الشام وهو منزله ،

وجريها به إنما جرى رجوع بعد ذهاب .

وقيل : الأرض هنا هي التي سبق في علمه أن تكون فيها البركة ، فيمشي

إليها سليمان عليه السلام ، يصلحها . والجملة حال ثانية ، أو حال من ضمير الأولى .

قول : أو بدل منها .

قال زيد بن ثابت بينما نحن حول رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع ،

إذ قال : طوبى لأهل الشام .

قيل : يا رسول الله ولِمَ ذلك ؟

قال : لأن ملائكة الرحمة باسطة أجنحتها عليهم .

وعن عبد الله بن حوالة . قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : والله لا يزال هذا الأمر فيكم حتى يفتح الله فيكم أرض فارس والروم وأرض حمير ، ثم تكونوا أجناداً ثلاثة : جند بالعراق ، وجند باليمن ، وجند بالشام .

فقلت : أخبرني يا رسول الله إن أدركني ذلك أين أكون ؟

قال : أختار لك الشام ، فإنها صفوة الله من بلاده ، وإليها يلتحق صفوة الله من عباده . يا أهل الإسلام عليكم بالشام وأهله .

وعن عبد الله بن مسعود قال : الخير عشرة أجزاء : تسعة بالشام ، وواحد بالعراق . ودخل الشامَ عشرةُ آلاف عين رأتْ رسول الله ﷺ ، فيهم سبعون بدرياً .

وعن الكلبي : صعد إبراهيم جبل لبنان . فقيل : انظر فما أدرك بصرك فهو مقدس ، وهو ميراث لذريتك من بعدك ، فذلك قوله عز وجل : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم » أي أن تسكنوها .

قال الثعلبي في عرائس القرآن : قيل : ما تنقص الأرض تزاد بالشام ، وما تنقص الشام تزاد بفلسطين . وذكر أن وهب بن منبه قال : بينا سليمان ـ عليه السلام ـ يسير على ساحل البحر ، والريح تحمله ، والإنس عن يمينه ، والجن عن شماله ، والطير تظله ، إذ نظر إلى أمواج البحر ، فدعته نفسه أن يعلم ما في قعر البحر فأمر الريح فسكنت .

ثم قعد على كرسي مُلكه ، ثم دعا رئيس الغواصين فقال : اختر لي من أصحابك مائة ، فاختار مائة .

قال : اختر لي ثلاثين منهم فاختار .

ثم قال : اختر لى من الثلاثين عشرة ، فاختار .

ثم قال : اختر لى من العشرة ثلاثة ، فاختار .

فقال لأحدهم : غص حتى تنظر قعر البحر ، وتأتينى بالخبر . فغاص وأبطأ

ثم خرج فقال له سليمان ـ عليه السلام ـ : ما الذى رأيتَ ؟

قال : رأيت يا نبى الله أمواجا وحيتانا وبنيانا ، غير أنى رأيت ملكا .

فقال لى : أين تريد ؟

فقلت : إن نبى الله سليمان بعثنى أنظر قعر البحر .

قال : ارجع إليه ، واقرأه منى السلام ، وقل له : إن قوما ركبوا البحر منذ أربعين سنة ، فسقط من أيديهم قدوم ، فهو يتلجلج فى البحر ما بلغ قعرَه بعد .

قال : فعجب من ذلك وأتى بما قصد . فبينما هو على شاطىء البحر ، رأى قبة من زجاج ، تضربها الأمواج فى لجة البحر .

فقال سليمان ـ عليه السلام ـ : غوصوا فى أثرها ، فغاصوا فأخرجوها .

فلما وضعت على ساحل البحر انفتح لها بابان ، أى مصراعان .

فخرج من القبة شاب عليه ثياب أبيض من اللبن ، كأن رأسه يقطر ماء .

فجاء حتى وقف بين يدى سليمان . فقال له : أمن الجن أنت يا فتى ؟ أم من الإنس ؟

فقال : من الإنس . فعجب منه ومن هيئته .

فقال : ما بلغ بك ما أرى ؟

قال : يا نبى الله كانت لى والدة ، وكنت من أبرّ الناس بها ، أطعمها وأسقيها بيدى ، ولا أترك شيئاً من صنائع البرّ إلا صنعته بها .

فلما أدركتها الوفاة سألتها أن تدعو لي . فرفعت رأسها إلى السماء وقالت : يا رب قد عرفت برّ ولدي ، فارزقه الشهادة في موضع لا يكون لإبليس وجنوده إليه سبيل فيه . ثم ماتت ودفنتها .

فلما خرجتُ إلى الساحل إذا أنا بهذه القبة فدعتني نفسي أن أدخلها . فلما دخلتها انطبق عليّ بابها ، وتزاخرت الأمواج بها .

فقال له : من أين مطعمك ومشربك ؟

فقال له : يا نبي الله إذا كان الليل جاءني طائر أبيض ، في منقاره شيء أبيض ، فيدمه إليّ ، فهو يحسبني من الطعام والشراب .

فقال : من أين تعرف الليل والنهار وأنت في ظلمات البحر ؟

قال : في القبة خطان : خط أبيض ، وخط أسود . فإذا رأيت الأبيض غالباً علمت أنه النهار ، وإذا رأيت الأسود غالباً علمت أنه الليل . وقال له : هل لك في صحبتنا ؟

فقال : يا نبي الله ائذن لي حتى آتي قبتي . فأذن له ، فانطبق عليه بابها ، وتزاخرت بها الامواج ، والله أعلم .

(وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ) نجري الأشياء على ما يقتضيه علمنا وحكمتنا فما أعطى سليمان يدعوه إلى الخضوع لربه .

قال الثعلبي في عرائس القرآن : عن مجاهد وابن إسحاق وابن بشار وغيرهم . كان سليمان — عليه السلام — رجلا غزّاء ، لا يكاد يقعد عن الغزو . وكان لا يسمع بملك إلا أتاه وأذله وقهره . وإذا أراد الغزو بعسكره يضرب له ، بحيث يحمل عليها الناس والدواب وآلة الحرب . وما يحتاج ، أمر العاصف تحتملها عن الأرض ، فيأمر الرخاء

قال ابن إسحاق : ذكر لي أن منزلا من ناحية دجلة ، وجد مكتوبا فيه : كتبه بعض أصحاب سليمان من الجن ، أو من الإنس : نحن نزلناه وما بنيناه . غزونا من إصطخر فقلناه ونحن رائحون : إن شاء الله بائتون بالشام ، وتمر ريحه الحانية للمك بالمزرعة ، ولا تحركها ، ولا تحمل ترابا ، ولا تؤذي طائرا

ومر يوما بحرّاث فقال : لقد أوتي ابن داود مُلكا عظيما . فحملت الريح كلامه ، وألقته في أذن سليمان . فنزل وأتى الحرث . فقال : إني سمعت كلامك . وإنما مشيت إليك ، لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه . تسبيحة واحدة يقبلها الله خير مما أوتي آل داود .

فقال الحراث : أذهب الله همك كما أذهبت همي

ومن مقاتل : نسجت الشياطين لسليمان بساطا ، فرسخا في فرسخ ، ذهبا في إبريسم . ويوضع له منبر من الذهب ، في وسط البساط ، فيقعد عليه ، وحوله ثلاثة آلاف كرسي ، الأنبياء على كراسي الذهب ، والعلماء على كراسي الفضة . وحولهم الإنس ، وحولهم الجن . وحول الجن الشياطين . وتظلهم الطير بأجنحتها ، لا تقع عليهم الشمس ، وترفع ريح الصَّبا البساطَ .

وكان في معسكره خمسة وعشرون فرسخاً للإنس ، وخمسة وعشرون للجن ، وخمسة وعشرون للوحش ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون ألف بيت من قوارير على الخشب ، فيها ثلاثمائة حرة ، وسبع مائة سرية ؛ تحمل الريح ذلك .

وبينما هو تمشي به الريح بين السماء والأرض إذ سمع : إني قد زدت في مُلكك : أن لا يتكلم أحد من الخلائق إلا أخبرتك الريح بما قال . وهذه الريح عوض من الخيل التي عقرها غضبا لله ؛ إذ شغلته عن العصر . وكان غزوه من إيلياء يقيل بإصطخر ،

فروح منها ويصل إلى كابل فى الغروب . وسار يوماً من العراق . وقال فى بلخ . وسار متخللاً بلاد الترك ، ثم جاوزهم إلى الصين إلى غير ذلك .

وروى أن سليمان كان يصنع نيروزا فاجتمع إليه جميع الإنس والجن والطير والوحوش والهوام . كل يحمل على طاقته . وإذا نملة تحمل فى فيها نبقة ، لم تطق أن تحمل غيرها لم يعبأ بها سليمان ــ عليه السلام ــ فانكسرت وذلت ، وأنشأت تقول :

على العبد حق وهو لا شك فاعله	وإن عظم المولى وجلت فضائله
ألم ترنا نهدى إلى الله حقه	وإن كان عنه ذا غنى فهو قابله
فلو كان يهدى للجليل بقدره	لقصر ماء البحر عنه مناهله
ولكننا نهدى إلى من نحبه	ولو لم يكن فى وسعنا ما يشاكله

فلما فرغت من إنشادها نزل عليه جبريل ــ عليه السلام ــ فقال له : ربك يقرؤك السلام ويقول لك : اقبل هديتها ، فقد أبكت أهل السموات والأرض . فقبل منها ﷺ . على نبينا وعليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين .

(وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ) مبتدأ وخبر ، أو مَن مفعول ، أى وسخرنا من الشياطين من يغوصون له ، على الاستئناف ، أو معطوفة على الريح ، وهى نكرة موصوفة ، أى شياطين غائصة ، أو موصولة . والجمع مراعاة لمعنى مَن . والغوص : الدخول فى الماء ، كانوا يأتون له بالجواهر النفيسة وغيرها من قعر البحر .

(وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ) كالبناء والصنائع العجيبة ، كاتخاذ الزجاج والصابون

(وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ) عن أن يفسدوا ما عملوا ؛ لأنهم كانوا إذا فرغوا

من عمل قبل الليل أفسدوه ، إن لم يشغلوا بغيره ، وعن أن يخرجوا من أمره ، وعن أن يفسدوا شيئا ما ، ومقتضى جبلّتهم على الفساد ، وعن أن يتصروا فى الصنعة والخدمة .

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ) أى بأنى .

وقرأ إِنى بكسر الهمزة تضمينا للنداء معنى القول ، أو تقديرا للقول .

والضر، بالضم : ما فى النفس من مرض أو هزال أو نحوهما ، وبالفتح شائع فى كل ضرر . فالضر هنا : مرضه وهزاله وانتشار لحمه .

وقيل : المضموم كالمفتوح . وقد فسره بعض هنا بما ذكر ، وذهابِ أولاده ومالِه ، وتفرقِ الناس عنه غير زوجته . بقى كذلك ثمانى عشرة سنة .

وقال قتادة : ثلاث عشرة سنة .

وقال مقاتل : سبع سنين ، وسبعة أشهر ، وسبع ساعات

وقيل : ثلاث سنين . وهو قول وهب

وقال كعب : سبع سنين .

وقال الحسن : سبع سنين وأشهرا .

وكان ــ عليه السلام ــ من الروم ، من ولد عيص بن إسحاق . وسكن حمزة ياء مسّنى ، فتحذف للساكن بعدها .

(وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) وصفَ خالقَه بغاية الرحمة ، بعد ذكر نفسه بما يقتضى الرحمة ، مما مسّه . وذلك تعريض لطيف فى السؤال ، كمقول الفقير للسلطان : عندى كذا وكذا ولدا ، وقد بلغنى جودك العام .

تعرضت عجوز لسليمان بن عبد الملك وقالت : يا أمير المؤمنين مشت جُرذان بيتى على العصى ، أرادت أن الفئران لم تجد ما تأكل فى بيتها حتى كأنها رجال ضعيفة ، تجرى على العصى .

قال : ألطفتِ فى السؤال إلا جرم ، لأردّنهما تنب ونب الفهود ، وملأ بينها حبا .

وروى أن امرأته رحمة بنت أفرائيم بن يوسف ، أو ماخور بنت ميشا بنت يوسف . قالت له : لو دعوتَ الله .

فقال : كم كانت مدة الرخاء ؟

فقالت : ثمانين سنة .

فقال : أنا أستحيي من الله أن أدعوه ، وما بلغتْ مدةُ بلائى مدةَ رخائى .

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ) نداءه .

(فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ) أزلناه . قال أسامة بن زيد: إن رسول الله ﷺ قال : إن لله تعالى ملَكاً موكلا بمن يقول : يا أرحم الراحمين ، فمن قالها ثلاثا قال له الملك : إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فاسأل .

ومر ﷺ برجل يقول : يا أرحم الراحمين .

فقال له ﷺ : سل فقد نظر الله إليك ، أى رحمك .

(وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ) أولاده الذكور ، وهم سبعة . وقيل : ثلاثة ، وأولاده الإناث ، وهم سبعة ، أو ثلاثة . القولان : أحياهم بعد موتهم .

(وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ) من زوجته . رد شبابها ، وزيد فيه . وذلك قول ابن مسعود وابن عباس والجمهور .

وفى رواية عن ابن عباس : رد الله عز وجل على المرأة شبابها ، فولدت له ستة وعشرين ولدا ذكرا . فإما أن يكونوا قبل ذلك ذكورا ، كلهم ، على نصف هذا العدد ، أو يكونوا ذكورا وإناثا ، أو أقل من النصف . فالمثلية فى الوجهين الأخيرين : فى العدد والجلَد ونحوها .

وعن عكرمة : قال الله له : إن أولادك فى الآخرة ، فإن شئت رددناهم إلى الدنيا ، وإن شئت كانوا لك فى الآخرة ، وآتيناك مثلهم فى الدنيا .

فقال : يكونون لى فى الآخرة ، ويكون لى مثلهم فى الدنيا . (رَحْمَةً) مفعول لأجله . (مِنْ عِنْدِنَا) نعت رحمة .

قال الثعلبي فى عرائس القرآن : كان أيوب رجلا من الروم طويلا ، عظيم الرأس ، حسن الشعر ، حسن العينين ، قصير العنق ، غليظ الساقين والفخذين ، مكتوبا على جبهته : المبتلى الصابر .

وهو أيوب بن أموص بن زارح بن عوفان بن روم بن عيص بن إسحاق ابن إبراهيم .

وكانت أمه من ولد لوط بن هاران وكان الله قد اصطفاه ونبأه .

وكان له الثلث من أرض الشام كلها : سهلها وجبلها وكل ما فيها .

وكان له من أصناف المال كله : من الإبل والبقر والغنم والحمير وغير ذلك ما لا يكون لغيره .

وكان له خمسمائة فدان ، يتبعها خمسمائة عبد ، لكل عبد مال وامرأة وولد . ويحمل آلات كل فدان أتان ، ولكل أتان ولد أو ولدان إلى خمسة وأعطاه الله أهلا وولداً رجالا ونساء .

وكان تقيًّا رحيما بالمساكين ، يكفل الأرامل والأيتام ، ويكرم الضيف ، ويبلغ ابن السبيل ، شاكراً لأنعم الله ، ممتنعاً عن عدو الله إبليس أن ينال منه ما يدل من أهل الغنى ، من الغرة والغفلة عن الله .

وكان معه ثلاثة نفر ، قد آمنوا به وصدقوه ، وعرفوا فضله : رجل من اليمن ، اسمه اليفزور . واثنان من بلدة تلمك وظفر ، وكانوا كهولا .

قال وهب : إن لجبريل مقاماً بين يدي الله ليس لغيره وهو الذي يتلقى الكلام ، فإذا ذكر الله عبداً بخير تلقاه ثم ميكائيل ، وحوله الملائكة المقربون والحافون من حول العرش، فإذا شاع ذلك في الملائكة ، صارت الصلاة عليه منهم ثم تهبط الصلاة إلى ملائكة الأرض .

وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السموات حتى رفع الله عيسى ـ عليه السلام ـ فحجب من أربع ، فكان يصعد في ثلاث فلما بعث الله نبينا محمداً ﷺ حجب من الثلاثة أيضاً .

وهو وجنوده محجوبون من جميع السموات إلا من استرق السمع . فلما سمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب والثناء عليه ، أدركه البغي والحسد ، وصعد سريعاً حتى وقف موقفاً كان يقفه . فقال: يا إلهي نظرت إلى عبدك أيوب ، فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك ، وعافيته فحمدك ، لم تبله بشدة ولون ، ضربته ببلاء ليكفرن بك وينساك .

فقال له : انطلق إليه ، فقد سلطتك على ماله .

فانطلق وجمع العفاريت فقال : ما عندكم من القوة ؛ فإني قد سلطت على مال أيوب ، وزوال المال هو المصيبة والفتنة التي لا يصبر عليها الرجال ؟

قال عفريت : أعطيت من القوة ما إذا شئت تحولت إعصاراً من نار ، وأحرقت كل شيء آتي عليه .

قال إبليس : فائت الإبل ورعاتها .

فانطلق إلى ذلك ، ووجدها وضعت رءوسها في مراعيها ، ولم يشعر الناس حتى ثارت من الأرض إعصاراً من نار . فنفخ فيها ريح السموم فأحرقها ورعاتها .

ولما فرغ إبليس على قعود منها ، وانطلق إلى أيوب فوجده يصلى . فقال : يا أيوب .

قال : لبيك .

قال : هل تدرى ما الذى صنع ربك الذى اخترتَه وعبدتَه بإبلك ورعاتها ؟

قال أيوب : إنها مالُه أعارنيه ، وهو أولى به .

فقال إبليس : أرسلَ إليها ناراً من السماء فأحرقت .

فمن الناس من يقول : ما كان أيوب يعبد شيئاً وما كان إلا فى غرور .

ومَن يقول : لو كان إلهُ أيوب يقدر على أن يمنع شيئاً لمنع عن وليّه .

ومَن يقول : أفعلَ به ربه ذلك ليشمت به عدوه ، ويفجع به صديقه ؟ !

فقال أيوب : الحمد لله حين أعطانى ، وحين نزع منى . عرياناً خرجتُ من بطن أمى ، وأعود إلى القبر بلا مال، وعرياناً أحشر إلى الله . ليس لك أن تفرح حين أعارك ، ولا أن تجزع حين رد العاريّة . ولو علم فيك خيراً لنقلك مع تلك الأرواح ، كذا قال .

والخطاب للرجل الذى تمثل به إبليس . وهو مشكل ، فإنه إنما يقول : لو علم فيك خيراً لنقلك مع تلك الأرواح ، لو كان مؤمناً ، ولعل الخطاب لنفسه فرجع إبليس ـ أبعده الله ـ خائباً ذليلا . فقال لأصحابه : ما عندكم ؟

فقال عفريت : عندى ما إذا شئت صحتُ بصوت لا يسمعه ذو روح إلا مات .

فقال له : إيتِ الغنم ورعاتَها .

فانطلق وتوسطها وصاح ، وماتت ورعاتها، ثم خرج إبليس متمثلا بقهرمان الرعاة إلى أيوب ، وهو قائم يصلى فقال له مثل قوله الأول ، ورد عليه أيوب كرده الأول .

فرجع إلى أصحابه . فقال لهم : ما عندكم فإنى لم أكلم قلب أيوب ؟

فقال عفريت : عندى ما إذا شئت تحولت ريحاً عاصفاً تنسف كل ما مرت عليه .

فقال له : إيتِ الفدادين ، فأتاها ريحاً نسفت كل ما فيها من بَذر وتراب . فخرج إبليس - أبعده الله - متمثلا بقهرمان الحرث ، فجاء أيوبَ ، وهو يصلى ، فقال له كما مر ، وأجابه بما مر ، وجعل يصيب أمواله مالا مالا ، كلما أتاه هلاك مال حَمِد الله ، وأثنى عليه ، ولم يبق له مال . فلما رأى إبليس - لعنه الله - قد أفنى ماله ، ولم يقل شيئاً شق ذلك عليه ، وصعد سريعاً ، حتى وقف الموقف الذى يقفه فقال : اللهم إن أيوب يرى أنه إذا متعته بنفسه وولده فأنت معطيه المال ، فهل أنت مسلطى على ولده ؟ فإنهم الفتنة المضلة والمصيبة التى لا تقوم لها قلوب .

فقال الله سبحانه : قد سلطتك على ولده ، فجاءهم فى قصورهم فزلزلها بهم ، ووقعت عليهم .

فجاء إلى أيوب متمثلا بالمعلم الذى يعلمهم الحكمة ، مخدوش الوجه ، سائل الدموع فقال: لو رأيت بنيك كيف عذبوا وكيف نُـكسوا على رءوسهم تسيل دماؤهم وأدمغتهم من أنوفهم وأفواههم ، ولو رأيت كيف شقت بطونهم وتناثرت أمعاؤهم ، لتقطَّع قلبك . فلم يزل يقول هذا ويردده حتى رق قلب أيوب ، فبكى .

ووضع . قيل : قبضة من التراب على رأسه ، فاغتنم إبليس، فصعد سريعاً بجزَع أيوب ، ثم تفكر أيوب وتاب . فسبقت ملائكته بتوبته إبليس .

فوقف خاسئاً فقال : يا إلهى إنما هَوَّن على أيوب مالَه وولدَه ، أنه يرى أنك إذا متعته بنفسه أحدثتَ له المال والولد ، فهل أنت مسلطى على بدنه ؟

فقال : قد سلطتك عليه إلا لسانه وقلبه ، فأسرع إليه ، فوجده ساجدا ، فجاءه من تحت الأرض ، فنفخ فى منخره نفخة ، فخرج من قرنه إلى قدميه ثآليل مثل ليات الغنم ، ووقعت به حكة لا يملك عنها ، فحك بأظفاره حتى سقطت كلها ، ثم حك بالسوح الخشنة ، فلم يزل يحكها حتى تقطع لحمه وتغير وأنتن .

فأخرجه أهل القرية ، وجعلوه على كناسة لهم ، وجعلوا له عريشا ، ورفضه خلق الله كلهم غير امرأته رحمة بنت أفراثيم بن يوسف بن يعقوب وكانت تختلف بما يصلحه ويكرمه .

فلما رأى أصحابه الثلاثة ما ابتلاه الله به اتهموه من غير أن يتركوا دينه فلما طال عليه البلاء انطلقوا إليه وهو فى بلائه فبكتوه ولاموه وقالوا له : تب إلى الله من الذنب الذى عوقبت به . وحضر معهم فتى حديث السن ، وقد كان آمن به فقال : إنكم تكلمتم أيها الكهول ، ولم تدروا حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ومن الرجل الذى اتهمتم ؟

ألم تعلموا أن أيوب نبى الله وحبيبه وخيرته وصفوته من أهل الأرض ؟ ولم تعلموا أن الله سخط شيئا من أمره ، منذ آتاه الله النبوة . فإن كان البلاء هو الذى أزرى بكم عنده ، ووضعه فى أنفسكم . وقد علمتم أن الله تعالى يبتلى المؤمنين والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وليس بلاؤه لأوليائه على سخط عليهم ، ولا هوانهم عليه ، ولكنها كرامة ، وخير لهم . ولو كان أيوب على غير هذه المنزلة إلا أنكم صحبتموه ، فليس للحليم أن يعزل عن أخيه عند المصيبة ، ولا أن يعيب ما لم يعلم ، بل يرحمه ويبكى معه ويستغفر . فالله الله أيها الكهول ، قد كان لكم فى عظمة الله ما يقطع ألسنتكم ، ويسكن قلوبكم . ألم تعلموا أن لله عبادا سكتتهم خشيته من غير عى ولا بكم ، وأنهم لهم الفصحاء النبلاء ،

العالمون الله وآياته ، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله ، انقطعت ألسنتهم ، واقشعرت جلودهم ، وانكسرت قلوبهم ، وطاشت عقولهم إعظاما لله ، وإعزازا وإجلالا ، يستبقون إلى الله بالأعمال الزاكية ، يعدون أنفسهم مع الخاطئين المفرطين، لايستكثرون لله الكثير، ولا يرضون له بالقليل، ولا يُدلّون عليه بالأعمال ، فهم ورعون خاشعون .

فقال أيوب : إن الله يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير . فمتى نبتت في القلوب أظهرها الله على اللسان . وليست الحكمة من قِبَل السن والتجربة وإذا جعل الله العبد حكيما في الصبا ، لم تسقط منزلته عند الحكماء ، وهم يرون من الله تعالى عليه نور الكرامة .

ثم أقبل أيوب على الثلاثة فقال : أتيتموني غضابا قبل أن تُستغضبوا ، ورهبتم قبل أن تُسترهبوا ، وبكيتم قبل أن تُضربوا . كيف بكم لو قلت لكم : تصدقوا عني بأموالكم ، لعل الله يخلصني ، أو قربوا عني قربانا لعل الله يتقبله ويرضى عني ، وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم ، وظننتم أنكم عوفيتم بإحسانكم ، ولكنّ عيوب سترها الله بالعافية ، وقد كنت موقراً مسموع الكلام ، وليس لي اليوم رأي ، ولا كلام معكم . أنتم اليوم أشد من مصيبتي .

ثم أعرض عنهم . فقال : يا رب لأي شيء خلقتني . ليتني إذ كرهتني لم تخلقني . يا ليتني كنت حيضة ألقتني أمي ، ويا ليتني قد عرفت الذنب الذي أذنبت ، فصرفت عني وجهك . لو أمتّني وألحقتني بالموتى كان أجمل لي .

إلهي ألم أكن للغريب والمسكين قرارا ، ولليتيم وليا ، وللأرامل قيّما ؟

إلهي أنا عبد ذليل ، إن أحسنت فالمنة لك ، وإن أسأت فالعقوبة بيدك ، جعلتني للبلاء غرَضا ، وللفتنة نُصُبا ، وقد وقع عليّ بلاء لو سلطته على جبل ضعف من حمله .

إلهى تقطعت أصابعى ، فلا أرفع أكلة إلى فى إلا على الجهد .

إلهى تساقطت لهواتى ولحم رأسى فما بين أذنىّ من شىء، حتى إن إحداها لترى من الأخرى ، وإن دماغى ليسيل من فى .

إلهى تساقط شعر عينى وحدقتاى مائلتان على خدى ، وَوَرِمَ لسانى فىّ ، حتى ملأ فى ، فما أدخل فيه طعاماً إلا غصّنى ، وَوَرِمَت شفتاى حتى غطت العليا أنفى ، والسفلى ذقنى ، وتقطعت أمعائى فى بطنى ، وإنى لأُدْخِلُ الطعام فيخرج كما دخل ، ولا ينفعنى .

إلهى ذهبت قوة رِجْلَىَّ فلا تحملانى ، وذهب المال ، فصرت أسأل بكفى ، ويُطعِمُنى مَن كنت أمونه ، وأُعَيَّر بهلاك أولادى ، ولو بقى واحد أعاننى على بلائى .

إلهى مَلّنى أهلى ، وعقّنى أرحامى ، وتنكّرت إلىّ معارفى ، ورغب عنى صديقى ، وقطعنى أصحابى ، وجُحِدت حقوقى ، ونُسِيَت صنائعى . أصرخ فلا يُصرِخونى ، وأعتذر فلا يعذرونى ، وأدعو غلامى فلا يجيبنى ، وأتضرع لأمَتى فلا ترحمنى . كذا قيل ، ولعله تمثيل للإهانة ، وإلا فلا غلام ولا أمَة له إذ ذاك ، وإن قضاءك هو الذى أذانى ، وسلطانك هو الذى أسقمنى وأنحلَ جسمى ، فلو أطلق لسانى حتى أتكلم .

ثم قال : لو كان ينبغى للعبد أن يحاجج عن نفسه لرجوت أن تعافينى عند ذلك مما بى ، ولكنه ألقانى فهو يرانى ولا أراه ، ويسمعنى ولا أسمعه .

قال ذلك أيوب ، وأصحابه عنده ، فأظلته غمامة ، حتى ظنوا أنه عذاب ؛ فنادته الملائكة منها ، أو خلق الله فيها كلاما : يا أيوب إن الله قريب منك فى كل حين ، فأدل بعذرك ، وتكلم ببراءتك ، وخاصم عن نفسك ، واشدد عليك

إزارك ، وقم مقام جبار ، فإنه لا ينبغى أن يخاصمنى إلا جبار مثلى إلا مَن يجعل السّخال فى فم العقاء ، والفحام فى فم التنّين ، ويكيل مكيالا من الريح ، ويصر صرة من الشمس، ويرد أمس . لقد منت نفسك أمراً ما يبلغ بمثلك ، أم أردت أن تكابرنى بضعفك ، أو تخاصمنى بعيك أو تحاججنى بخطئك؟

أين أنت يوم خلقت الأرضين ؟ هل علمت عَلاَمَ وضعت أساسها ؟ وكم قدرها وبُعد زواياها ؟ أبطاعتك حمل الماء الأرض ؟ أم بحكمك كانت الأرض غطاء للماء .

أين أنت يوم رفعت السماء سقفاً ؟ وهل يختلف بأمرك ليلها ونهارها ؟

أين أنت يوم سخرت البحار ، وفلقت الأنهار ؟ أقدرتك حبست أمواج البحر على حدودها ؟ أم فتحت الأرحام ؟

أين أنت يوم خلقت البهموت ، وجعلت مكانه فى منقطع الثرى ؟

وأين أنت يوم خلقت الجبال ؟ وهل تدرى بأى مقدار وزنت ؟ وعَلامَ أرسيت ؟ وهل لك ذراع تحملها بها ؟ وهل تدرى من أين الماء ؟ ومم أنشئت السحاب ؟ أمِن خزانة الثلج ؟ أم من جبل البرَد ؟ وأين خزانة الليل بالنهار ؟ وخزانة النهار بالليل ؟ وأين خزانة الريح ؟

وبأى لغة تتكلم الأشجار ، ومَن جعل العقول فى أجواف الرجال ؟ وشق الأسماع والأبصار ؟ ومَن ذلت الملائكة لملكه ؟ وقسم الأرزاق بحكمته ؟

أين أنت يوم خلقت التنين رزقه فى البحر، ومسكنه فى السماء ، وعيناه توقدان نارا ، ومنخراه يفوران دخانا ، وفوه يثور منه نار ، جوفه يحترق ، ونفسه يلتهب وزبده جمر كالصخور ، وصرير أسنانه كأصوات الصواعق، ونظر عينيه كلمع البرق ،

والحديد عنده كاللين، والنحاس كالخيط يسير في الهواء كالعصفور، ويهلك كل ما مر عليه. هل أنت آخذه وواضع اللجام في شدقه؟ هل تحصي عمره؟ هل تدري ما ذرب من الأرض؟ وماذا يخرب بما بقي من عمره؟ أتطيق غضبه حين يغضب؟ أم تأمره فيطيعك؟

قال أيوب: إلهي قصرت عن هذا الأمر الذي عرض عليّ. ليت الأرض انشقت لي فذهبت فيها، ولم أتكلم بشيء يسخط ربي. اجتمع عليّ البلاء، وقد علمت أن ذلك كله صنعك، وأعظم منه. ولا تخفى عليك خافية، ولا يعجزك شيء. وقد علمت في بلائي هذا ما لم أكن أعلم، وخفت أن يكون أمراً أكثر مما كان. إنما كنت أسمع بسطوتك، والآن شاهدت.

تكلمتُ حين تكلمتُ ليعذرني، وسكتُّ حين سكتُّ لترحمني، كلمة زلت على لساني فلن أعود، وقد وضعت يدي على فيّ، وعضضت على لساني، وألصقت بالتراب خدي، ودسست فيه وجهي لصغاري، فاغفر لي ما قلت. فلن أعود لشيء تكرهه مني. واستجرتك من جهد البلاء فأجرني، واستعنت بك من عقابك فأعني، وتوكلت عليك فاكفني، واعتصمت بك فاعصمني.

فقال الله: يا أيوب نَفَذَ فيك حكمي، وسبقت رحمتي غضبي. قد غفرت لك ورحمتُك، ورددت عليك أهلك ومالك، ومثلهم معهم، لتكون لمن خلفك آية، وعبرة لأهل البلاء، وعزاءً للصابرين.

اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، فيه شفاء، وقرّب عن أصحابك قرباناً، واستغفر لهم؛ فإنهم قد عصوني فيك. فغسل وأقبلت امرأته تلتمسه في مضجعه، فلم تجده، فولهتْ وقالت: يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان هاهنا؟

فقال لها : وهل تعرفينه إذا رأيته ؟
قالت : نعم . ومالى لا أعرفه !

وتبسم . وقال لها : أنا هو . فعرفته لما تبسم ، فاعتنقته .

قال ابن عباس : فو الذى نفسى بيده ما فارقته من عناقه ، حتى مر بهما ما كان لهما من المال والولد .

وعن أنس عن رسول الله ﷺ : إن أيوب نبى الله لبث فى بلائه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوته يغدوان إليه ويروحان .
فقال أحدهما لصاحبه : والله لقد أذنب أيوب ذنبا ، ما أذنبه أحد من العالمين .

فقال له صاحبه : وما ذاك ؟

فقال : منذ ثمانى عشرة سنة ، لم يرحمه الله .

ولما راحا إلى أيوب ، ذكر الرجل ذلك له . فقال أيوب : ما أدرى ما تقول غير أنى كنت أمر بالرجلين يتنازعان فيذكران الله ، فأرجع إلى بيتى ، فأكفر عنهما كراهة أن يذكرا الله تعالى فى حق .

قال : وكان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ منزله . ولما كان ذات يوم أبطأ عنها . وذلك أنه أوحى الله تعالى إليه : اركض برجلك . فاستبطأته ملتفته لتنظر ماشأنه ، وأقبل عليها وقد أذهب الله عنه ما أصابه من البلاء ، وهو أحسن مما كان . ولما رأته قالت له : هـل رأيت نبى الله هذا المبتلى ؟

قال لها : إنى أنا هو .

وكان له أندران : أندر القمح ، وأندر الشعير ، فبعث الله سحابتين أفرغت إحداهما على أندر القمح الذهب حتى فاض ، والأخرى على أندر الشعير الفضة حتى فاض .

وروى أن الله بعث إليه ملكاً وقال : إن ربك يقرؤك السلام بصبرك ، فاخرج إلى أندرك فخرج إليه ، فأرسل الله إليه جرادا من الذهب ، فطارت واحدة ، فأتبعها وردها إلى أندره .

فقال له الملك : أما يكفيك ما في أندرك ؟

فقال له : هذه بركة من بركات ربي ، ولا أقنع من بركاته .

وعنه ﷺ : بينما أيوب يغتسل عريانا ، خر عليه جراد من ذهب ، فجعل يحثي في ثوبه . فناداه ربه : ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟

قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى لي من بركتك .

وعن وهب : لم تكن بأيوب أكلة . وإنما كان يخرج منه مثل ثدي المرأة ثم ينفقع .

قال الحسن : لم يبق له غير امرأته رحمة ، صبرت معه ، تتصدق وتأتيه بطعام وتحمد الله تعالى معه إذا حمده .

وكان أيوب على ما به لا يفتر عن ذكر الله ، والثناء عليه ، والصبر على ما ابتلاه . فصرخ اللعين صرخة ، جمع فيها جنوده من أقطار الأرض جزعاً من صبر أيوب .

فلما اجتمعوا حوله قالوا له : ما جزعك ؟

قال لهم : أعياني هـذا العبد الذي سألت ربي أن يسلطني على ماله وولده ، فلم أدع له مالا ولا ولدا ، فلم يزده ذلك إلا صبرا وثناء على الله تعالى ، ثم سلطت

على جسده ، فتركته كخرقة ملقاة على كناسة ، لم يقربه أحد إلا امرأته ، قد افتضحت من ربى ، واستعنت بكم لتعينونى عليه .

فقالوا له : أين مكرك ؟ أين علمك الذى أهلكت به من مضى ؟

قال : بطل ذلك فى أيوب . فأشيروا علىّ .

قالوا : نشير عليك بما أتيت به آدم .

فقال : من قِبَل امرأته ؟

قالوا : شأنك بأيوب مِن قِبَل امرأته ، فإنه لا يستطيع أن يعصيها ، وليس أحد يقربُه غيرها

قال : أصبتم .

فانطلق إبليس إلى امرأته ، فوجدها وهى تتصدق ، فتمثل لها فى صورة رجل . فقال لها : أين بعلك يا أَمَة الله ؟

قالت : هو ذاك يحك قروحه ، وتتردد الدواب فى جسده . فلما سمعها طمع أن تكون كلمة جزع ، فوسوس إليها وذكرها ما كانت فيه من النعيم والمال ، وذكّرها جمال أيوب وشبابه ، وما هو فيه من الضر ، وأن ذلك لا ينقطع أبداً .

قال الحسن : فصرخت . فلما صرخت علم أنها قد جزعت ، فأتاها بسخلة فقال لها : ليذبح هذه أيوب لغير الله ويبرأ . فجاءته وهى تصرخ وقالت : يا أيوب إلى متى يعذبك ربك ! ألا يرحمك ؟ أين المال ؟ أين الماشية ؟ أين الولد ؟ أين الصديق ؟ أين لونك الحسن ؟ اذبح هذه السخلة لغير الله وتستريح .

قال لها أيوب : أتاك عدو الله تعالى فنفخ فيك ؟ ! ويلك . رأيت ما تبكين عليه ، مما كنا فيه من المال والولد والصحة . مَن أنعم بها علينا ؟

قالت : الله عز وجل .

قال : وكم مضى به ؟

قالت : ثمانون سنة .

قال : فمنذ كم ابتلاني الله تعالى بهذا البلاء ؟

قالت : منذ سبع سنين .

قال : ويلك ما عدلت ، ولا أنصفت ربك . ألا صبرت في هذا البلاء الذي ابتلانا به ربنا ثمانين سنة كما كنا فيه من الرخاء ؟! والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة ، حيث أمرتني أن أذبح لغير الله . طعامك وشرابك الذي تأتيني به علىّ حرام . فاذهبي ولا تأتيني .

ولما رأى أنه لا طعام ولا شراب ، وقصرت امرأته ، خر ساجدا وقال : رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين .

فقيل له : ارفع رأسك ، فقد استجيب لك . اركض برجلك فركض فخرج ماء ، فاغتسل منه ، وذهب ما به . وشرب وذهب ما في باطنه .

وقيل : ركض برجله أيضاً ، فنبع فشرب . وجعل يلتفت ، ورأى جميع ما كان له من مال وولد ومتاعه . فقعد في مكان مشرف . ثم إن امرأته قالت : أرأيت إن طردني إلى من أكله ؟ أأدعه يموت جوعاً ، وتأكله السباع ؟! والله لأرجعن . فرجعت للكناسة ولم تجده ، فوجدت الأمور قد تغيرت ، وجعلت تبكي ، وأيوب يراها . فدعاها فقال لها : يا أمة الله ما تريدين ؟

فبكت وقالت : أردت ذلك المبتلى الذي كان منبوذاً على الكناسة ، ولا أدري أضاع أم ماذا فعل به ؟

قال لها أيوب : ما كان منك ؟

فبكت وقالت : بعلي وقال لها : أتعرفينه إذا رأيته ؟

قالت : وهل يخفى على أحد . ثم جعلت تنظر إليه وهى تهابه ، فقالت : أما إنه أشبه خلق الله بك إن كان صحيحا .

قال : فإنى أنا أيوب ، أمرتنى أن أذبح لإبليس ، وإنى أطعت الله ، وعصيت إبليس – لعنه الله – فدعوت الله ، فرد على ما ترين .

قال وهب : فلما غلب أيوبُ إبليسَ ، اعترض لامرأته فى موكب عظيم ليس كموكب الناس ، وفى هيئة وجمال ، ليس كجمال بنى آدم ، فقال لها : أنت صاحبة أيوب المبتلَى ؟

قالت : نعم .

قال لها : هل تعرفيننى ؟

قالت : لا .

قال لها : أنا إله الأرض ، وأنا الذى صنعت بصاحبك ما صنعت ، وذلك أنه عَبَدَ إله السماء وتركنى . ولو سجد لى سجدة رددتُ عليه ما كان لكما من مال وولد ، فإنه عندى . ثم أراها إياهم ببطن الوادى الذى لقيها فيه .

قال وهب : وقد سمعت أنه قال : لو كان صاحبك أكل طعاما لم يُسَمِّ عليه لعُوفِىَ .

وفى بعض الكتب أنه قال لرحمة : وإن شئتِ فاسجدى لى سجدة واحدة حتى أردّ لك الأولاد والمال ، وأعافى زوجك . فذكرت لأيوب ذلك . فقال : ذلك إبليس – عدو الله – أراد أن يفتنك عن دينك . وأقسم : لئن عافانى الله لأضربنَّك مائة جلدة .

وذُكر أنه قال له الله : اركض برجلك . فركض فنبع ماء اغتسل به ، وللما

اغتسل تطاير من الماء الذى كان يغتسل معه جراد من ذهب ، فجعل يضمه إلى صدره فقال له : ألم أغنك عن ذلك ؟

قال : بلى ، ولكن من يشبع من بركتك ! ومشى أربعين خطوة ، وأمره أن يركض ، فركض بالأخرى ، فنبع ماء ، وشرب منه .

وظاهر الآية التى فى ص أن الركض واحد ، وكانت امرأته تكسب وتقوته ولما طال الأمر شغلها الناس ، ولم يستعملها أحد . فخرّت قوما من رأسها باعته ، وأتته بثمنه طعاما . فقال لها : أين قرنك فأخبرته .

فقال : رب إنى مسّنِيَ الضر .

وقيل : قال ذلك لعرْض إبليس لزوجته : أن تسجد له ، ولأمره : أن تذبح لغير الله ، ولأمره : أن يسجد له .

وقيل : لشماتة أصدقائه به .

وقيل : لطرده إياها .

وقيل : لقصد الدود قلبه ولسانه فخشى أن يبقى منقطعا عن الذكر والفكر .

وكانت الدودة . قيل : كالذراع .

وقيل : قال ذلك لما وقعت دودة فردّها لموضعها ، وقال لها : قد جعلنى الله طعامك ، فعضته عضة زاد ألمها على ما قاسى من عقر الديدان .

وعن عبد الله بن عمر : كان له أخوان ، فقاما من بعيد لنتنه . فقال أحدهما : لو علم الله فيه خيراً ما ابتلاه . فسمع ذلك ، وما كان شىء أشد عليه من كلامه . فقال : ربى إنى مسنى الضر ، وأنت أرحم الراحمين . اللهم إن كنتَ تعلم أنى لم أبت قط شبعانَ وأنا أعلم بمن كان جائعاً فصدّقنى . فصُدّق من السماء ، وهما يسمعان . فخر ساجدا لله . فكلام الرجل هو الضر الذى مسه .

كل المصائب قد تمر على الفتى ... فتهون غير شماتة الحساد

إن المصائب تنقضي أيامها ... وشماتة الأعداء بالمرصاد

قال الجنيد : عَرَّفه فاقة السؤال ليَمُنَّ عليه بكثرة النوال .

ومات . فيل : وهو ابن ثلاث وتسعين سنة . وسماه الله صابراً مع قوله : رب إنى مسّنى الضر ؛ لأن قوله هذا ليس بشكوى ، بل دعاء ـ كما مر ـ بدليل « فاستجبنا له » .

وأيضاً إظهار الشكوى ولو للناس مع الرضى بالقضاء ليس جزعاً ، وكذا قال لجبريل فى مرض موته : أجدنى مغموماً . أجدنى مكروباً .

وقالت عائشة : وارأساه .

فقال : بل أنا وارأساه .

وقيل فى رحمة : إنها بنت يوسف الصديق .

وقيل فى أيوب : إنه من بنى إسرائيل لا من الروم .

وروى أنه إذا وقعت دودة ردها ، وقال : كلى رزقك ، وأنه دعا حتى مر عليه أعداء له فشمتوا به ، وأنه لما أمطرت عليه سحابة من ذهب ، جعل يجمع ما طار أو بَعُدَ فى ثوبه .

وروى أن الله أذن لإبليس فى هلاك قرابة أيوب ، كما أذن فى أولاده .

وروى أن إبليس ـ لعنه الله ـ قال لأيوب عيانا : اذبح سَخْلة .

قال : لا ، ولا كفاً من تراب .

(وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ) اصبروا كما صبر ، وتثابوا كما أثيب فى الدنيا والآخرة .

ذكر الشيخ هود عن ابن مسعود : أنه لا يبلغ المرء الإشراك بالله حتى يصلى لغير الله ، أو يدعو غير الله ، أو يذبح لغير الله .

وذكر عن الحسن أن الله جل وعلا يحتج على أهل الجمال ـ إذا قالوا : آتيتنا جمالا ، واشغلنا عن العبادة ـ بيوسف . ويقول : جمالكم خير أم جماله ؟

فيقولون : جماله .

فيقول : لم يشغله . وعلى أهل البلاء بأيوب . وعلى أهل الملك بسليمان . ويسألهم : من أشد ؟ فيقرون . ويقول : لم يشغله ذلك .

وذُكر عن الحسن أنه لم يبلغ شيء في أيوب مثل قولهم : لو كان نبيا ما ابتلى بذلك . ودعا عند سماعه قولهم ذلك : اللهم إن علمت أنى لم أعمل حسنة فى العلانية إلا عملت مثلها فى السر ، فاكشف ما بى من الضر .

(وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ) قيل : هو إلياس . وقيل : زكريا .

وقيل : يوشع . سمى بذلك لأنه ذو الحظ من الله .

وروى أنه كان له ضِعف عمل الأنبياء فى زمانه ، وضعف ثوابهم .

وقيل : خمسة من الأنبياء ذوو اسمين : إسرائيل ، وهو يعقوب . وإلياس أو زكريا ، أو هو ذو الكفل . وعيسى ، وهو المسيح . ويونس ، وهو ذو النون . ومحمد ، وهو أحمد ﷺ وعليهم أجمعين .

وقيل : ذو الكفل غير نبى ، ولكنْ رجل صالح . سمى بذلك لأنه تكفل بمؤنة عابد تفرغ للعبادة .

وقيل : التجأ إليه رجال مؤمنون فكفلهم .

وقيل غير هذا ، مما تراه قريبا ـ إن شاء الله .

قال الثعلبي في عرائس القرآن : إنه بشر بن أيوب المبتلي وسماه : ذو الكفل ، واسمه بالدعاء إلى الله ، وأوصاه عند موته . وبعثه الله نبيا ، وأقام بالشام عمره ، وهو خمسة وسبعون عاماً ، وأنه أوصى بعده ابنه عبدان .

قال : روى الأعمش بن المنهال بن عبد الله بن الحارث . أن نبياً من الأنبياء قال : من يتكفل لي أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب ؟

فقام شاب فقال : أنا .

فقال : اجلس . ثم أعاد ، فقال مثل قوله الأول .

فأعاد فقال كذلك .

فقال : تقوم الليل ، وتصوم النهار ولا تفطر ، وتقضي بين الناس ولا تغضب ؟

فقال : نعم . فمات ذلك النبي . فجلس الشاب مكانه ، فرقى بذلك ، فجاءه الشيطان ـ أبعده الله ـ في صورة إنسان ليغضبه ، وهو صائم يريد أن يقيل ، فضرب الباب ضربا شديدا .

فقال : مَن هذا ؟

فقال له : رجل له حاجة .

فأرسل إليه رجلا .

فقال له : لا أرضى بهذا الرجل .

فأرسل معه آخر .

فقال : لا أرضى بهذا فخرج إليه ، وأخذ بيده إلى السوق ، فتركه ولم يغضب .

قال : وقال بعضهم : ذو الكفل : بشر بن أيوب ، بعثه الله بعد أبيه إلى أرض الروم ، فآمنوا به وصدقوه واتبعوه ، ثم أمرهم الله بالجهاد ، فضعفوا وقالوا :

إنا قوم نحب الحياة ، ونكره الممات ، ومع ذلك نكره أن نعصى الله ورسوله . ولو سألت الله أن يطيل أعمارنا ، ولا يميتنا إلا إذا شئنا ، لنعبدنه ونجاهدن أعداءه .

فقال لهم : كلفتمونى شططا .

ثم قام وصلى ودعا وقال : إلهى أمرتنى بتبليغ الرسالة فبلغتها ، وأمرتنى بجهاد أعدائك ، وأنت أعلم أنى لا أملك إلا نفسى ، وأن قومى سألونى فى ذلك ما أنت أعلم به ، فلا تؤاخذنى بجريرة غيرى ، وأنا أعوذ برضاك من سخطك ، وبعفوك من عقوبتك .

فأوحى الله تعالى إليه : أن قد سمعت مقالة قومك ، وإنى قد أعطيتهم ما سألونى ، فلا يموتون إلا إذا شاءوا فكن لهم منى كفيلا بذلك . فتكفل لهم بذلك ، فسمى ذا الكفل . وكثروا حتى ضاقت بهم الأرض ومعيشتهم . فسألوه أن يرد الله آجالهم ، فكانوا يموتون لآجال مثل آجالهم السابقة قبل . ولذلك كثرت الروم ما لم يكثر غيرهم .

وسموا روما . قيل : لأن جدهم روم بن عيسى بن إسحاق .

وقيل : إن ذلك النبى — وكان من بنى إسرائيل — أوحى الله : إنى أريد قبض روحك ، فاعرض ملكك على بنى إسرائيل ، فمن تكفل منهم بذلك ، فادفع إليه ملكك .

وقيل : لما كبر اليسع قال : إنى أستخلف رجلا على الناس فى حياتى ، أنظر كيف يعمل . فجمع الناس وقال : من يتكفل بثلاث أستخلفه : يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب .

فقام رجل تزدريه العين فقال : أنا ، فرده .

فقال ذلك فى اليوم الثانى .

فقال : أنا .

فاستخلفه . فأتاه إبليس فى صورة شيخ ضعيف ، حين أخذ مضجعه للقائلة . وكان لاينام من الليل والنهار إلا تلك النومة ، فدق الباب فقال : مَن هذا ؟

فقال : شيخ كبير مظلوم .

فقام ففتح الباب .

فقال : بينى وبين قوم خصومة ، ظلمونى وفعلوا . وأطال فى الكلام حتى ذهبت القائلة .

فقال : إذا جلستُ فأتنِ حتى آخذ حقك .

ولما جلس انتظره ، ولم يجئ ، فلما جلس من الغد وفرغ ، وأخذ مضجع القائلة . فدق الباب .

فقال : مَن هذا ؟

فقال : الشيخ المظلوم . ففتح له . فقال : ألم أقل : إذا جلست فأتنى ؟

قال : إنهم أخبث قوم . إذا جلست قالوا : نعطيك حقك . وقاموا يأتوه .

وقال : إذا جلست فأتنِ ولم يأت .

ولما كان اليوم الثالث ، وفرغ ولم يأت ، أخذ مضجع القائلة قال لبعض أهله : لا تدَع أحدا يضرب الباب حتى أنام ، قد شق علىّ النعاس . فجاء إبليس ، فلم يأذن له الرجل . ودخل من كوة فاستيقظ فقال : يا فلان ألم آمرك ؟

فقال : أما من قِبَلى فلم تؤت . فانظر من أين أتيت ؟

فقام إلى الباب ، فإذا هو مغلق .

فقال الشيخ : أتنام والخصوم ببابك ؟ فنظر إليه فعرفه فقال : أعدوّ الله ؟

قال : نعم . أعييتنى ففعلت مافعلت لأغضبك ، فعصمك الله .

(كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ) على الطاعة ، والبلاء ، وعن المعصية .

فإسماعيل صبر على الذبح وأما إدريس فقد مر الكلام عليه . وأما ذو الكفل فمر آنفا .

(وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا) النبوة والحكمة والجنة .

(إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ) الرحمة ، أو من الصالحين في أنفسهم والصالحون : الأنبياء . وال الكمال .

(وَذَا النُّونِ) صاحب الحوت ؛ أضيف للحوت لأن الحوت بلعه ، وهو يونس بن متّى .

قال السهيلي : هذا مقام ثناء على يونس ، ولذا عبر عنه بذو ، بخلاف : (ولا تكن كصاحب الحوت) ، والإضافة بذو أشرف من الإضافة بصاحب ؛ لأن ذو تضاف إلى التابع وصاحب يضاف إلى المتبوع . انتهى . ولعل هذا غير لازم ، وهو نبي من أهل نينوى .

(إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا) لقومه أي غضبان عليهم غضبا شديدا ، لما قاسى منهم من التكذيب وغيره ، ولم يؤذن له في ذلك . ... بقومه ، وذهب عنهم غضبا ، قبل أن يؤمر .

وقيل : وعدهم بالعذاب غدا ، ولم يأتهم العذاب هذا لتوبتهم ، ولم يعرف بذلك ، وظن أنه يقال فيه : كذب

وغضب من حيث بلغه تكذيبهم إلى هذا المقام ولم يقل : غضبان ، بل مغاضبا ؛ لأنه مفاعل . والتفاعل يستعمل كثيراً للمغالبة ، فاستعمل منه مفاعل هنا ، قصدا للمبالغة ، أو الألف للتعدية ؛ لأنه أغضبهم بالمهاجرة ، لخوفهم لحوق العذاب ، كما يقال : ماشيتُه وسايرتُه .

وقرأ أبو شرف مغضبا بفتح الضاد . ونقل عنه أبو حيان مغاضَبا بفتحها .

(فظن أنْ لنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) لن نقضى عليه ما قضينا، من حبسه فى بطن الحوت . ويدل لهذا أنه قرأ الزهرى والحسن نُقَدِّر بضم النون وفتح القاف وتشديد الدال .

وقرئ نَقْدِر بفتح وسكون القاف وكسر الدال .

وقرأ يعقوب بالياء والبناء للفاعل .

وقرئ بالياء والبناء للمفعول مع التشديد . وفاعل (قدر) على الياء ضمير الله أو ناشئه : عليه .

وقيل فى المعنى : ذلك هو التضييق ، أو التقدير الله عليهم عقوبة ، أو المراد أنه ظن أن لن تعمل فيه قدرتنا .

وقيل : ذلك من المجاز المركب الاستعارى ، مُثِّلَتْ حاله بحال من يظن أنه لن يقدر الله عليه ، فى مراغمته قومه ، من غير انتظار لأمرنا ، أو وسوس له الشيطان : أنه لا يقدر عليك ولم تنهه ، ولا كاد يقبله ، أو يقبل وسوسته ، ولكن سميت ظناً ، للمبالغة والتغليظ عليه ، حيث ذهب ولم يؤمر ، بل أمر قبل ذلك بالصبر على دعائهم ، وظن أن ذلك يسوغ له ، إذ لم يفعل إلا غضباً لله تعالى وبغضاً للكفر وأهله . وتلك المعانى كلها ، يقبلها التخفيف والتشديد .

وإذا رأيت التشديد مستغنى عنه فاجعله لموافقة التخفيف ، أو للتوكيد .

وخص بعضهم التفسير ، بأنه ظن أن لن تعمل فيه قدرتنا والتفسير بالمجاز المركب والتفسير بالوسوسة بقراءة التخفيف . وممن فسر الآية بالقَدَر لا بالقُدرة ابن عباس . رُوى أنه دخل على معاوية . فقال معاوية : لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة فغرقتُ ، فلم أجد لنفسى خلاصا إلا بك .

قال : وما ذاك يا معاوية؟

فقرأ الآية فقال : أو يظن نبي الله أن لا يقدر عليه الله ؟

قال : هذا من القَدْر لا من القُدرة .

وزعم بعضهم أنه غضب لأن العذاب لم ينزل عليهم ، وهو باطل ؛ لأن فيه طرفا من معاداة الله . وإنما في سآمة وغضبا لدين الله كما مر ، أو خشية أن ينسب إليه الكذب ، أو يمسه العذاب ، ولم يؤمن . فذلك ذنبه .

وعن ابن عباس : أن يونس وقومه يسكنون فلسطين ، فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصف ، وبقي سبطان ونصف ، فأوحى الله إلى أشعياء النبي : أن سر إلى حزقيا الملك ، وقل له يوجه نبيا قويا ، فإني ألقي في قلوب أولئك حتى يرسلوا معه بني إسرائيل ، فقيل .

فقال الملك : فمن ترى ؟ وكان في مملكته خمسة أنبياء .

قال : يونس ؛ لأنه قوي . فدعاه الملك ، وأمره أن يخرج .

فقال : هل أمرك الله بإخراجي ؟ وهل سماني لك ؟

قال : فها هنا أنبياء أقوياء غيري .

فألحوا عليه ، فخرج مغاضبا الملك والأنبياء والقوم ، وأتى بحر الروم فركبه .

وقيل : خرج من قومه لما لم يؤمنوا ، وكان عندهم عادة أن يقتلوا الكاذب .

وقيل : اعتقادا هذا بعد إيمانهم .

وعن ابن عباس : أتى جبريل يونس فقال : انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم .

فقال : ألتمس دابة .

قال : الأمر أعجل من ذلك . فغضب وانطلق إلى السفينة .

قال وهب: كان في خلق يونس ضيق، فلما حمل أثقال النبوة تفسخ تحتها، تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل، فقذفها من يده، وخرج هارباً منها. ولذلك أخرجه الله من أولي العزم؛ إذ قال لنبيه: «فاصبر كما صبر أولو العزم» وقال: «ولا تكن كصاحب الحوت».

وزعم بعض أن الشيطان استزله حتى ظن أن الله لا يقدر عليه، وهو قول منكر.

ولبث في بطن الحوت عشرين يوماً بلياليها.

وقيل: سبعة أيام.

وقيل: ثلاثة.

وقيل: أربع ساعات.

وقيل: إن الحوت ذهب حتى بلغ تخوم الأرض السابعة. وتاب إلى الله، وراجع نفسه في بطن الحوت.

وروى أنه طال عليه تكذيبهم، فأوحى الله إليه: أن العذاب يأتيهم يوم كذا وكذا. فلما دنا الوقت تنحى عنهم. ولما كان قبل الوقت بيوم، جعل يطوف بالمدينة يبكي ويقول: يأتيكم العذاب غداً، فسمعه رجل فانطلق إلى الملك، فأخبره أنه سمع يونس يبكي، ويقول كذا.

فدعا الملك قومه، وأخبرهم. فقال: إن كان هـذا حقاً فسيأتيكم غداً. فاجتمعوا حتى ننظر. وخرجوا غداً، فنظروا فإذا بظلمة وريح شديدة أقبلتا، فعرفوا الحق، ولبسوا الشعر، وجعلوا التراب والرماد على رءوسهم تواضعاً لله وتضرعاً، وبكوا وآمنوا. فصرف الله عنهم العذاب. فاشترط بعضهم على بعض: ألا يكذب أحد كذبة إلا قطعوا لسانه.

فجاء يونس من الغد فنظر فإذا المدينة على حالها والناس داخلون وخارجون فقال : كيف أقدم بوجه كاذب .

فأتى إلى ساحل البحر ، فرت سفينة ، فأشار إليهم ، فحملوه وهم لا يعرفونه فنحى فى ناحية منها فرقد ، فما مضـــوا إلا قليلا حتى جاءتهم ريح كادت السفينة تغرق .

فاجتمعوا فقالوا : أيقظوا الرجل ليدعوا معنا فأيقظوه . فدعا معهم ، فرفع الله تلك الريح ، وعاد لمكانه فعادت الريح ، فكادت السفينة تهلك ، فأيقظوه فدعوا فزالت الريح فتفكر . فقال : هذا من خطيئتى .

فقال لهم : شدونى وثاقا ، وألقونى فى البحر فقالوا : لا نفعل ، وحالك ما نرى ، ولكن نقترع . فعملوا ، فجاءت له ، وقالوا : لا حتى نعيد ، فأعادوا ، فجاءت له .

فانطلق إلى صدر السفينة ليلقى نفسه ، فإذا بحوت فاتح فاه . فانطلق لجانب آخر ، فإذا فيه الحوت ، فألقى نفسه . فأوحى الله : إنى لم أجعله لك رزقا ، بل جعلت بطنك له سجناً ، فلا تكسرن له عظماً ، ولا تقطعن له شعراً ، فبقى فى بطنه .

قال الشيخ هود : أربعين ليلة .

(فَنَادَىٰ فِى الظُّلُمَاتِ أَنْ) مخففة من الثقيلة ، اى بأن أو تفسيرية (لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فى ذهابى من غير أن تأمرنى ، أو فى غضبى لنفسى أن اسمّى كاذبا .

والمراد بالظلمات : الظلمات المتكاثفة فى بطن الحوت .

وقيل : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، وظلمة البحر .

وقيل : بلع حوته حوتا أكبر منه ، فهو في ظلمتي بطن الحوتين ، وظلمة البحر .

وعنه ﷺ : « دعوة أخي ذي النون : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » ما دعا بها مؤمن ، أو قال : مسلم ، إلا استجيب له » .

وعنه ﷺ : أيما مسلم دعا بها في مرضه أربعين مرة ، فمات في مرضه أعطى أجر شهيد ، وإن برئ ، برئ وقد غفر له جميع ذنوبه .

ومصداق عموم بركة هذا الدعاء لكل مسلم دعا به : « وكذلك ننجي المؤمنين » كما روى عنه ﷺ .

وروى أنه هوى به الحوت إلى مسكنه أسفل البحر ، وسمع يونس فيه حسا فقال في نفسه : ما هذا ؟

فأوحى الله إليه : هذا تسبيح دواب البحر ، فسبّح هو بالدعاء المذكور .

فسمع الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة .

وفي رواية : صوتا معروفا في مكان مجهول .

فقال : ذلك عبدي يونس ، عصاني فحبسته في بطن الحوت .

فقالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد منه كل يوم وليلة عمل صالح ؟

قال : نعم . فشفعوا له عند ذلك .

وروى أنه سجد في بطن الحوت ، حين سمع تسبيح الحوت .

ورأى بعضهم النبي ﷺ في النوم . فقال : يا رسول الله لي حاجة إلى الله ، فماذا أتوسل إليه ؟

فقال : مَن كانت له حاجة إلى الله تعالى فليتوضأ ، وليسجد وليقل في سجوده أربعين مرة ، ويشير بأصبعه : «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» فإنه يستجيب دعوته .

وعنه ﷺ : اسم الله عز وجل الذي إذا دُعِيَ به أجاب ، وإذا سُئل أعطى : دعوة يونس بن مَتَّى .

وقالوا : مَن كتبها في جلد ظبي وعلّقها في وسطه ونام ، فإنه لا يستيقظ حتى يقلع هذه الكتاب . وهذا يصلح لمن طال سهره لفكرة وخوف ، أو نحوها

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ) كالنص في أنَّ سبب استجابته دعاؤه المذكور .

قال الحسن : والله ما نجّاه إلا إقراره بالظلم على نفسه . وأما ما تقدم من شفاعة الملائكة ، فمداها أنها سبب لتأثير دعائه في الإجابة ، أو شَفَعُوا ولم يُشَفَّعُوا ، بل نجّاه الله بدعائه .

(وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ) غم الالتقام ، أو غم الخطيئة نجّاه بأن أمر الحوت ، فقذفه في الساحل كالصبي ، فأصابه حرارة الشمس . فأنبت عليه شجرة من يقطين فنام فاستيقظ وقد يبست فحزن .

فأوحى الله إليه بلسان جبريل عليه السلام : حزنت على الشجرة ، ولم تحزن على مائة ألف أو أزيد . فانطلق إليهم . فقال للراعي : اسقني لبناً .

فقال : ما ها هنا شاة لبن ، فمسح بيده على ظهر واحدة فدرّت . فشرب من لبنها .

فقال له الراعي : مَن أنت يا عبد الله ؟

قال : أنا يونس .

فانطلق إلى قومه فبشرهم فأخذوه وجاءوا بها إلى الموضع فلم يجدوه، فقالوا: شرطنا لربنا أن لا يكذب معنا أحد إلا قطعنا لسانه. فتكلمت الشاة بإذن الله عز وجل. فقالت: قد شرب من لبني. فقالت الشجرة: قد استظل بي. فطلبوه فأصابوه، فكان معهم حتى مات في مدينتهم نينوى، من أرض الموصل على دجلة.

وروى أنه ألقى نفسه في دجلة وأنها البحر، وأن الحوت ذهب به إلى البحر الكبير، ثم رجع فألقاه بساحل دجلة. ونسبت هذه الرواية لابن عباس

(وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ) من غمهم إذا استغاثوا بنا. هي في مصاحفنا مكتوبة النون الثانية حمراء إشارة إلى إخفائها وفي مصحف عثمان نجي بنون واحدة وجيم مشددة وياء ساكنة. وهي قراءة ابن عامر وأبي بكر.

قال الشيخ خالد: هي قراءة عاصم وابن عامر، أصله ننجي بنونين، حذفت الثانية تخفيفاً للتكرار، فإنه ولو اختلفت الحركة لكن الحرفان واحد، والضمة دليل على أن المحذوف الثانية، وبها حصل التكرار، فهي أحق بالحذف ولو كانت أصلا، وهي فاء الكلمة، والإدغام متعذر. ولم تحذف تاء في نتجه في للبس.

وقيل: هو في قراءتهما ماض مبني للمفعول، وأنه لا حذف، وأن النائب ضمير المصدر.

ورده أن ياء الماضي الأخيرة لا تسكن وصلا وسعة، وإنما يخفف آخره بالإسكان في الشعر، أو يسكن وقفاً، وأن المصدر لا يسند إليه مع وجود المفعول به على الصحيح.

وإن قلت : لو كان كذلك لقيل : نجيت بالياء ؛ لأن المصدر الذي رجع إليه الضمير المنجية .

قلت : هو من نجا يتعدى ؛ ضُمنت معنه ، وبُنى للمفعول ، ورجع الضمير للنجاء قاله ابن هشام .

وأجيب بأن ذلك الإسكان لغة قرأ بهما الأعمش : « مُنْشُنْ ولم نجد » والحسن : « مابقْ من الربا » وأنه قد يعرب غير المفعول به مع وجوده .

وردّ أيضاً : بأن ضمير المصدر إذا كان مفهوما من الفعل لا يعرب .

وأجيب بورود نيابته في : « وحِيلَ بينهم » .

قال هو والشيخ خالد : وقيل : الأصل : ننجى بسكون النون ، أدغمت في الجيم ، كإجّاصة : واحدة الإجّاص ، وإجّانة : قصرية يغسل ويعجن فيها . يقال : إنجاصة وإنجانة ، لغة يمانية أنكرها الأكثرون .

قال : وإدغام النون لا يكاد يعرف .

قال الشيخ خالد : لأن النون تخفى عند الجيم ولا تدغم .

وقرئ ننجى بنونين والتشديد .

وزعم بعضهم أن هذه الواقعة كانت قبل نبوة يونس ـ عليه السلام ـ جوابا عما نسب إلى نفسه من الظلم .

قلت : قد مر معنى ظلمه ، ومثله يجوز صدوره من الأنبياء .

والحق أن النبي معصوم من الكبيرة ، قبل النبوة وبعدها .

قالوا : « وذا النون ـ إلى خاشعين » لزوال الهم والكيد وضيق الأسباب .

وروى : من ضاقت حاجته دنيوية ، أو أخروية ، فليرجع إلى الله ويتب ، ويستغفر ، سبعين مرة ، ويُصَلّ على النبي ﷺ كذلك ، ثم يتوضأ ويُصلّ

ركعتان بالفاتحة وغيرها. فإذا سلم استغفر وخلع كما مرّ. وقرأ «الذين قال لهم الناس إن الناس - إلى - الوكيل» «وأيوب إذ نادى - إلى العابدين» «وذا النون - إلى - المؤمنين» و «فستذكرون ما أقول - إلى - العذاب» و «فإن تولوا فقل حسبي الله» الخ ويسأل حاجته.

وقالوا : من أصابه غم فليكتب في قرطاس ويلقه في الماء الجاري : بسم الله الرحمن الرحيم : من العبد الذليل إلى المولى الجليل . رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين . اللهم بحرمة محمد ﷺ اكشف ضري وغمي ، وفرّج همي وغمي .

(وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ) يا رب . (لَا تَذَرْنِي) لا تتركني (فَرْدًا) بلا ولد يرثني . والجملة مفعول لقول محذوف ، أي بقوله : « رب لا تذرني فردا » أو قال : رب لا تذرني .

(وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) رد أمره مستسلما إلى الله كأنه قال : إن لم ترزقني ولداً فلا أبالي به ؛ فإنك خير الوارثين .

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) أي جعلناه بولد ، يسمى يحيى ، وأصلحنا رحم امرأته للولادة بعد ، أي جعلناها وَلوداً ، بعد أن كانت عقيما .

وقيل : إصلاحها : تحسين خُلقها ، وقد كانت سيئة الخلق ، طويلة اللسان ولا بُعد في إرادة الكل

(إِنَّهُمْ) أي من ذُكر من الأنبياء .

(كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) في الطاعات يدخلون فيها بمبادرة ومسارعة أو « في » بمعنى « إلى » وذلك إشارة إلى أنهم استحقوا إجابة دعائهم ، لمبادرتهم إلى أبواب الخير .

وقيل : الضمير لزكريا عليه السلام وزوجه ويحيى .

(وَيَدْعُونَنَا رَغَباً) في رحمتنا ، أو طاعتنا .

(وَرَهَباً) من عذابنا ، أو معصيتنا .

وقرئ بإسكان الغين والهاء ، وهما مفعولان مطلقان ليدعوننا ، مضمناً معنى الرغبة في رحمتنا والرهبة من عذابنا ، أو حالان مبالغة ؛ أو تقديرهما بالوصف ، أو بتقدير مضاف .

(وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) متواضعين في عباداتهم ، وسائر أحوالهم .

قيل : الخشوع : الخوف اللازم للقلب ، حتى إن صاحبه يحذر ، ولا يدخل في الأمور ، خوفَ الوقوع في الإثم .

وعن الجنيد : الخشوع : تذلل القلوب لعلام الغيوب .

قيل : من خشع قلبه لم يَقْرَبه الشيطان .

وعن بعض : إن الخشوع أن يفعل الخير إذا أرخى ستره وأغلق بابه ، لا أن يأكل خشناً ، ويلبس خشناً ، ويطأطئ رأسه .

(وَالَّتِي أَحْصَنَتْ) حفظت (فَرْجَهَا) عن الحرام والحلال ، وهي مريم . والعطف على المنصوب ، أو التي مفعول به لمحذوف ، أي واذكر . وذلك مدح وتمهيد لولادة عيسى ـ عليه السلام ـ من غير أب .

وزعم بعض أن الفرج هنا هو فرج ثوبها ، وأنه مذهب الجمهور .

(فَنَفَخْنَا فِيهَا) متعلق بنفخنا ، فإن النفخ واقع فيها ، فصار منه عيسى ، أو بمحذوف حال من محذوف ، أي نفخنا في عيسى ، وهو فيها . وهذا بناء على أن عيسى كان شيئاً فيها قبل النفخ ، مثل النطفة المتقدمة منها .

ويجوز تعليق فيها بنفخنا على تقدير : في عيسى . ونحو ذلك أن يقول الزمار : نفخت في بيت فلان ، أي نفخت في المزمار في بيته .

(مِنْ رُوحِنَا) أى من الروح الذى هو ملك وخلق لنا ، أى أنفخنا فيها الروح بلا واسطة ، أو المعنى : أمرنا جبريل بالنفخ فيها ، أن ينفخ من الروح الذى هو ملكنا وخلقنا ، فأسند النفخ إلى نفسه ؛ لأنه الآمر به ، والقاضى به ، أو المراد بالروح : جبريل ، أى نفخنا فيها ، من جهة جبريل ، أى بواسطته ، والإضافة على كل للتشريف .

(وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) الإنس والجن والملائكة ، إذ ولدته من غير فحل ، ولم يقل : آيتين ؛ لأن الآية واحدة ، وهى قصتهما التى هى ولادته من غير فحل ، فيقدر مضاف ، أى جعلنا قصتها وقصة ابنها .

فإن قلت : قد قدرت قصتين ، فهل قيل : آيتين ؟

قلت : هما قصة واحدة . وإنما قدرت القصة الثانية ؛ لئلا يقع العطف على المتصل المجرور بلا إعادة الجار . وهذا كما تقول : بينى وبين بكر .

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) هذه إشارة إلى ملة الإسلام .

والأمة : الدين ، وأمة حال لازمة مؤكدة ، وصاحبها أمتكم . والإضافة إشعار بأنه يجب أن تكونوا عليها ، وهى لا تختلف بين الأنبياء . وهذا خطاب الناس .

ويجوز اتصاله بقصة مريم ؛ فإنها دليل للملة واتحادها . ويجوز كون صاحب الحال هذه .

وقرأ الحسن بنصب أمتكم ، على الإبدال من هذه ، أو المفعولية لأعنى أو أمدح محذوفا ، وبرفع أمة واحدة على الإخبار .

وقرئ برفعهما على الإخبار المتعدد ، أو الثانى خبر لمحذوف ، أى هى أمة .

(وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) وحدونى وأطيعونى ، والخطاب للناس ، وإن قلنا باتصال ذلك بالقصة :

(وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ) أى تقطّع بعض المخاطبين أمر دينهم، متخالفين فيه. وهم طوائف اليهود والنصارى، افترقت اليهود على سبعين فرقة، وكذا النصارى، كلٌّ فى النار إلا واحدة. وافترقت هذه الأمة على ثلاث وسبعين، كلٌّ فى النار إلا واحدة.

وروى: كلٌّ فى الجنة إلا واحدة.

والأصل: فتقطعتم أمركم بينكم. نقل الكلام من الخطاب للغيبة، وفى ذلك تقبيح افتراق مؤلاء إلى من سواهم، وهو فائدة الالتفات، كأنه قال: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكبوا فى دين الله، جعلوا أمر دينهم قطعا، كما توزع الجماعة شيئاً وتفرقه، يكون لكل واحد نصيب، وذلك تمثيل لاختلافهم وصيرورتهم فرقا.

قال أبو البقاء: نصب الأمر على تقدير: «فى» أو هو مفعول لتقطّعوا بمعنى قطعوا، أى فرقوا أمرهم، فكل يلعن آخر.

(كُلٌّ) من المتقطعين (إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) فنجازيهم بأعمالهم.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ) وأما الكافر فعمله باطل محبط. (فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) لا يجحد سعيه، ولا يضيع، بل يجازى به.

وأصل الشكر: الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف أو الإحسان بتعهد اللسان بما أولاه؛ والكفر عكسه. ومعنى ذلك الشكر فى حقه تعالى محال، ولكنه يستعمل بمعنى الإعطاء مجازاة.

فالكفران هنا: عبارة عن عدم الإعطاء، ونفاه بلا التبرئة توكيداً، وزاد التوكيد بلفظ الكفران، وكان يكفى أن يقال: لا كفر.

(وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ) آمرون الحفظة بكتابته، تأكيد لعدم الكفران.

(وَحَرَامٌ) قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وحرم بكسر الحاء وإسكان الراء.

وقرئ وحرم بفتح فإسكان ، ورويت القراءة الثانية أيضاً عن ابن عباس وحفص عن عاصم ، وهو مصدر في الثانية والثالثة بمعنى الوصف.

وقيل : وصف . وكذا الأولى ، قولان فيها .

(عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا) أردنا إهلاك أهلها، أو قدرنا إهلاكهم وأهلكناهم، أو وجدناهم هالكين بإهلاكنا.

(أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) وحرام بمعنى ممتنع خبر ، وأنهم الخ مبتدأ ، أي عدم رجوعهم إليها يوم القيامة للجزاء ممتنع و « لا » نافية ، أو حرام بمعنى حتم وجزم أي عدم رجوعهم إلى الدنيا ، أو إلى التوبة ، قبل موتهم ، فرض محتوم و « لا » نافية كذلك .

ويجوز أن يكون حرام بمعنى ممتنع ، و « لا » زائدة ، أي رجوعهم إلى الدنيا أو إلى التوبة في حياتهم ممتنع .

ويضعف كون « حرام » مبتدأ « وأنهم لا يرجعون » فاعله، أغنى عن الخبر لأنه لم يتقدم استفهام ، أو نفي .

ويضعف كونه مبتدأ خبره : توبتهم ، أو حياتهم ، أو عدم بعثهم محذوفا ، لأن حرام وصف، أو في معناه ، فحقه أن يكون خبرا لا مبتدأ ؛ لأنه مجرد من أل ويجوز كونه خبراً لمحذوف ، أي السعي الحسن أو العمل الصالح حرام عليهم ، وأنهم لا يرجعون تعليل ، أي لأنهم لا يرجعون إلى الدنيا .

ويؤيد هذا أن بعضا قرأ بكسر الهمزة فلا يكون خبرا لما قبله ، ولا مبتدأ له ، ولا فاعلا ، بل مستأنف للتعليل .

ولما كان الشيء الممتنع كالشيء المحرم ديانة ، كانت العرب تعبر بالحرام عن الممتنع ، بجامع عدم الوقوع .

وذكر ابن هشام ذلك إلا قليلا منه . وقال : إنه إذا جُعل حرام خبراً لأنهم لا يرجعون ، فهو واجب التقديم ؛ لأن المبتدأ أن وصلتها . وأجاز كون حرام مبتدأ خبره محذوف ، أى قبول أعمالهم . وسوغ الابتداء به : تقييده بعلى قرية ، وأنهم لا يرجعون تعليل .

وغالب ما ذكرته إنما ظهر لى ـ والحمد لله ـ ظهوراً ، ثم رأيته منصوصة لابن هشام .

وقوله : « والتى أحصنت ـ إلى ـ راجعون » لحفظ ولد الحامل ، والإعانة على الولادة . ويكتب ذلك ويعلق على الحامل ، أول ما يفطن بحملها ، أربعين يوما ، ثم ينزع إلى شهر الولادة ، ويعلق عليها . وإذا ولد ، علق فى عنقه ، فتسهل ولادته ويعجب .

(حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) حتى حرف ابتداء لإجازته على الصحيح وهى راجعة إلى حرام ، أو إلى « لا يرجعون » أو إلى محذوف دل عليه ذلك . وفيها غاية ، وهو مرادى بقولى : راجعة إلى حرام الخ ، أى فى غاية لقوله : حرام ، أى يدوم الإهلاك ، أو عدم الرجوع إلى ذلك الوقت . فإذا كان ذلك الوقت ، وقامت القيامة رجعوا .

وقرئ يأجوج ومأجوج بالهمز .

وقرأ ابن عامر ويعقوب بالتشديد للتاء .

ويأجوج ومأجوج : قبيلتان ، والاسمان أعجميان ، ويقدر مضاف ، أى فتح سد يأجوج ومأجوج ، وهما تسعة أجزاء : يأجوج ، ومأجوج ، وسائر الناس جزء .

وروى أن يأجوج ومأجوج كل يوم يشرفون على فتح السد.

روى : حتى إذا كادوا يرون ضوء الشمس ، فيقولون : غداً نفتح ، أي يقوله رئيسهم ولا يقولون : إن شاء الله . وإذا كان الغد وجدوه مردوداً كما كان . وإذا أمر الله بفتحه ألقى على لسان أحدهم أو كبيرهم : غداً نفتحه إن شاء الله فيجدونه غير مردود فيفتحونه.

قال الإمام القرطبي : كلما حفروه وجدوه من الغد أقوى مما كان . وإذا خرجوا تحصن الناس منهم في حصونهم ، ويرمون بسهامهم إلى السماء ، فيرجع عليهم الدم فيقولون ، قهرنا أهل الأرض ، وغلبنا أهل السماء ، فيبعث الله نغفاً في رقابهم فيقتلهم.

وروى : في أقفائهم . والنغف : دواب . قال ﷺ : والذى نفسى بيده إن دواب الأرض تشكر شكراً من لحومهم ، أى تسمن . قال كعب : إنهم ينقرون السد بمناقرهم . والظاهر أن المراد مناقر حديد يحدثون بها لا مناقر في أفواههم.

قال : وإذا خرجوا أتى أولهم البحيرة أوسطهم فيلحسون الطين ويأتى آخرهم فيقولون : قد كان هنا ماء . وإذا قتلهم النغف نتنت الأرض من لحومهم ، ثم يبعث الله عليهم طيرا تلقيهم في البحر ، فيرسل الله السماء أربعين يوما فتنبت الأرض ، حتى إن الرمانة تشبع السكن . قيل : وما السكن ؟ قال : أهل البيت .

وعن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أنه قال : يفتح يأجوج ومأجوج ، فيخرجون كما قال الله تعالى .

(وَهُمْ) أى يأجوج ومأجوج .

(مِنْ كُلِّ حَدَبٍ) ما ارتفع من الأرض

وقرأ ابن عباس : جدث أى قبر . وبنو تميم يسمون القبر جدثاً .

(يَنْسِلُونَ) يسرعون .

وقرئ بضم السين .

وقيل : الضميران للناس ، يخرجون من قبورهم ، وتنص قراءة ابن عباس جدث وهى أيضاً قراءة ابن مسعود . والصحيح الأول ، للحديث المذكور . وتمامه : إنهم يمتون الأرض ، ويتحصن المسلمون فى مدنهم مع مواشيهم ، حتى إنهم ليرون بالنهر فلا يذرون فيه قطرة إلا ما صرّ ، فيهزون حرابهم نحو السماء فترجع بدم ، ويرمون بالسهام فترجع به . فيقولون : قد قتلنا أهل الأرض . زاد فيه : فيموتون موت الجراد بعضهم على بعض بدواب ، كنغف الجراد ، فيصبح المسلمون لايسمعون حسا ، فيقولون : مَن يشرى نفسه وينظر ما فعلوا فيخرج واحد وقد وطن نفسه على الموت فيجدهم موتى ، فينادى : أبشروا فقد هلك عدوكم ، فيخرجون ويخلون سبيل مواشيهم . فما يكون لهم رعى إلا لحومهم ، فتشكر كأحسن ما شكرتْ من نبات أصابته .

وفى الحديث دليل على جواز إطعام النجس للدابة ، أو على جواز تركها والشىء النجس .

وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ لقى إبراهيم وموسى وعيسى ، فتذاكروا الساعة فسألوا إبراهيم عنها ، ولم يكن عنده علم شىء منها ، ثم موسى كذلك ، ثم عيسى فقال : قد عهد إلىَّ فيما دون وجبتها . فذكر خروج الدجال ، وأنه يقتله هو ، فيرجع الناس إلى بلادهم . فستقبلهم يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فلا يمرون بماء إلا شربوه ، ولا بشىء إلا أفسدوه ،

فيجأرون الناس إلى الله . فادعوا الله فيميتهم ، فتنتن الأرض من ريحهم . فيجأرون إليه ، فادعوه ، فيرسل السماء بالماء يلقيهم فى البحر ، ثم ينسف الجبال ، وتمد الأرض كالأديم ، والساعة حينئذ كالحامل تضع ليلها أو نهارها ، كما قال الله تعالى :

(وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ) القيامة . قال حذيفة : لو أن رجلا اقتنى فلوًّا ، بعد خروج يأجوج ومأجوج ، لم يركبه حتى تقوم الساعة ، يعنى مُهْراً .

وعن النواس بن سمعان : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع ، يعنى خفض الصوت ورفعه ، من شدة ما تكلم فيه ، أو هونه وقبحه ، وعظّم فتنته . ثم قال : غير الدجال أخوفنى عليكم إن يخرج الدجال وأنا فيكم فأنا حجيجه ، وإلا فالله خليفة كل مسلم إنه أعور ، وبينه طافية كتيبة . فاقرأوا عليه فواتح الكهف . ويخرج بين الشام والعراق ، فيفسد يمينا وشمالا يا عباد الله اثبتوا ، ولبثه فى الأرض . أربعون يوما يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم .

قالوا : ويُصلّى فى تلك الأيام الكبار قدر صلوات ما فيها من الأيام المعادة . ويسرع كغيث استدبرته الريح فيؤمن الناس به . يأمر السماء فتمطر ، والأرضَ فتنبت ، فتكون هى ودوابهم أحسن ما كانت . وتتبعه أموال الناس ، ويمر بالخربة ، ويقول : أخرجى كنزك فيتبعه . ويضرب شابا ، ويقطعه نصفين ، ويدعوه فيقبل ضاحكا ، فيبعث الله عيسى ، عند المنارة البيضاء ، شرقى دمشق بين مهرودتين ـ إهمال الدال وإعجامها ـ أى شقتين ، أو حُلّتين ، أو ثوبى زعفران . أقوال واضعاً كفيه على أجنحة مَلَكين . إذا طأطأ رأسه قطَر ، وإذا رفعه تحدّر منه كجُمان اللؤلؤ . وكل كافر وجد ريح نفسه مات ، ونَفَسُه ينتهى حيث

يقتدى طرفه ، ويقتل الأجال ، ويمسح وجوه قوم عصمهم الله ، ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة .

ثم يوحى الله إليه : إنى قد أخرجت عبادا لى لا طاقة لأحد بقتالهم ، فأحرز عبادى إلى الطور . فيخرج يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أوائلهم ببحيرة طبرية ، فيشربون ماءها ، فيمر آخرهم ، ويقول : لقد كان هذا ماء ، ويكون رأس الثور يومئذ خيرا من مائة دينار ، فيرغب هو ومن معه من المؤمنين إلى الله ، فيرسل عليهم النَّغَفَ فى رقابهم ، فيصبحون فَرْسَى ، أى قتلى ، جمع فريس ، كموت نفس واحدة ، فلا يجد الناس فى الأرض موضع شبر إلا ملئ بزهمهم وأجزائهم .

والنَّغَف : دود يكون فى أنوف الإبل والغنم . فيرغب نبى الله والمؤمنون ، فيرسل طيرا كأعناق البُخت ، فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطرا لا يكون منه بيت مَدَر أو شَعر ، فيغسل الأرض حتى تكون كالمرآة نظافة واستواء ، فتكون الرمانة تكفى العصابة . ولقحة الإبل القبيلة . ولقحة الغنم الفخذ ، ثم يبعث الله ريحا طيبة ، فيقبض روح كل مؤمن . ويبقى شرار الناس ، يتهارجون كتهارج الحُمُر ، فعليهم تقوم الساعة ، ولن تقوم حتى يكون الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى ، ويأجوج ومأجوج ، وخسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب . وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى المحشر . ويأجوج ومأجوج كلهم لجهنم . صنف كشبر ، وصنف كشبرين ، وصنف طوله وعرضه سواء ، وصنف كالإبهام ، وصنف كالنخلة السحوق . وهم من ولد يافث بن نوح

... ويأجوج ومأجوج أمتان ، في كل أمة أربع مائة ألف أمة ، ليس منها أمة يشبه بعضها بعضاً .

وعن الأوزاعي : أنه قال : الأرض سبعة أجزاء : ستة يأجوج ومأجوج ، وجزء سائر الخلق .

وعن قتادة : أرض غير يأجوج ومأجوج ، اثنا عشر فرسخا الهند ، والهند وثمانية آلاف الصين ، وثلاثة آلاف الروم ، وألف فرسخ العرب .

وأشد يأجوج ومأجوج من عَرْضُه كطوله ، ومنهم مَن طوله مائة وعشرون ذراعا ، لا يقوم لهم جبل ولا حديد . ومنهم من يفرش أذنه ، ويغطى بالأخرى ، ولا يمرون بفيل ولا خنزير إلا أكلوه ، ويأكلون من مات منهم ، وعدة أولاد . مقدمتهم بالشام ، وساقتهم بخراسان ، ويشربون ماء المشرق ، ويمنعون من مكة والمدينة وبيت المقدس ، ويأكلون كل ما فيه روح . وليس في خلق الله من ينمو ويكثر مثلهم ، يتداعون كالحمام ، ويعوون كالذئاب ويتسافدون حيث التقوا ، ومنهم من له قرن وذنب وأنياب بارزة ، يأكلون اللحم بلا طبخ ولا شوى ومنهم من طوله أربعة أذرع ، ومن عرضه أربعة أذرع ، أكثر من طوله ، ولبعضهم مخالب .

وعن علي : لهم شعور تقيهم الحر والبرد ، وآذان عظام ، إحداها وبرة يشتون فيها ، والأخرى جلدة يصيفون فيها .

وعن كعب : احتلم آدم ، واختلط ماؤه بالتراب فخلقوا منه . قال الأندلسيون : هذا لا يصح ، لأن الأنبياء لا تحلم .

وإذا خرجوا عمّوا الأرض حتى لا يجد الطائر أين يضع أفراخه .

وروى : أنهم يأتون بيت المقدس ، ويرمون المؤمنين بالنبل ، حتى يجعل

الظل موقهم، ويدعو عيسى ويؤمّن المهدى والمسلمون، فيهلكون بريح عاصف، تخرج لهم بها خُرّاجات فى مخارجهم.

وعن ابن عمر : الملائكة تسعة أجزاء : الكروبيون، وجزء سوائر ؛ الإنس والجن تسعة أجزاء الجن، وجزء الإنس تسعة يأجوج ومأجوج وجزء سائر الناس.

وفى الحديث : تسع مائة وتسعة وتسعون إنساناً إلى النار تعد فيهم يأجوج ومأجوج كلهم والمشركون، وواحد إلى الجنة من غيرهم ممن لزم الدعوة. قيل : ليلة الإسراء، ولم يؤمنوا، ولا يموت واحد حتى يخلف ألف ولد حمل السلاح، وكل صنف منهم نشأ منهم.

وروى : أنهم مائة ألف أمة، لا تشبه أمة أمة

وقال قتادة : اثنتان وعشرون قبيلة. فسد ذو القرنين عن إحدى وعشرين، والقبيلة الأخرى غازية. وهم الترك، سموا لأنهم تركوا.

وقال الأوزاعى : هما أمتان، كل أمة أربعمائة ألف.

وقال ابن عمر : ثلاث أمم لا يحصيهم إلا الله : تاويل، وتارس، ومنسك.

وإذا خرجوا شربوا ماء البحار العذب والمالح كلها.

وروى : أن الريح التى يهلكهم الله بها يعقبه من تحت العرش، ويُحج البيت ويعتمر بعد موتهم.

(فَإِذَا) الفاء عاطفة، أو زائدة، أو مستأنفة، أو سببية مجردة عن العطف أقوال فيها. قيل : إذا الفجائية، ويجوز كونها رابطة لشرط محذوف، أى إذا وقع الوعد، وإذا بعدها للمفاجأة، مؤكدة للربط إذا جعلت الفاء رابطة.

(هِيَ) ضمير القصة عند سيبويه (شَاخِصَةٌ) خبر مقدم، أى حديدة النظر دون أن تطرف. وذلك يكون لنحو الخوف المفرط، والهول المذهل.

(أبصارُ الذين كفروا) إظهار في محل مضمر، والجملة خبر هي القصة لا تحتاج لرابط؛ لأنها نفسه معنى.

والبدل قراءة يكون هي ضمير للمبهم الذي تفسره الأبصار، ويكون شاخصة خبراً للأبصار. وعليه شاخصة خبر مقدم، وأبصار خبر. والجملة خبره ـ كما مر ـ أو شاخصة مبتدأ، وأبصار فاعل شاخصة، وإن كان اسماً على الأول.

قال: وأجاز الكوفيون والأخفش تفسير ضمير الشأن بمفرد، وعليه فيجوز كون شاخصة خبراً لهي مع أنه ضمير الشأن. (يَا وَيْلَنَا) أي يقولون: يا ويلنا؟ أو قائلين: يا ويلنا. وصاحب الحال التي هي يقولون، أو قائلين هو الذين وإن كان مضافاً إليه؛ لأن المضاف جزؤه.

(قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا) أي من هذا اليوم.

(بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) أنفسنا بتكذيب الرسل، وعبدنا من لم يتأهل للعبادة.

(إِنَّكُمْ) يا أهل مكة (وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) الأصنام وإبليس وإخوته.

(حَصَبُ جَهَنَّمَ) ما يرمى به إليها، وتهيج به، من حصبه حصباً بسكون الصاد للمصدر، أي رماه بالحصباء.

وقرئ حضب جهنم بالإسكان، جعلوا مبالغة نفس الحصب، أو يقدر مضاف أو يؤول باسم مفعول، أي محصوبها، أي ما تحصب به.

وقرئ حضب بالإعجام مفتوحاً ومسكناً.

وقرأ أبيّ حطب، بالطاء المهملة.

وعبده ﷺ : الشمس والقمر فى النار . قال بعضهم : ألستم تقرؤون : إنكم وما تعبدون الخ ؟

روى أنه ﷺ دخل المسجد ، وصناديد قريش فى الحطيم ، وحول الكعبة ثلاثمئة وستون صنما ، جلس إليهم ، فعرض له النضر بن الحارث فكلمه ﷺ ، فأفحمه ، وتلا : « إنكم وما تعبدون » الخ . وأقبل عبد الله بن الزبعرى فوجدهم يتهامسون . فقال : فيم خوضكم ؟

فأخبره الوليد بن المغيرة ، بقوله ﷺ . فقال : أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه .

فقال له : أأنت قلت ذلك ؟

قال : نعم .

قال : قد خصمتك ورب الكعبة ، أليس اليهود عبدوا عزيرا ؟ والنصارى عيسى ؟ وبنو مُدْلِج الملائكة ؟

فقال ﷺ : بل عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك ، وإنك جاهل بلغة قومك فإن « ما » لغير العقلاء إلا بقرينة ، وهذا دليل على أن ما تعبدون مراد به غير العقلاء ، وأيضا الخطاب لكم ، وأنتم تعبدون الأصنام ، وأن المراد هذه الأصنام الحاضرة ويقاس عليها غيرها قياسا . ونزل : « إن الذين سبقت لهم » الخ ، وهم عيسى وعزير وغيرهما ممن لم يعبد ، وأما الملائكة فيفهم إبعادهم عنها بالأولى .

قيل : يجوز أن يراد العقلاء فيكون الجواب ، بأن الذين سبقت الخ دليل على ذلك ، وعلى إخراج بعض العقلاء المعبودين .

وقد روى أن ابن الزِّبَعْرَى قال : هذا خاص بآلهتنا أو كل من عُبِد ؟

فقال ﷺ : لكل من عبد. فالجواب متأخر عن الخطاب بناء على التجوز في لفظ « ما » أو للتخصيص ، وسعاً في القصة - إن شاء الله.

وروى أنه أجاب بالآية بعد ذلك . فقال له : هل لا إذ سألتك قلت ، ولكن تفكرت إذ خلوت .

قال ابن حجر : الزبعرى بكسر الزاى وفتح الباء وسكون العين المهملة : معناه السيء الخلق ، أو كثير شعر الوجه .

قال : إن عبد الله بن الزِّبَعْرَى هو ابن الزبعرى بن قيس بن عدى بن سعيد بالتصغير ابن سهم من أعيان قريش في الجاهلية ، ومن فحول الشعراء ، وكان يهاجى المسلمين . أسلم عام الفتح، وحَسُن إسلامه ، وله أشعار يعتذر فيها مما سبق منه ، فهو لم يعمه الخطاب ، وإنما يقرنون بآلهتهم في جهنم ، لزيادة غم ، حيث أصابهم ما أصابهم بها ، والنظر في وجه العدو باب من العذاب، ولأنهم قد رأوا أن يشفعوا ، فإذا رأوهم بتلك الحالة كانوا أبغض شيء إليهم .

(أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) داخلوها (لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا) بتخويفهم حمرة آلهة وإخفائها .

(وَكُلٌّ) من العابدين والمعبودين .

(فِيهَا خَالِدُونَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ) أصوات توجّع أو تنفُّس، بعد امتلاء الصدر .

وقيل : الزفير منها جزاء لهم .

وقيل : المراد أنها ترميهم ، حتى إذا كانوا بأعلاها ، ضُربوا بمقامع الحديد فيهوون سبعين خريفا .

وروى أنهم يدعون مالكا فيذرهم مقدار أربعين عاماً فيجيبهم : « إنكم

ما كثرون ، ويعبدون الله ، ويلزم مقدار الدنيا مرتين ، ويقولونه « اخسئوا فيهـــا » .

وإن قلت : الزفير إنما يكون من العابدين والمعبودين العقلاء ، لا من الأصنام .

قلت : أثبت الزفير للكل ، لأنهم معهم وحكماً على المجموع وتغليباً والليس مأمون ، أو الضمير لمن يكون قابلا للزفير فقط ، أو ما يعبدون العقلاء فقط . وكذا الكلام فى نفى السمع فى قوله :

(وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ) لشدة غليانها ، أو يصمهم الله كما يعميهم .

وعن ابن مسعود : يجلسون فى توابيت من نار فلا يسمعون ولا يرون شيئاً .

وروى أن تلك التوابيت تجعل فى توابيت أخرى ، وتجعل هذه فى أخرى وصاهم الكل من النار ، ولا يرى أن أحداً يعذب فى النار سواه .

وزعم قومنا أن عدم السمع والجعل فى التابوت مختص بالمشرك .

وقيل : المراد لايسمعون مايسرهم .

وزعم بعض أن تلك ثلاث آيات متصلات نسختهن ثلاث متصلات : « إن الذين سبقت » الخ .

(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى) المنزلة الحسنى ، والمذكر الأحسن . والمراد : عيسى وعزير والمؤمنون . وأما الملائكة فلا يشتهون النعم . وتلك المنزلة الحسنى هى ما لهم فى الجنة ، أو السعادة أو البشرى . وذلك فى الآخرة ، أو التوفيق للطاعة ، أو الوعد بالجنة .

(أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) .

وقيل : المراد بذلك كله من أطاع الله ، وعبد غيره وهو كاره لتلك العبادة .

ويروى أن عليًّا خطب وقرأ الآية، ثم قال: أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وابن الجراح. ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه وهو يقول قوله تعالى: «لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا»

الحسيس: الصوت المحسوس.

وقال الفزارى: الصوت الخفى.

(وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ) أى ما طلبت أنفسهم من اللذات، وتقديم الجار والمجرور للفاصلة والحصر والاهتمام. وجملة «لا يسمعون» بدل من «مبعدون»؛ لأنه فى معنى الفعل، أو حال من ضمير «سبقت لهم الحسنى».

وقوله: «إن الذين - إلى - كنتم توعدون» لزوال الحمى وجميع الأمراض تكتب فى إناء طاهر، وتمحى بماء طاهر، من بئر لا تراها الشمس، ثم يسقى منه المريض ثلاث جرع ويرش على ظهره باقيه، وذلك وقت اشتداد الوجع. يفعل ذلك ثلاث مرات، يبرأ بإذن الله.

ومن كتبها فى إناء طاهر، ومحاها بدهن البابونج، ودهن به وجع الوسط والركب والظهر، فينفعه نفعا تاما عظيما - إن شاء الله.

(لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) قال ابن عباس: النفخة الأخيرة؛ لقوله تعالى: «ويوم ينفخ فى الصور ففزع» الخ.

وقيل: ذبح الموت.

وقال الحسن: بأن يؤمر بالعبد إلى النار.

وقال الضحاك: بالإطباق على النار.

وقيل: بجميع أهوال القيامة.

(وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) على أبواب الجنة.

وقال الحسن : حين الخروج من القبر ، مهنئين قائلين :

(هٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) بنعيمكم الله فيه .

(يَوْمَ) مفعول به لا ذكر ، أو ظرف ليحزن أو لتتلقاهم ، أو حال من يومكم أو من مفعول توعدون المحذوف ، وهو على الحالية غير ظرف .

(نَطْوِي السَّمَاءَ) الطى : ضد النشر . قيل : والمراد المحو كقولك : اطو عنى هذا الحديث . وإنما طويت لأنها نشرت مظلة الخلق ، ونافعة بالإضاءة والاعتبار وغير ذلك ، إذا زالوا زالت . والمراد : السموات . فأل للاستغراق . ولك أن تقول : هو جمع سماءة . وكذا فى مثل هذا المقام . ذكره الشيخ أحمد فى شرح العقيدة .

وقرئ يطوى السماء بالمثناة التحتية ، والفاعل ضمير الله .

وقرأ أبو جعفر تطوى ، بالمثناة الفوقية ، والبناء للمفعول ، ورفع السماء .

وقرئ بالتحتية والبناء للمفعول .

(كَطَيِّ السِّجِلِّ) وقرئ السجل بضم السين والجيم .

وقرئ بفتح السين وإسكان الجيم ، وبكسر السين وإسكان الجيم ، وهو اسم ملك يطوى كتب الأعمال إذا رفعت إليه .

(لِلْكِتَابِ) صحيفة ابن آدم عند موته . وقيل : اسم ملك يكتب أعمال العبد إذا رفعت إليه .

وروى أبو داود — وهو من علماء الأندلس — أنه اسم كاتب للنبى ﷺ .

قال السهيلى : هذا غير معروف . وعن ابن عباس : هو الصحيفة . وعليه فالكتاب بمعنى ما كتب فيها . واللام بمعنى على . ويدل له قراءة حمزة والكسائى وحفص على الجمع ، بضم الكاف والتاء . كذا قيل .

والحق جواز كون السجل ملكاً أو كاتباً للنبي ﷺ ، في هذه القراءة ، والإضافة إضافة مصدر لفاعله .

وإن جعلنا السجل : الصحيفة فإضافة مصدر لمفعول

وعلى الأول فاللام لام التقوية في المفعول به ، أو التعليل على أن الكتاب مصدر أى من أجل الكتابة ، أو بمعنى ما كتب في الصحيفة .

ويجوز التعليل أيضا على تفسير السجل بالملك ، أو بالكاتب .

وأخرج ابن أبي مردويه ، من طريق ابن الجوزى ، عن ابن عباس : أن السجل بلغة الحبشة : الرجل .

قال ابن جنى : السجل ، الكتاب قال قوم : فارسى معرّب . وطىّ نعت لمصدر محذوف ، أى طياً تابعًا كطى ، وعلى حرفية الكاف .

ويجوز تعليقها بنطوى وطيًّا مثل طى .

وعن الحسن : تطوى السماء من فوقها ، كما تُطوى الصحيفة من فوقها . فإما أن تشق من فوقها وتُطوى بيه ، أو تطوى منثنية ، وإلا نهى كقشرة البصل .

ولعل المراد : الكناية عن مجرد الإزالة ، ولو كان التشابيه بطىّ السجل يضعف ذلك .

(كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) الكاف كاف كطىّ ، راجعة إلى نعيده ، وما مصدرية ، والهاء لأول ، كما أنشأنا الخلق من عدم ، على غير مثال ، بقدرتنا نعيدهم بعد إعدامهم .

ويجوز كون الكاف مكفوفة ، وما كافة ، وأول مفعول بدأنا ، وقيل : أو مفعول لمحذوف دل عليه نعيده . قيل : أو « ما » اسم موصول ، والكاف متعلق بمحذوف يفسره نعيده ، أى كالذى بدأناه وأول خلق ظرف لبدأنا ، أو حال من

لضمير الموصول المحذوف ، والخلق مصدر ، أو بمعنى اسم مفعول ، والتنكير إشارة إلى التفصيل كقولك : هو أول رجل جاءنى : تريد أول الرجال ، ولكن نكرت إرادة لتفصيلهم رجلا رجلا .

وفى الآية إعلام بأن قدرته بالبدء ، كما قدر على الخلق ، يقدر على البعث ، وفيها قياس البعث على الخلق .

(وَعْدًا) مفعول مطلق مؤكد لنعيده ، على حد : قعدت جلوسا ؛ لأن قوله : « نعيده وعدا » بالإعادة .

(عَلَيْنَا) نعت لوعدا .

ويجوز كون وعدا مصدرا لمحذوف مؤكد ، أى وعدناه وعدا .

وفسر الكلبى الآية : بأن المعنى : نرد الناس نطفا ، ثم عظاما ، ثم لحما ، ثم ينفخ فيهم الروح كما كان ذلك أول ما خلقوا .

وقيل المعنى : كما خلقناهم حفاة عراة غرلا ، كذلك نبعثهم .

عن ابن عباس — رضى الله عنهما — : وعظنا النبى ﷺ وقال : « يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله عراة حفاة غرلا » كما بدأنا أول خلق نعيده .

والأعزل : مَن لا سلاح معه

وقيل : المراد غير مختونين .

وقيل : علينا خبر لمحذوف ، والجملة نعت ، أى علينا إنجازه .

(إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) قادرين على فعل ذلك وغيره .

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ) كتاب داود .

(مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) القرآن العظيم . والبعدية رتبية تقول : عيسى بعد سيدنا محمد صلى الله عليهما وسلم . تريد أن شأن سيدنا محمد أسبق وأعظم من شأن سيدنا

عيسى . والبعدية ذِكرية ، كقول الأستاذ لتلميذه : قد أقرأتك الأجرومية ، بعد الألفية ، وهو قدّم له الأجرومية . كأنه قال : قد أقرأتك الألفية ، وإنى أخبرك بعد ذلك ، أنك قد أقرأتك الأجرومية . أو البعدية بمعنى الزيادة ، أى زيادة عن الذكر ، وعن الألفية .

وقيل : الذكر : التوراة .

وقيل : جنس ما أنزل الله على الأنبياء . والذكر : اللوح المحفوظ المنسوخة عن منه .

وقيل : الزبور : كتاب داود ، والذكر : التوراة .

وقالت فرقة : الزبور : مابعد التوراة من الكتب ، والذكر : التوراة .

وقال ابن عباس : الزبور : التوراة ، والذكر : ما قبلها .

وإنما صح إطلاق الزبور على غير كتاب داود ؛ لأنه من زَبَرَ يَزْبُرُ ، أى كَتَبَ .

وقيل : الزبور : كتاب داود ، والذكر : القرآن ، وبعد بمعنى قبل .

(أَنَّ الْأَرْضَ) أرض الجنة .

وقيل : بلاد الكفار والقولان عن ابن عباس .

وقيل : الأرض المقدسة .

(يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) أمة محمد ﷺ ، أو الصالحون مطلقاً .

وسكّن حمزة ياء عبادى ، وحذفها للساكن .

(إِنَّ فِي هَٰذَا) أى القرآن .

وقيل : المراد فى هذا المذكور من الآيات .

(لَبَلَاغًا) وصولا إلى البغية .

وقيل : كفاية ؛ لما فيه من الأخبار ، والوعد ، والوعيد ، والمواعظ البالغة .

(لِقَوْمٍ عَابِدِينَ) همتهم العبادة دون العادة .

وقيل : عاملين به .

وقيل : العابدون : المصلون الخمس من هذه الأمة .

وقيل : المراد بهذه العبادة : الصلاة ، والصوم المفروضان .

وعن ابن عباس : العابدون بمعنى العاملين . وأنت خبير أن العلم لا ينفع بلا عمل .

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ) يا محمد (إِلَّا رَحْمَةً) مفعول لأجله .

(لِلْعَالَمِينَ) الإنس والجن وغيرهما دنيا وأخرى . وذلك أن ماجاء به سبب لإصلاح المعاد والمعيشة ، فهو رحمة ، وإن لم ينتفع به الكافر ؛ فإنه إنما أوتى من قِبَل نفسه وكسلها ، كعين ماء عذب مشترك فيها . فبعض يحرث بها ، ويسقى ، وبعض فرّط . وكان الناس أهل كفر وجهالة . وأهل الكتاب فى حيرة ؛ لوقوع التغيير ، وطول المدة ، فبُعث مميزا للحق من الباطل ، ورفع الله به المسخ والخسف والاستئصال ، فهذه نعمة دنيوية ، وقمت الكافر .

وقيل : المراد بالرحمة الرحمة الدينية . والمراد بالعالمين : المؤمنون .

(قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) أى ما يوحى إلىّ إلا أنه لا إله إلا هو . والمقصود الأصلى من بعثه مقصور على التوحيد ، وإنما الأولى لقصر الصفة التى هى الإيحاء على الموصوف ، الذى هو الوحدانية ، والثانية لقصر الموصوف ، الذى هو الإله على الصفة ، التى هى الوحدانية . فالوحدانية صفة وموصوف .

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) مخلصون العبادة لله ، موحّدون له ؛ فإن الوحى الوارد على هذه الطريق يوجب أن تخلصوا التوحيد لله ، وأن تخلعوا الأنداد . وفى ذلك دليل على أن صفة الوحدانية ، يصح أن يكون طريقها السمع والاستفهام ، بمعنى الأمر .

ويجوز جعل ما الأولى اسم إنّ ، و « أنما إلهكم إله واحد » خبرها ، فنائب يوحَى ضمير ما ، بخلافه على ما مر ، فنائبه المصدر المسبوك بما بعده .

ويجوز جعل الثانية كذلك ، بحذف صدر الصلة ، لطولها بالإضافة ، أى أن الذى هو إلهكم . فإله خبر لأن ، كما كان — على ما مر — خبراً لإلهكم ، لكن فى ذلك جعل ما للعالم وحده .

(فَإِنْ تَوَلَّوْا) عن التوحيد والإسلام .

(فَقُلْ آذَنْتُكُمْ) أعلمتكم ، من أذِن بمعنى علِم . دخلت عليه همزة النقل ، لكن كثر استعماله فى الإخبار والإنذار ، أى آذنتكم بما أمر فى ربى ، أو بالحرب ؛ إذ توليتم عن الإسلام والتوحيد .

(عَلَى سَوَاءٍ) حال من الفاعل والمفعول ، أى كائنين على استواء فى الإعلام . أعلمتكم ربى بلسانى ، كما أعلمنى بلسان جبريل ، بما أمرتكم به من التوحيد والإسلام ، أو الحرب ، أو على استواء فى علم ذلك ، ولست مختصا به دونكم ؛ لتتأهبوا . فهو مستعار ، كرجل بينه وبين أعدائه هدنة ، فأحس منهم بغدر ، فنبذ إليهم العهد ، وشهّر النبذ ، وأعلمهم جميعا بذلك . والحال مقدرة ؛ فإن الاستواء إنما حصل بعد تمام الإعلام .

ويجوز تعليقه لمحذوف ، ونعت لمصدر محذوف ، أى إيذانا ثابتا على سواء ،

أو حال من الفاعل ، أى أعلمتكم ، وأنا على عدل ، واستقامة رأى بالبرهان ، لا كاذبا

وقدر بعضهم : آذنتكم أنى على سواء .

(وَإِنْ أَدْرِى) أى ما أدرى .

(أَقَرِيبٌ) مبتدأ ، وفاعله المغنى عن الخبر محذوف ، أى ما توعدون ، أو يقدر ضمير منفصل كما قلنا .

(أَمْ بَعِيدٌ) مبتدأ (مَا تُوعَدُونَ) فاعل أغناه عن الخبر .

ويجوز كون ما توعدون المذكور فاعلا لقريب ، وفاعل بعيد محذوف وأولى من ذلك جعل قريب خبرا مقدما ، وبعيد معطوفا عليه ، عطف مفرد على مفرد ، بخلافه على ما سبق ، فعطف جملة على أخرى ، وما مبتدأ مؤخر ، لسلامته من الحذف ولا سيما أن الفاعل على الصحيح لا يحذف ، ولو للدليل ، إلا فى مواضع مخصوصة . نعم يصح التنازع ، فيهمل المهمل فى ضمير ما ، وما فاعل للمعمل ، أغنى عن خبره ، لكن فى ذلك أيضا إشكال ، ظهر لى بعد ما قلت ذلك ؛ فإن الوصف إنما رفع ظاهرا أو ضميرا بارزا منفصلا ، يغنى عن خبره ، لا ضميرا ، مستترا .

وإن قيل : إن المهمل عمل فى منفصل محذوف ، فقد علمت أن الفاعل لا يحذف .

وأجاز الكسائى حذف الفاعل من المهمل ، إذا كان ضميرا . واطلعت بعد هذا على أن ابن هشام والصبان بحثا فى المسألة كبحثى ذاك ولكنه شمع أقائم الزيدان أم قاعدان ؟ بعطف . فقال ابن هشام : قاعدان مبتدأ فيه ضمير مستتر ، مغن عن الخبر ، توسعا فى الثوانى فيجوز مثله فى الآية ، لكنه ضعيف . والذى

توعدونه من غلبة المسلمين عليهم، مع الإيعاد، أو الوعد، بجواز استعمال الوعد فى الشر بقرينة، أو الذى يوعدون: البعث والجزاء، وأنه لا محالة كائن.

(إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) ما لم تتقولوه، بل أبقيتموه فى قلوبكم، أو ما ذكرتم بإسرار. وإذا كان يعلم سر القول، فسر الفعل أولى، بل هما عنده سواء. فقد علم الله أعمالكم وأقوالكم القبيحة، فيجازيكم بها، وقد علم أحقادكم على المؤمنين، فيجازيكم عليها

(وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ) ما أدرى لعل ما توعدون، أو ما آذنتكم، ولم يعلم وقته اختبار لكم، كيف تصنعون؟

وقيل: الضمير لتأخير الجزاء.

وقال الحسن: الضمير لما هم فيه من النعم فى الدنيا.

(وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) تمتيع إلى وقت مقدر، تقتضيه مشيئته، ويكون الوعد فيه على طريق الحكمة.

والحين: وقت الموت، أو القيام من القبر. قيل: هذا مقابل لقوله: «فتنة لكم» ولكن لم يسلط عليه الترجى، وهو مشكل؛ لأنه إذا عطف على خبر لعل، فقد سلط عليه إلا إن أريد أنه خبر لمحذوف. والجملة معطوفة على نفس لعل وما بعده.

واعلم أن مجموع لعل ومعموليها سدت مسد مفعولى أدرى. وقد عد ابن هشام «لعل» من المعلقات، فى الشذور. وكذا الكلام فى: «وإن أدرى» لكن التعليق فيه بالاستفهام.

(قُلْ) يا محمد. وقرأ حفص قال: أى رسول الله ﷺ.

(رَبِّ) يارب بحذف الياء، والاستغناء عنها بالكسرة، ولم تحذف للساكن بعدها، وإلا لثبتت فى الخط.

وقرئ بضم الهاء نكرة مقصودة، أو مضاف للياء، أبدلت الكسرة ضمة، بعد حذف الياء، تشبيها بالنكرة المقصودة.

(احْكُمْ) بيني وبين مكذبي.

(بِالْحَقِّ) أمره الله باستعجال العذاب لقومه. فعذبوا يوم بدر وأُحُد والأحزاب وحُنين والخندق، ونُصر عليهم.

وفائدة ذكر الحق، مع أنه تعالى لا يحكم إلا به، تلويحاً إلى معنى احكم بالعدل، المقتضى لتعجيل العذاب وتشديده، كقوله ﷺ: اللهم اشدد وطأتك على مُضر.

وعن الحسن أن النبي ﷺ إذا دعا على قومه هلكوا.

وقيل: ذُكر الحق إظهاراً للرغبة.

وقرئ رب أَحكِم بفتح الهمزة وكسر الكاف، من الإحكام، وهو الضبط والتحفظ في الأمر.

وقرئ ربي أحكمُ، بإثبات الياء وفتح الهمزة والكاف وضم الميم. فربي مبتدأ، وأحكم خبره، اسم تفضيل.

(وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ) كثير الرحمة.

(الْمُسْتَعَانُ) المطلوب منه المعونة، خبر ربنا، والرحمن بدل ربنا، أو بيان، أو خبر أول، أو نعت على أنه صفة.

(عَلَى مَا تَصِفُونَ) أي على ما تصفونه به، من اتخاذا لصاحبة والولد، وتصفوني بالسحر وغيره، والقرآن بالشعر وغيره، وتصفون أن الشوكة تكون لكم، وأن راية الإسلام تخفق أياما ثم تسكن، وأن الموعَد به ـ لو كان حقا ـ لنزل، فكذب الله أمانيهم وأقوالهم، ونصر رسوله ﷺ.

وقرئ بالمثناة التحتية .

وعن قتادة : كان ﷺ إذا شهد قتالا قال : رب احكم بالحق .

اللهم ببركة نبيك محمد ﷺ وبركة السورة أخزى النصارى ، وأهنهم ، واكسر شوكتهم ، وغلِّب المسلمين والموحدين عليهم . وصلى الله سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

⁂

تمت القطعة العاشرة ، نصفها الأول ، من تفسير القرآن العظيم ، من كلام رب العالمين ، ويتلوها تمام العاشرة التي أولها سورة الحج ، من تصنيف الشيخ العالم الفقيه النحرير : محمد بن يوسف اليسجني الأباضي الوهبي المغربي ، أبقاه الله تعالى وزاده علما . آمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وكان تمامها يوم ٢٥ من شهر ربيع الأول في سنة ١٣١٠ هـ .

⁂

ليعلم الناظر في هذا الكتاب أنه لا بد به من غلط لعدم وجود المصححين من أصل نسخته التي هي بالخط المغربي فلينظر الناظر وليسد خلله ويحسن إن الله يحب المحسنين .